سأطفئ المصابيح

الرواية الحائزة على جائزة أفضل رواية فارسية

فى مهرجان الأدب بإيران عام ٢٠٠١م

زويا پيرزاد

ترجمة

د. هويدا عزت محمد
كلية الآداب ـ جامعة المنوفية

د. منى أحمد حامد
كلية الألسن ـ جامعة عين شمس

مكتبة الشروق الدولية

سأطفئ المصابيح

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ ـ يناير ٢٠٠٧م

٩ شارع السعادة ـ أبراج عثمان ـ روكسى ـ القاهرة

تليفون وفاكس : ٤٥٠١٢٢٨ ـ ٤٥٠١٢٢٩ ـ ٢٥٦٥٩٣٩

Email: shoroukintl@hotmail.Com

shoroukintl@yahoo.Com

البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

پيرزاد، زويا
سأطفئ المصابيح / زويا پيرزاد
ترجمة : هويدا عزت محمد ، منى أحمد حامد
ط١ ـ القاهرة : مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٧م
٢٩٦ ص ؛١٧× ٢٤سم
الحائزة على جائزة أفضل رواية فارسية فى مهرجان الأدب بإيران عام ٢٠٠١م
تدمك : 6- 1975-09 -977
١ـ القصص الفارسية
أ ـ محمد، هويدا عزت (مترجمة)
ب ـ حامد، منى أحمد (مترجمة مشاركة)
جـ ـ العنوان ٨٩١,٥٣

رقم الإيداع ٣٦٢٧ /٢٠٠٧م
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977- 09-1975 -6

المقدمة

يظن البعض أن الثورة الإيرانية أعادت المرأة إلى عصور الجهل والظلام ؛ وهو الأمر الذى ثبت فى السنوات السابقة أنه يجانب الصواب ، فقد شاركت المرأة الإيرانية فى مختلف مجالات العمل جنبًا إلى جنب مع الرجل ، وحصلت على حقوق كثيرة جزاء لما تكبدته من معاناة قبل وأثناء قيام الثورة.

ومن بين المجالات التى مارست فيها المرأة حقها فى الوجود والحياة فى إيران بعد الثورة مجال الأدب والإبداع ، وتأثرت فى ذلك ـ كما تأثر الرجل ـ بالمفاهيم والقيم الجديدة التى أرستها الثورة ، فعالجت فيما كتبته من شعر ونثر المفاهيم الدينية ، والتصوف ، والحماسة ، ومواجهة الاستعمار أو الاستكبار كما أطلقت عليه الثورة.

وظهرت أسماء عديدة لأديبات وشاعرات ، منهن من كانت موجودة على الساحة قبل الثورة ومنهن من خرجت إلى النور ، مع انتصار الثورة.

وهناك العديد من أسماء الأديبات والشاعرات البارزات ؛ نذكر منهن على سبيل المثال :

طاهره صفار زاده ، سيمين بهبهانى ، همايون تاج طباطبايى ، فرشة سارى ، ثريلا مساعد ، سپيدة كاشانى ، سيمين دخت وحيدى ، فاطمه راكعى ، سيمين دانشور.

ممن قدمن أعمالاً رائعة تركت بعض بصماتها على وجه الأدب بعد الثورة. ومنهن من حصلن على جوائز عن هذه الأعمال ، وهو الدليل الذى لا يقبل التشكيك على موقعهن فى الأدب المعاصر فى إيران. ومن هؤلاء الأديبة «رويا پيرزاد» التى نقدم ترجمة لروايتها «چراغ هارا منخاموش مى كنم» ، والتى حصلت بها على جائزة مهرجان الأدب بإيران لعام ٢٠٠١م.

ولدت «زويا پيرزاد» فى عبدان عام ١٩٥١م ، وتلقت تعليمها فى مسقط رأسها ،

ثم تزوجت وأنجبت طفلين هما «ساشا» و«شروبن»، وانتقلت إلى طهران، وهناك نشرت مجموعتها القصصية الأولى «مثل همه عصرها»- مثل كل العصور عام ١٩٩١م. تلتها مجموعة «طعم كَس خرمالو»- مذاق البلح الحامض – عام١٩٩٧م، وقد فازت هذه المجموعة بجائزة أفضل مجموعة قصصية قصيرة خلال عشرين عامًا.

فى عام ١٩٩٨م نشرت زويا مجموعة «يك روزمانده به عيد پاك» أو «يوم واحد على عيد القيامة».

لم يقتصر إبداع زويا على التأليف، بل تجاوز ذلك إلى الترجمة حيث ترجمت عن اللغة الفرنسية «آليس درسرزمين عجايب»- آليس فى بلاد العجائب - للويس كارول.

كما ترجمت مجموعة شعرية للشاعر اليابانى «هايكو» بعنوان «آواى جهيدن نوك» أو «صوت قفزات الضفدع».

أما الرواية التى بين أيدينا الآن فهى أول قصة طويلة للكاتبة، نشرت عام ٢٠٠١م فى طهران، وحصلت بها المؤلفة على أكثر من جائزة؛ فقد فازت بجائزة أفضل رواية لعام ٢٠٠١م فى مهرجان الأدب. وتبرعت الكاتبة بقيمة الجائزة إلى صندوق اتحاد الناشرين مساهمة منها فى بناء المدارس.

حازت هذه الرواية كذلك على جائزة «يلدا» الأدبية، ونالت لقب أفضل رواية لعام ٢٠٠١م من مؤسسة هوشنج كَلشيرى للنشر.

تقدم الكاتبة فى روايتها صورة حية لمجتمع الأرمن فى إيران، وخاصة أرمن عبدان.

بدأ تدفق الأرمن على الأراضى الإيرانية منذ عام ١٦٠٥م فى عهد الشاه عباس الكبير، فقد هاجر أكثر من خمسمائة ألف أرمنى إلى مدن إيران المهمة، وأقام معظمهم فى أصفهان.

وقد أبدى الشاه عباس اهتمامًا خاصًا بهم للاستفادة منهم فى الصناعة والتجارة والثقافة.

أقام الأرمن فى جلفا التى بناها الشاه عباس لسكنى الأجانب، وسرعان ما أصبحت مركزًا دينيًا لطائفة الأرمن.

وساهموا فى تفعيل النشاط التجارى لإيران خاصة بعد أن قام الشاه عباس بإلغاء اتفاقية التجارة مع إنجلترا، ومنح التجار الأرمن امتياز تصدير الحرير الإيرانى.

كما عهد إليهم بالمهام الدبلوماسية فأرسلهم لتمثيل إيران فى الخارج نظرًا لإجادتهم اللغات الأجنبية ومعرفتهم بعادات الشعوب الأوروبية وتقاليدها.

ساهمت طائفة الأرمن كذلك بدور واضح فى الميدان الثقافى، فقد أقام الأرمن أول مدرسة فى أصفهان عام ١٨٥٨م.

وفى عام ١٩٠٤م صدرت أول نشرية لهم باسم «خبر نامه ى جلفاى نو» ـ مجلة جلفا الجديدة ـ وبعدها بعامين أنشئ متحف «وانك» الذى لا يزال قائمًا حتى الآن.

أنشئت حوالى اثنتى عشرة كنيسة فى جلفا بأصفهان.

وفى مجال التمثيل شكل الأرمن أول فرقة مسرحية عام ١٨٨١م وكانت أول ممثلة إيرانية فى السينما هى «آسيا جستانيان» أرمنية الأصل.

لم يكن الأرمن طوال تاريخهم بمعزل عن المجتمع الإيرانى، فقد اندمجوا فيه وصاروا جزءًا لا يتجزأ منه، شاركوا مع إخوانهم الإيرانيين فى الكفاح جنبًا إلى جنب فى كافة حركات النضال السياسى فى تاريخ إيران المعاصر؛ فقد شاركوا فى الثورة الدستورية ١٩٠٦م التى قامت للمطالبة بالدستور.

وتضامنوا مع كافة طوائف المجتمع الإيرانى فى الثورة ضد نظام رضا شاه المستبد، وأيدوا الثورة الإسلامية، ولقى بعضهم حتفه خلال الأحداث التى أدت إلى انتصار الثورة فى نهاية الأمر.

وتطوعوا للدفاع عن وطنهم عندما اندلعت نيران الحرب العراقية الإيرانية.

أما عبدان التى تدور فيها أحداث هذه الرواية فهى محافظة من محافظات إقليم خوزستان، يحدها من الشمال إقليم خرمشهر ونهر كارون، ومن الشرق نهر بهمنشير ومنطقة واسعة من الأرض، ويحدها من الغرب والجنوب نهر «أروند رود» (شط العرب).

وتعد عبدان جزيرة؛ لأنها محصورة بين نهرى كارون واروند، وجوها حارّ رطب، تصل درجة حرارتها فى الصيف إلى ٥٨° درجة مئوية أحيانًا. وفى الشتاء تنخفض

حرارتها أحيانًا إلى الصفر. مركزها مدينة عبدان التى تعد مركزًا لأكبر مصافى النفط فى العالم، حيث يصل إليها النفط من أغلب مناطق خوزستان عبر الأنابيب، وبعد تصفيته يصدر إلى كل أنحاء العالم.

كانت عبدان قبل إنشاء مصفاة البترول أرضًا مقفرة مالحة ليس بها خير وبركة كما وصفها ياقوت الحموى فى معجم البلدان. وكان يسكنها بعض البدو العرب الذين كانوا يصنعون الحصير من النخل القليل الموجود. يتحدث أهالى عبدان الفارسية والعربية واللرية.

وبعد،

فإننا نأمل أن نكون قد قدمنا للمكتبة العربية عملاً أدبيًا جديدًا يسعد القارئ العربى.

ونرجو أن نكون قد وفقنا فى نقله إلى اللغة العربية بدقة وأمانة فإن كنا قد فعلنا؛ فلله الحمد من قبل ومن بعد، وإن كنا قد أخفقنا فإننا نرجو المعذرة من القارئ الكريم.

هويدا عزت محمد/منى أحمد حامد

ـ ١ ـ

علا صوت كابح أتوبيس المدرسة، وتلاه صوت أزيز باب الفناء المعدنى، ثم صوت الجرى فى الدهليز وسط الحديقة. لا داعى للنظر إلى ساعة الحائط فى المطبخ، إنها الرابعة والربع بعد الظهر.

حينما فتح باب المنزل تحسست مريلة المطبخ وقلت:

ـ غيروا هدوم المدرسة واغسلوا أيديكم ووشكم، ما نرميش الشنط وسط الطرقة.

ووضعت علبة المناديل الورقية وسط المائدة، والتفت ناحية الثلاجة لأحضر اللبن، وعندئذ، رأيت أربعة واقفين عند باب المطبخ، قلت:

ـ ماقلتوش إن معاكم ضيوف، على ما تغيروا هدومكم هتكون وجبة العصر جاهزة لصاحبتكم كمان.

وحمدت الله أنهم جاءوا بضيف واحد، وجعلت أنظر إلى البِنَيَّة التى كانت تتحرك هنا وهناك بين «آرمينه» و«آرسينه»، كانت أطول من التوأمين، تبدو نحيفة شاحبة اللون، ووجنتاها الممتلئتان يختلط فيهما البياض والحمرة. كان «آرمن» واقفًا خلفهن بعدة خطوات يمضغ اللبان وينظر إلى شعر البِنَيَّة الطويل، كان قميصه الأبيض قد خرج من البنطلون وأزراره الثلاثة العلوية مفتوحة لا بد وأنه أمسك بخناق شخص ما كعادته. وضعت الطبق والكوب الرابع فوق المائدة، وقلت فى نفسى:

«ياريت ما يتمش استدعائى تانى للمدرسة».

وقفت «آرمينه» على أطراف أصابعها، ووضعت يدها على كتف البِنَيَّة، وقالت:

ـ إحنا اتعرفنا على «إميلى» فى الأتوبيس.

وربتت «آرسينه» على شعر «إميلى» وهى تقول:

ـ دول جم قريب فى المبنى G4.

أخرجت لفافة خبز أخرى من حافظة الخبز، «كيف لم أنتبه إلى نقلهم الأمتعة؟ المبنى G4 هو المبنى المواجه لمنزلنا! على الناحية الأخرى من الشارع» وعندئذ، اقتحمت «آرمينه» تفكيرى، وقالت:

ـ دول نقلوا العفش بتاعهم إمبارح.

وأكملت «آرسينه»:

ـ وقت لما كنا فى النادى.

ثم اتجهتا ناحية البِنَيَّة.

يعلم الله كم من مرة مُزِقَت فيها وحيكت حافة جيب زى «آرمينه» المدرسى.

ـ البيت G4 كان قبل كده بيت «صوفى».

ودون أن أنظر، كنت أعلم أن حافة جيب زى «آرسينه» هى أيضًا ممزقة.

ومامة «صوفى» تبقى الخالة «نينا».

كانت فتحة ياقة «آرمينه» البيضاء مفتوحة.

ـ وعمو «جارنيك» يبقى أبو «صوفى».

وفتحت «آرسينه» فتحة ياقتها:

ـ ربنا يعلم كان أد إيه لطيف، مش كده يا «آرمينه»؟

هزت «آرمينه» رأسها بقوة، وقالت:

ـ كنا بنموت من كتر ما بيضحكنا.

فتحت ياقتيهما ونظرت إلى البِنَيَّة التى لم تكن حواسها مع التوأمين، كانت تشبك أصابعها وتنظر خلسة إلى ما حولها، كانت شفتاها ذات لون وردى غامق وكأنها وضعت عليهما أحمر شفاه، قطعت الرغيف الرابع نصفين وقلت:

ـ غسل الإيد ـ والوش.

وعندما خرجوا، شاكسنى الجانب المتشائم منى متسائلاً:

هى البت الصغيرة كانت بتبص على إيه قوى كده؟ هوّ المكان ـ لا قدر الله ـ وسخ؟ هو مطبخنا ـ لا سمح الله ـ مش عاجبها أو غريب من وجهة نظرها؟»

ثم أنقذنى جانبى المتفائل قائلاً:

«جايز يكون مطبخك مكركب لكن عمره ما كان وسخ أبدًا، وبالمناسبة، مش لازم تكون نظرة عيلة صغيرة مهمة للشخص بالشكل ده».

مسحت الجبن فوق الزبد، ووضعت الساندويتش فى الطبق الرابع وجعلت أجول بنظرى، نظرت إلى الأزهار الجافة، على الأوانى الفخارية الموجودة فوق الأرفف على حلقات الفلفل الأحمر والثوم التى كنت قد علقتها على الحائط، وكان جانبى المتفائل يأخذ بخاطرى:

«ده كله، وحاجات تانية مش موجودة فى مطابخ الستات التانية وموجودة فى مطبخك بيخليكى مميزة حتى لو ضحكت أمك وأختك وصاحبتك وقريبتك وقالوا كلهم إن مطبخ «كلاريس» زى كوخ الساحر فى قصة «هنزل وجرتل»، مش لازم تغيرى طبعك علشان الناس، ومش لازم تزعلى من كلامهم، ومش لازم...»

وقع بصرى على المزهرية الموجودة فوق حافة الشرفة، كان يجب على أن أُغيّر تربتها.

عاد «آرمن» إلى المطبخ أسرع من البنات بعد أن قام بغسل يديه ووجهه، كان قد بلل شعره وألصقه على رأسه بينما تنسدل الخصلات الأمامية فوق جبهته. كان يرتدى قميصه الأسود المحبب لديه ومرسوم على صدره صورة لرأس كبش ذى قرنين طويلين جدّا؛ يبدو أن التعليمات اليومية قد بدأت تؤتى ثمارها تدريجيّا وتعلم ابنى ذو الخمسة عشر عامًا أن يكون نظيفًا ومهندمًا. ليت أمى كانت هنا لترى!

أفرغت اللبن فى الكوب، وقلت:

ـ ياريت جدتك كانت هنا علشان تشوف.

أخذ الكوب، وقال:

ـ هاتشوف إيه؟

جلست أمامه، ووضعت يدى تحت ذقنى، ونظرت إليه، وقلت:

ـ تشوف إن حفيدها ما بيسرحش ولا بيلبس هدوم نظيفة بس علشان يروح النادى أو يقابل الضيوف وإنه بيسمع الكلام وبقى نضيف وعلى سنجة عشرة فى البيت كمان.

وبمجرد أن مددت يدى لأداعب وجنته رجع برأسه إلى الوراء بسرعة وقال:

ماتعمليش كده، هاتلخبطى شعرى.

ظلت يدى ممدودة للحظة فى الهواء، ثم أخذت الملاحة من فوق المائدة؛ حيث لم أجد لها ضرورة.

كانت «آرسينه» و«آرمينه» قد أمسكتا بيدى «إميلى» وراحتا تسحبانها وتقولان:

ـ تعالى متتكسفيش، تعالى!

نظرت «إميلى» إلىّ، كانت عيناها الواسعتان كشعلتين تشعان بالسواد والبريق، فابتمست، وقلت لها:

ـ ادخلى يا «إميلى».

قام «آرمن» من خلف المائدة وسحب مقعدًا لها، اعترتنى الدهشة، فهذا العمل لم يكن جزءًا من التعليمات اليومية!

كانت آرمينه وآرسينه تتحدثان وتقاطعان بعضهما كالعادة:

ـ «إميلى» جت عبدان مع جدتها وأبوها.

ـ يار يت شعرنا كان ناعم زى «إميلى»

ـ «إميلى» أكبر مننا بـ ٣ سنين.

ـ كانت «إميلى» بتروح قبل كده مدرسة مسجد سليمان.

ـ وراحت كمان مدرسة فى لندن.

ـ وراحت كمان مدرسة فى ككلتة.

ضحك «آرمن» وقال:

ـ مااسمهاش ككلتة يا عبيطة، اسمها كلكتة.

لم تكف التوأمان عن الحديث واستمرتا :

ـ ماما بصى شوفى أد إيه إيد « إميلى » بيضا.

ـ بالظبط زى إيد « رابونزل »

ضحك « آرمن » ـ الذى كان ينظر خلسة إلى « إميلى » وغضبت التوأمان هذه المرة ، وأوضحت قبل أن يبدأ الشجار :

ـ « رابونزل » تبقى عروسة « آرسينه » .

قالت « آرمينه » :

ـ إحنا قلنا لها فى الأتوبيس.

ثم تناولت آخر رشفة من اللبن ووضعت الكوب الفارغ أمامى.

قضمت « آرسينه » الساندويتش وقالت وفمها يمتلئ بالطعام :

ـ أهى جات علشان...

وأكملت آرمينه :

ـ علشان تشوف « رابو نزل » الصغيرة وترجع بسرعة ، لو سمحتى اللبن.

أفرغت اللبن « لآرمينه » ، وتوجهت بحديثى إلى « آرسينه » :

ـ إحنا مبنتكلمش وبقنا مليان أكل.

تناولت « آرمينه » رشفة من اللبن ، وقالت :

ـ وإلا ماكانتش « إميلى » هاتروح بيت حد من غير إذن...

قالت « آرسينه » :

ـ الجدة هاتتخانق....

وصاحتا معًا :

ـ ييه !

ـــ ونظرتا فى دهشة إلى « إميلى » بينما تلونت المنطقة المحيطة بشفتى « آرمينه » بالبياض ، فسحبت منديلاً من علبة المناديل الورقية وأعطيته إلى « آرمينه » وقلت :

ـ حوالين بقك.

ثم التفت ناحية البِنَيَّة، وقلت:

ـ إنتى اديتى خبر لجدتك إن.....

وإذا بالجرس يدق، قفزت «إميلى» من مكانها، وبينما كنت وسط الدهليز دق الجرس ثانية، عبرت من فوق الحقائب المبعثرة على الأرض وفتحت الباب. لم أر أحدّا على مستوى البصر الذى كنت أتوقع أن أرى شخصًا فيه، أخفضت رأسى جدّا حتى رأيتها، كانت قصيرة القامة، قصيرة جدّا، تصل تقريبًا حتى كوع يدى، كانت ترتدى روبًا طويلا مزركشًا وكأنه مزهرية، وتعقد حول وسطها شالاً أسود اللون، وتلبس فى رقبتها عقدًا من اللؤلؤ فى ثلاثة صفوف.

ثمة ضفدعة كانت تصدر أصواتًا فى الحديقة بينما تصيح المرأة القصيرة تقريبًا وهى تقول:

ـ هى إميلى هنا؟

تملكنى الاضطراب، «آه من الولاد دول، عمرهم ما بيسمعوا الكلام أبدًا»، وأمسكت بعقدها، وقالت:

ـ هى مش هنا؟

واستدارت لتنصرف، فقلت لها:

ـ هى هنا أنا فهمت دلوقتى بس إنها جت من غير ما تقول لحد، أكيد إنت قلقتى عليها جدّا.

تركت عقدها، وأغمضت عينيها، وقالت:

ـ بنت من غير عقل.

قلت:

ـ معاكى حق، لو كنت مكانك كنت قلقت، اتفضلى، ادخلى.

فتحت عينيها ورفعت رأسها وكأنها قد انتبهت لى مؤخرًا، ثم نظرت إلىّ فى دهشة ومسحت بيدها على شعرها الذى كان مجموعًا خلف رأسها، وقالت:

ـ لا مؤاخذة، البنت الحمقاء دى طيرت عقلى.

كان شعرها كله مخضبًا بالبياض.

مدت يدها إلى الأمام، وقالت:

ـ أنا «الميرا سيمونيان»، جدة «إميلى».

وبدأت الضفدعة المتوارية فى النقيق ثانية، وفى هذه المرة كانت ترد عليها ضفدعة أخرى بصوت أعلى، تملكنى الاضطراب، ربما بسبب قصر قامة جدة «إميلى»؟ ربما بسبب عقد اللؤلؤ الذى ترتديه ونحن فى الرابعة بعد الظهر؟ ربما بسبب ذلك الشال الصوفى فى ذلك الجو الحار؟ ربما بسبب تلك اللهجة الرسمية جدّا؟ أو ربما كان ذلك بسبب نقيق تلك الضفادع الملعونة؟! فرغم كل هذه الأعوام التى قضيتها فى عبدان لكننى لم أعتد على شكلها ولا على لونها.

ـ تحسست رأسى بيدى وتقدمت، وقلت:

ـ أنا كلاريس..... آيوازيان».

«لم كنت أتحدث مثل هذه المخلوقة قصيرة القامة؟!»

ضغطت على يدى لدرجة أن خاتم الزواج كان يؤلمنى فى إصبعى، ضيقت عينيها وقالت:

ـ من أسرة «آيوازيان» بجلفا؟

كانت التجاعيد حول عينيها على نسق واحد وبكمية واحدة وكأن شخصًا قد رسمها بدقة، وكانت أمى تقول:

ـ ليه مابتلبسيش الدبلة فى الإيد الشمال زى بقية الستات؟ أوضحت لها إن آل «آيوازيان» هم أسرة زوجى، وأنهم من المقيمين فى تبريز، أما أمى فقد ولدت فى أصفهان من أسرتى «آرشالوس» وسكانيان، تعرفيهم؟

كانت أختى تضحك بسخرية وتقول:

ـ والناس يفهموا إزاى إن الست «كلاريس» مش زى بقية الستات؟

مسحت على شعرها ثانية، وقالت:

ـ يمكن أعرفهم لو عرفت لقبهم، أنا ما رحتش جلفا من سنين طويلة.

تلعثمت، إن الألقاب التى كان يمنحها أرامنة جلفا أصفهان لبعضهم البعض لم تكن مستحسنة، كانوا يطلقون على جد أمى «ميساك دهن لق»، ولا شك أننى لم أستحسن معرفة الناس له.

ومن حسن الحظ أن جارتى قصيرة القامة لم تنتظر الرد طويلا، وكأنها قد ضاقت ذرعًا، ورغبت فى الانصراف، وقالت:

ـ لو سمحت، نادى على «إميلى»، أنا ورايا شغل كتير.

تنحيت من أمام الباب، وقلت:

ـ اتفضلى، ادخلى، هى بتاكل وجبة العصر مع الأولاد.

أمسكت ثانية بعقدها اللؤلؤى، وقالت:

ـ وجبة العصر؟!

وفى هذه المرة لم تصدر أية ضفدعة صوتًا، لكن الاضطراب تملكنى ثانية، وقلت:

ـ ده ساندويتش جبنة بالزبدة ولبن.

ـ «لمَ كنت أشرح لها؟!»

نزلت ببصرها قليلاً، ونظرت إلى الصليب الصغير المعلق على رقبتى فى دهشة، وقالت:

ـ هى مابتحبّش الجبنة، ولازم يكون اللبن بتاعها دافى ومعاه معلقتين شاى عسل.

وراحت تصيح من جديد

شعرت أننى أخطأت فى وصف الدواء للداء، وقبل أن أتكلم دخلت وقفزت فوق الحقائب المبعثرة على الأرض ثلاث مرات.

ووصلت إلى المطبخ، بينما ركلت الحقائب بركلة من قدمى ودخلت وراءها.

كانت «إميلى» ملتصقة بالحائط، إن ضغط بدنها الرقيق على صورة «سات نوا» المرسومة بالرصاص يكاد يمزقها، لقد كان نصف وجه الشاعر ناظرًا على «إميلى» جال بخاطرى أن حبيبة «سايات نوا» التى كان يناديها فى أشعاره «جزل» لا بد وأنها كانت تشبه «إميلى»، وهذه المرة صاحت الجدة بالفعل:

ـ لو ماكنتش شفتك من الشباك وإنتى جاية هنا كان زمانى بلف عليكى فى البلد كلها؟

كانت التوأمان تنظران إليها وفاهيهما فاغرين، وكان «آرمن» يحملق فى المرأة القصيرة، وكنت واثقة من أن الضحك سيغلبه الآن، ولكى أشتت ذهنه وأغير مجرى الحديث، قلت:

ـ «إميلى»، ليه ماقلتيش إنك مش بتحبى الجبنة واللبن البارد؟

وتوجهت أنظار الجميع إلى طبق «إميلى» وكوبها الفارغين، ونظرت فى حيرة إلى الجدة، وقلت:

ـ لما الأولاد بيبقوا مع بعض....

ودون أن تعيرنى اهتمامًا زمجرت فى وجه «إميلى» قائلة:

ـ يللا، إمشى.

خرجت البِنَيَّة مسرعة من المطبخ كالأرنب الذى يطاردونه، أغلقت باب المنزل وجعلت أترقبهما من خلف ستارة الباب، وعند نهاية الدهليز وسط الحديقة بالقرب من حوض كنا قد زرعنا فيه شتلات الورود رفعت الجدة يدها وصفعت حفيدتها صفعة على القفا. أسدلت طيات الستارة وعبرت الدهليز، وفكرت:

ـ «يا ريت الأولاد ما يكونوش شافوا ضرب صاحبتهم من شباك المطبخ».

كانت «آرمينه» تقف فوق المقعد فى المطبخ وبطنها إلى الأمام وتصيح فى وجه «آرسينه»:

ـ يللا، إمشى.

وضحك ثلاثتهم، وكلما حاولت عدم الضحك لم أستطع، لم تكن أقل قصرًا من السيدة «سيمونيان»، وكانت ـ كعادتها ـ بارعة فى تقليد حركاتها.

ـ ٢ ـ

دومًا ما كانت تتصاعد رائحة من داخل حجرة التوأمين، رائحة حلوة، رائحة تحث الإنسان على النعاس، كان «آرتوش» يقول:

إنها رائحة نفس الأطفال.

أما حجرة «آرمن» فقد مر عليها أعوام دون أن تتصاعد منها رائحة نفس الأطفال.

وعثرت تحت غطاء البيانو على دب «آرمينه» الصوفى ـ ويعلم الله لم كان اسمه إيشى، ولم تكن تنام الليل إلاّ وهو فى حضنها وكان قد ضاع ذات ليلة ـ فحملته ووضعته فى حضنها، ثم عدلت يدى «رابونزل» الشقراء وقدميها الطويلتين النحيلتين

وكان اسمها مأخوذًا عن اسم بطلة قصة «الأميرة الشقراء» ـ وأعطيتها إلى «آرسينه»، وأردت أن أذهب لأسحب الستارة فاصطدمت قدمى بشىء فوق السجادة، انحنيت وأخذت اليويو الخشبى، وقلت للتوأمين اللتين كانتا تلحان علىّ لأقص لهما حكاية

ـ إنى متعبة ولا رغبة لى فى قص الحكايات.

وقلت لهما كذلك:

ـ فى مقابل كده تقدروا تقطفوا الورود من الحوش بكره وتقدموها لمدرستكم المفضلة «مانيا» بشرط ما تدوسوش برجليكم على الورود التانية.

ووضعت اليويو فى صندوق اللعب، ثم سحبت الستارة وقبلتهما وألقيت عليهما تحية المساء ثم توجهت إلى حجرة «آرمن» الذى كان يقلب صفحات إحدى المجلات وهو على سريره.

أخذت البنطلون الكحلى وقميص المدرسة الأبيض من على الأرض وعلقتهما فى الدولاب، وحينما جئت لأرتب المكتب قطَّب جبينه، فجلست على حافة السرير

ونظرت إلى الصورة الكبيرة الملونة لـ «آلن ديلون» و«رومى شنايدر» المعلقة بالدبابيس على الحائط ومكتوب تحتها بخط النستعليق العريض» :

ـ خطيبان إلى الأبد ـ هدية مجلة النيروز المصورة فى طهران».

ـ كانت عينا «رومى شنايدر» فاتحتين، ونظرتهما وضحكتهما باردتين، كنت أريد مد يدى لرفع شعر «آلن ديلون» المنسدل على عينيه، وعندها تذكرت قول «آرمن» :

«هاتلخبطى شعرى»

ابتسمت فى نفسى ثم همست للمرة الألف فى أذن «آرمن» :

«تضييع لعب التوأم عمل مش لطيف».

وضمنًا ذكَّرته بأنه لا يجب أن يقول لأخته أمام الناس «يا عبيطة».

ظللت أردد حديثى هذا حتى سحب الملاءة فوق رأسه، وقال :

ـ ماشى، ماشى، ماشى.

وبينما كنت أغلق باب حجرة «آرمن» وإذا بصوت التوأمين :

ـ مااا ماااا.

ـ فتوجهت مرة أخرى إليهما، كانتا تجلسان القرفصاء فوق السرير وقد ارتدت إحداهما بيجامة كاروهات صفراء والأخرى بيجامة كاروهات حمراء كنت قد اشتريتهما منذ أسابيع من سوق الكويتيين.

ـ قالت «آرمينه» :

ـ ليه جدة «إميلى» .....

ووضعت «إيشى» أمام وجهها، وأكملت «آرسينه» جملة أختها :

ـ قصيرة بالشكل ده؟!

كانتا تبحثان كل يوم عن حجة لإرجاء النوم، قلت :

ـ بكرة بالليل، بكرة بالليل هاقو لكم اللى أنتم عايزينه، يللا، ناموا بسرعة.

أنزلت «آرمينه» «إيشى» من أمام وجهها، وقالت :

ـ طب على الأقل احكى لنا حكاية.

كانت يدى على مفتاح الكهرباء، فقلت:

أنا مش قلت إنى تعبانة؟ بكرة بالليل.

مالت «آرسينه» برأسها، وقالت:

ـ حكاية صغنونة بس.

ومالت «آرمينه» أيضًا برأسها وقالت:

صغنونة قوى قوى.

نظرت إليهما وهما على السريرين بنسق واحد وبملاءات وأكياس للوسادات وبيجامات واحدة، كأن كلا منهما انعكاسًا للأخرى، كنت كالعادة لا طاقة لى، فقطبت جبينى بمزاح وقلت:

ـ صغنونة قوى قوى، ماشى؟

قالتا بصوت واحد:

ـ أخيرًا!

وانزلقتا تحت الملاءة وهما متأثرتان ومنتظرتان بينما بدأت:

ـ كان ياما كان، كان فيه أختين شكل بعض فى كل حاجة، فى العين، الحواجب، المناخير، البق، شنط المدرسة، أكل الفسحة، وفى يوم من الأيام كانت الأختان ...

كانت التوأمان تعشقان سماع الحكايات التى كنت أختلقها وتكونان هما بطلتاها، وبينما كنت ما أزال أقص الحكاية ووصلت إلى موضع السماء حتى ثقلت جفونهما، وكررت النهاية المعتادة:

ـ ووقعت من السما ثلاث تفاحات...

ـ قالت «آرمينه» وهى ناعسة:

ـ واحدة للى بيحكى.

وأكملت «آرسينه» وهى تتثاءب:

ـ وواحدة للى بيسمع.

فقبلتهما وقلت:

ـ وواحدة للى .....

ثم قلنا ثلاثتنا :

ـ لكل الأطفال الحلوين فى الدنيا.

ـ ثم أطفأت المصباح وخرجت من الغرفة.

ـ وفى الدهليز سويت مفرش منضدة الهاتف ، لا بد أن التوأمين ستعفيانى بعد عامين آخرين من مهمة قص الحكايات كل ليلة مثل «آرمن» الذى لم يطالبنى بذلك منذ أعوام طوال. فكرت فى أن الوقت قد حان كى أقوم بما أحب ، وسألنى جانبى المنتقد :

ـ أعمال إيه اللى بتحبيها؟

فتحت باب غرفة الجلوس ، وأجبت :

« مش عارفة »

وانقبض قلبى.

كان التليفزيون يعرض فيلمًا وثائقيًّا عن مصفاة تكرير البترول ، وكان «آرتوش» ويجلس على الفوتيه الذى يسع ثلاثة أفراد وممددًا قدميه فوق المنضدة وهو يطالع الصحيفة. جلست بجواره وجعلت أشاهد لعدة دقائق الأنابيب وصوارى السفن والعمال بخوذاتهم. كان يطوى صفحات الجريدة ، وسقطت إحدى الصفحات التى قرأها على الأرض ، فانحنيت وأخذتها وقلت :

ـ مش هاتتفرج ؟ دول بيعرضوا مكان شغلك.

فقال ممتعضًا :

ـ أنا باشوف مكان شغلى كل يوم من الصبح لحد المغرب.

ـ قرأت عناوين الأخبار التى كتبت بالبنط العريض فى الصحيفة :

« زيارة مرتقبة لسفير اتحاد الجمهوريات السوفييتية إلى عبدان ، انتخابات المجلس واللوائح السداسية ، تشييد منازل للعمال فى منطقة فيروز آباد ، افتتاح حمام سباحة جديد فى منطقة « سه جوش بريم » .

طويت الصفحة ، ما الذى يجعل هذه الأخبار النمطية جذابة « لآرتوش » ؟

وإذا بجانبى المنتقد حيًّا وحاضرًا :

« أولاً : لأنها متعلقة بشغله ـ ثانيًا : إنتى كنتى عارفة من الأول » .

وتـذكرت فـترة خطوبتنـا فـى طهـران ، لقـد ذهبـت عـدة مـرات تحـت إلحـاح « آرتـوش » إلى جلسـات جمعيـة « إيـران والاتحـاد السـوفـييتى » ، أوكمـا يقـول الجميـع « ڤـاكس » ، وفى كل مرة كان يتملكنى الاستياء فيها.

نهضت من مكانى وأطغأت التليفزيون وتوجهت ناحية الشـرفة ، ووقفـت أنظر إلى شجر الصفصاف الذى كان يلتف تحت ضوء القمر حول الفناء مستقيمًا منظمًا. لقد قـام السيد « مرتضى » بتهذيبه أمس ، وحينما كان يقوم بعمله فى حديقـة الفنـاء أحضـرت لـه شراب الكريز ، فشكرنى ثم اشتكى من مضى ستة شـهور علـى الموعـد القـانونى لترقيتـه دون أن تنفـذ إدارة المسـتخدمين بشـركة الـنفط هـذا الحكـم ، ورجـانى أن أطلـب مـن « آرتوش » أن يوصى به ، وقال :

ـ أصل المهندس « سينيور » ما بيهتمش بكلامنا إحنا العمال. ثم حل الـدور مـن بعـد على السؤال المعتاد :

ـ هو ليه المهندس ما أخدش بيت فى « بريم » ؟ ده الأستاذ « هاكوبيان » خد بيت فى « جريدش » بعد « بريم » .

ـ وكررت التبرير الذى كنت أقوله للجميع ، لأمى ، وأختى ، وصديقتى ، وقريبتى وحتى للسيد « مرتضـى » وهـو أنـه لا معنـى للدرجـة الكبيرة أو الصـغيرة ، ولا فـرق بـين منطقة وأخرى ، وإننا مرتاحين فى البيت ده و...

كان السيد « مرتضى » يصغى فقط ككل مرة ويهز رأسه ، ثم سحب مقبضى المقص ووضعه فى سرواله الكبير الفضفاض.

أمسكت ستائر الشرفة وحاولت أن أتذكر آخر مرة قمت فيها بغسـلها ، ثـم تـذكرت أن أقول لـ « آرتوش » إن السيد « مرتضى » يرجوك فى .....

قلب الصفحة ، وقال :

ـ معـاه حـق بيتضـايق جـدّا مـن المهندسـين فىالشـركة أمثـال سـينيور وجعـل يقلـد « سينيور » كعادته فى غيظ وسخرية :

ـ فكرنى بكرة أكلم السيدة «نور اللهى» ، فكرنى أتصل بإدارة المستخدمين.

استدرت ناحية الشرفة، وقلت فى نفسى :

«لسيدنا خادم ولخادمه خادم»

كانت السيدة «نور اللهى» سكرتيرة «آرتوش».

وعلى الناحية الأخرى من الشارع، كان مصباح إحدى غرف المبنى G4 مضيئًا، لم أكن أرى بوضوح من على هذه المسافة، لكن لما كانت المنازل فى «بوادره» الشمالية تشبه بعضها كنت أعلم أن هذه هى غرفة الجلوس وفضلاً عن تشابه المنازل، فقد ذهبت أكثر من مرة إلى المبنى G4 حينما كان «جارنيك» وزوجته «نينا» يسكنان فيه لم يكن «جارنيك» يروق لـ «آرتوش» ولم يكن هذا من الأمور العجيبة، «فآرتوش» لم يكن يعجبه شخص قط، لكن الشىء العجيب هنا هو اتفاق أمى وصهرها على شىء واحد!!

فى أول مرة دار فيها نقاش حول السياسة بين «آرتوش» و«جارنيك» لمدة ساعتين، وبعد انصراف «جارنيك»، قال «آرتوش» :

ـ كان حزب «داشناكسيون» فى وقت من الأوقات حزب تقدمى، والحال اتغير دلوقتى، أنا مش عارف ليه «جارنيك» لِسّه بيدافع عن أعضاء الحزب ده لغاية دلوقتى.

وردت أمى :

ـ أنا بقى عارفة كويس، كان والد «جارنيك وعمه معروفين فى جلفا بالهيافة، وكانوا بيسموا عمه «آرشاك» المضحكاتى.

ورغم أن آرتوش قد اندهش من هذا الاستنتاج الذى لا يمت للموضوع بصلة إلا أنه لم يهتم، وبعد انصراف أمى فسرت له أن أبى كان له صديق منذ أعوام وكان عضوًا فى هذا الحزب، وكان مهزارًا يحب المزاح، لكن ذلك لم يكن يروق لأمى، ولا عجب فى ذلك، فأمى لم تكن تحب أى شخص من أصدقاء أبى.

نظرت إلى شرفة المبنى G4. منذ ستة أشهر، حينما كان «جارنيك» و«نينا» يقيمان فيه، كنت أذهب أحيانًا فى أوقات الصباح إلى نينا أو كانت هى تأتى إلىّ، كنا نشرب القهوة معًا ونحن نتجاذب أطراف الحديث.

ثمة شخص جاء ووقف أمام الشرفة، كنت أرى ظلاً فقط، لكننى خمنت من طوله أنه ليس «إميلى»، وبالطبع لم تكن جدتها، إذن لا بد أنه والد إميلى.

تذكرت تلك الليلة التى كنا ضيوفًا فيها فى هذه الغرفة نفسها؛ حيث أعدت «نينا لنا العشاء كما وعدتنا، وفى هذا اليوم قالت أمى:

ـ أكل السوسيس والزبالة دى دايمًا بيضر الصحة ومش كويس.

ـ فضحك «جارنيك»، وقال:

ـ يعنى إيه يا «وسكانيان» هانم أكل كويس وأكل وحش؟ كفاية علينا الوش الجميل والنية الحلوة! ده مراتى لما بتحط الجبنة على العيش وتقدمه لينا بنتخيل إننا بنأكل كباب، لما تكون النية حلوة والثغر باسم توصل الفيتامينات للجسم.

وضحك مقهقهًا ثم وضع يديه حول كتفى «نينا» الممتلئين وقد كاد يغشى عليها من فرط الضحك. وفى اليوم التالى قطبت أمى جبينها، وقالت لى:

ـ هما فرحانين بإيه؟ ربنا جمع ووفق.

لم يكن مهمًا بالنسبة لى أن يكون «جارنيك» مؤيدًا للوطنيين الأرمن، وكما يقول «آرتوش» حينما يكون ثائرًا:

ـ ده ما يعرفش إن مصلحة الأرمن ـ ومصلحة الدنيا كلها ـ فى الانضمام لجبهة «خلق».

ولم يكن مهمًا أيضًا أن «نينا» كانت امرأة مهملة فى منزلها، أو كما كانت تقول أمى:

ـ الجمل بيضيع فى بيتها بحمولته.

المهم أن نينا و«جارنيك» كانا دومًا فى سعادة ووفاق، ولم أرهما فى أى وقت قط مستاءين من بعضهما.

ذات مرة، حينما كنت أتحدث معها ونحن نتناول القهوة حول «آرتوش و«جارنيك»، قالت لى:

ـ اسمعى، هما الاثنين بيتكلموا كلام فارغ، ورغم كده باقول دايمًا لـ«جارنيك»: معاك حق يا حبيبى. وإنتى كمان لازم تقولى لـ«آرتوش»: بالتأكيد يا حبيبى معاك حق.

وغرقت فى الضحك وشربت رشفة من القهوة واتكأت على ظهر المقعد وتذكرت: الرجالة فاكرين إنهم لو ماتكلموش فى السياسة ما يبقوش رجالة بجد».

اتكأت على إطار الشرفة وفكرت:

«لقد اشتقت إلى ضحكات «نينا»، هااكلمها بكرة وأسأل عن أحوالها».

وانطفأ مصباح غرفة الجلوس فى المبنى G4. تذكرت وقت العصر، وتمثلت أمام عينى صورة «إميلى» النحيفة، إنها لم تنطق بكلمة طوال هذه المدة، اتجهت ناحية الشرفة، وقلت:

ـ جم جيران جداد بدل «نينا» و«جارنيك».

خشخش بالصحيفة وقال:

- م م م.

فكرت فى الذهاب إلى الحديقة لرى شتلات الورود، ثم تذكرت أن مصابيح الفناء لا تضىء فانصرفت عن تفكيرى خشية أن أطأ بقدمى إحدى السحالى أو الأبراص، كان يجب علىّ أن أتصل بمركز الخدمة كى يرسلوا شخصًا لإصلاح المصابيح، أسدلت الستارة، ومضيت، وجلست بجوار «آرتوش»، وقلت:

ـ إنت تعرف «سيمونيان»؟

قال:

ـ إميل سيمونيان؟

أخرجت فردة جورب متسخة من تحت أحد المقاعد الصغيرة، إنها خاصة بـ«آرمن»، واستطرد فى الحديث:

ـ مااعرفش اسمه الأولانى.

ثم تذكر:

جايز يكون هو! بنته اسمها «إميلى»؟ ثم قلب ورق الصحيفة، وقال:

ـ ده انتقل من منطقة «مسجد سليمان» لفرعنا، مراته ميتة، وعايش دلوقتى مع أمه وبنته، هاينورنا بعد «جارنيك».

نظرت إلى الصحيفة منتظرة استمراره فى الحديث ، ولما توقف مضيت وفردة الجورب فى يدى وجلست بجانب الشرفة على فوتيه من الجلد الأخضر، أصغيت للحظات إلى أصوات المكيفات، ثم أحضرت كتابًا من على الرف المجاور للشرفة كان السيد «داوتيان» صاحب مكتبة آراكس قد أرسله بالأمس من طهران، وهو أحد مؤلفات «ساردو» ، وكان كغيره من الكتب التى كانت تصل من «أرمينيا» ذا طباعه سيئة، كان مرسومًا على غلافه رجل ذو لحية كلحية العنزة، يرتدى على ظهره عباءة سوداء ويقوم بضرب امرأة تركع على قدميها. أعاقتنى فردة الجورب التى كانت فى يدى فوضعتها فى جيب مريلة المطبخ بينما ظلت يدى ساكنة فى جيبى مع الجورب وتذكرتُ ذلك اليوم الذى قلت فيه لأمى ولـ«آليس» :

ـ أنا بااتضايق من الستات اللى بيفتكروا أنهم لما يلبسوا مريلة المطبخ من الصبح لحد بالليل يكون معناه إن عندهم شغل كتير، لازم الواحدة تكون نظيفة وشكلها حلو لنفسها قبل أى حاجة.

وأظن أننى كنت ألز بحديثى هذا إليهما فأمى ـ على الرغم من مضى أعوام طويلة على موت أبى ـ لا تزال ترتدى السواد، ولم تقم بصبغ شعرها قط . أما أختى فلا نظير لها فى الإهمال وعدم النظام . وقد رفعت أمى حاجبيها، وقالت :

ـ بقى كده ؟! لازم الواحدة تعمل كل حاجة علشان نفسها؟

ثم ابتسمت فى سخرية، وقالت :

ـ طب ليه لما آرتوش مابيخدش باله إنك لابسة فستان جديد أو إنك رحتى للكوافير أو إنك حاطة ورد على الترابيزة بتلوى بوزك؟ لو باكدب قولى كدابة.

وابتسمت «آليس» كذلك فى سخرية، وقالت :

ـ دلوقتى مثلاً وإنتى دايمًا نضيفة ومرتبة، استفدتى إيه؟!

وبعد انصراف أمى و«آليس» ، سألت نفسى :

ـ استفدتى إيه؟! وأجبت على نفسى :

«مش عارفة» .

أخرجت يدى من جيب مريلة المطبخ ووضعت الكتاب على الرف، كنت متعبة

ولم تكن لدى رغبة فى القراءة. ألقى «آرتوش» بالصحيفة فوق المنضدة وجعل يتمطى ويتثاءب، ثم قال:

ـ هاتطفى المصابيح ولا أطفيها أنا؟

سقطت الصحيفة على الأرض، نظرت إليه، لقد زاد وزنه عشرين كجم عما كان عليه منذ سبعة عشر عامًا، كان شعره كثيفًا ومجعدًا،

أما الآن فأصبح خفيفًا وناعمًا، أما لحيته الشبيهة بلحية التيس ــ وكانت «آليس» تطلق عليه بسببها اسم «البروفسور» ـ فلم تعد سوداء كما كانت آنذاك.

تساءلت:

«أد إيه اتغير»؟

وبينما كنت أفكر فى حتمية تغييرى أنا كذلك فإذا به يقول:

ـ أنا سألتك هاتطفى المصابيح ولاّ....

فبادرت بالإجابة:

ـ هاطفيها.

وأخذت الصحيفة من فوق الأرض، وفككت مريلة المطبخ، ووقفت، ثم توجهت ناحية الباب وأطفأت مصباح غرفة الجلوس.

ـ ٣ ـ

تناولت أمى آخر رشفة من القهوة، وأعادت الفنجان إلى الطبق، وجعلت تضيق من عينيها الضيقتين وكذلك من شفتيها الرقيقتين للحظات وهى تنظر إلىّ فى حيرة وكأنها تفكر فى شىء ما، ثم قالت:

ـ قلتى إنها قصيرة قوى؟ هى كانت حلوة؟

أخذت قطعة من الساليزون ووضعتها فى الطبق، وقلت:

ـ حلوة؟ أنا قلت إن عندها سبعين سنة على الأقل.

رفعت كتفيها وقطبت جبينها، وقالت:

ـ بتقولى إيه؟ لو كانت هى فلازم تكون أكبر من سبعين سنة، ده أنا كنت لسه بالبس الشراب القصير، وكانت هى ست بتلبس برانيط أشكال والوان بحرف عريض.....

وقع بصرى على أنفها، فقلت:

ـ ماما، مناخيرك!

كانت أنف أمى طويلة، حينما كانت تشرب القهوة كانت حافة الفنجان تترك بقع قهوة على طرف أنفها. مسحت أنفها بسرعة، وأكملت حديثها:

ـ .... وتلف الشوارع بعربيتها بعقد اللولى أبو سبع أدوار حوالين رقبتها.

سألتها: هى كانت بتسوق؟!

غضبت وقالت:

ـ بتقاطعينى ، لأ، كان عندها سواق.

ونظرتُ إلى المزهرية الموجودة على حافة الشرفة، ليتنى قلت للسيد «مرتضى» أن

يغير تربتها، وبينما كنت أنظر إلى الورود تذكرت وجه السيدة «سيمونيان»، نعم، لا بد أنها كانت جميلة فى فترة شبابها، فوجنتاها بارزتان، وعيناها سوداوان واسعتان و....

وذكرت فى نفسى تلك الجملة «وأنفها صغير لطيف». عند زواج أمى أبى كان الوضع على النقيض، فلم تكن أنف أمى طويلة قط فىالصورة التى فى الإطار الفضى الموجودة فوق البيانو.

وضعت أمى قطعة من الساليزون فى فمها، وقالت :

ـ الله الله !

ووضعتُ يدى تحت ذقنى ونظرتُ إليها.

كان يوجد دومًا بعض قطع الساليزون مع الكتب التى كان يرسلها السيد «داوتيان» من طهران، تذكرت اليوم الذى سألنى فيه «آرتوش» : «عرف منين إنك بتحبى الساليزون؟» وبينما كنت أفكر فى الرد حتى أجابت أمى : «ده مابيبعتوش علشان «كلاريس» ده بيبعتوا لىّ أنا، فى العيد، لما كنا فى طهران رحت مع «كلاريس» للمكتبة، ومن ذوقه قدم لنا القهوة مع الساليزون، فقلت له : أنا ماعنديش وقت علشان أهرش، فما بالك بقراءة الكتب، وبدل كده بحب الساليزون، ومن ساعتها لما ييجى يبعت كتب لـ«كلاريس» يبعت لى الساليزون.

قالت هذا الكلام ثم ضحكت بصوت عالٍ، نظر «آرتوش» إليها متعجبًا بينما طأطأت رأسى. لا أعلم؟ هل تملكنى الغضب بسبب ضحك أمى بصوت عالٍ؟ أم لأن لسانى لم يتحرك لأقول إن السيد «داوتيان» يضيفنى دومًا بالقهوة ويعلم منذ فترة أننى أحب الساليزون؟

كفت أمى عن الحديث وجمعت فتات الساليزون الموجودة فى الطبق وأكلتها، ثم سحبت منديلاً من علبة المناديل الورقية ووضعته على المائدة، ورجت فنجان القهوة عدة مرات وقلبته على المنديل ثم رفعته ـ وقد تركت حافة الفنجان أثرًا دائريًا بنيًا على المنديل الورقى ـ وقالت :

دى هىّ، «الميراهاروتونيان»، بنت «هاروتونيان» التاجر، اتجوزت «وارتان

سيمونيان» اللى كان عنده شركة تجارة فى الهند، وورثت عن أبوها ورث قليل، وبعدين اتضاف عليه ثروة جوزها، دى مشهورة فى جلفا باسم «الميرا النحس».

فابتسمت بينما قطبت أمى جبينها وقالت:

ـ ماتضحكيش من غير داعى، تسميتها بالاسم ده مكانش من فراغ، لما جت للدنيا أمها ماتت، وبعد كام سنة الدادة بتاعتها رمت نفسها من الشباك ووقعت فى الجنينة.

أردت أن أجمع فناجين القهوة فدفعت يدى وقالت:

استنى، أنا لسّة ماشفتش الفنجان.

ثم تعلق نظرها على النافذة، وقالت:

ـ أبوها اتسمم فى ليلة الدخلة ومات بعد كام يوم، والناس قالت إن السبب تورتة الفرح، لكن ليه أبوها بس هو اللى مات؟ ده كل الناس كلت من التورتة....

قلت:

ـ والأرمن فى جلفا بيهولوا المواضيع، ماشى، جايز مايكونش مات بسبب التورتة، جايز كانت سكتة قلبية، أو.....

وضعت أمى فنجانى فوق المنديل الورقى ثم أخذته، ووضعته ثانية ثم أخذته، ثم قالت:

ـ لما اتجوزت سافرت الهند وبعد كام سنة رجعت جلفا ومعاها ابنها، كان جوزها اتقتل، وقالوا إن الجانى واحد من الخدام الهنود، بعد كده اختفت كام سنة وقالوا إنها سافرت أوروبا، ولما ظهرت تانى فى جلفا كان ابنها كبر وقعدت تدور له على عروسة، وطلعت إشاعات بتقول إن عنده مرض مالوش علاج، ولو ماكنش كده، إيه اللى خلاه مايتجوزش هناك؟ بعد كده سمعت بجواز ابنها من بنت أرمنية بتبريز، وأرمن تبريز ماهمهاش أد كده.

أخذت فنجانها، ونظرت على خطوط القهوة المتداخلة فيه، كم من مرة قالت فيها «هممم! كم من مرة قالت فيها! «آه»! «كم من مرة هزت فيها رأسها، ثم وضعت الفنجان على المائدة، وقالت:

ـ البخت مش واضح فيه.

ثم أخذت فنجانى. حمدت الله أن «آرتوش» لم يكن موجودًا ولم يسمع ما قالت عن «أرامنة تبريز». فى اليوم الذى ذكرت فيه إنى أريد الزواج من «آرتوش» كان أول سؤال لأمى: «هو من آرمن إيه؟»

وحينما ذكرت لها صاحت قائلة:ـ

«أيه؟ دا التبريزى متفرعن ومتكبر»، ولو لم يكن أبى قد تدخل ـ الذى لا فرق لديه أن يكون صهره من أرامنة جلفا أو تبريز أو حتى المريخ ـ لما تم زواجنا بهذه السهولة.

نظرت إلى فنجانى وهو فى يدى أمى النحيلتين، كان الفنجان أبيض اللون منقوشًا عليه ورودًا صغيرة، وكانت التجاعيد تبدو بشكل جلى على جلد يديها، بينما كانت عروقها بارزة زرقاء، سألتها:

ـ طب، وبعدين حصل إيه؟

رفعت رأسها وقالت:

ـ سمعت إن عروسته اتجننت بعد كام سنة ونقلوها «نماجرد» وماتت هناك، بصى، فيه شجرة سرو فى فنجانك.

وتذكرت منطقة «نماجرد» وانقبض قلبى، وضعت أمى الفنجان على المائدة ووقفت وهى تقول:

ـ السرو معناه التغير والتحول، جايز الباش مهندس يقرر فى الآخر إنه يسيب اللى الشركة بتمن عليه بيه ويوافق ياخد بيت فى «بريم»، دى خدامتك العربية سكنت فى «بريم» وانتم زى ما انتم انزرعتم للأبد فى «بوارده» الكئيبة.

وبدأت أجمع فناجين القهوة، وأتذكر:

«خدّامتى العربية؟»

نفضت فتات الساليزون عن تنورتها السوداء، وقالت:

ـ السودا اللى كانت بتيجى لما كان السيد «مرتضى» بيحرق زبالة الجنينة علشان تلمها وتاخذها معاها.

قلت:

ـ تقصدى «يوما»؟

وغلبنى الضحك من تصور إقامة «يوما» فى «بريم» بينما كانت تقيم من قبل فى حى العرب، ردت أمى علىّ:

ـ أيوه «يوما»، إيه الاسم ده؟ أنا قلت لك ميت مرة ماتدخليهاش بيتك، إنتى بنفسك قلتى إن الاولاد كانوا بيخافوا منها، معاهم حق مع سنانها الملخبطة والوشم اللى كان على وشها، دى كانت أكتر منى فى لبس الأسود.

حقًا ما كانت تقوله، دومًا ماكانت «يوما» ترتدى السواد، دائمًا كانت فى حالة حداد لموت شخص لديها، وضعتُ الفناجين والأطباق فى الحوض، وقلت:

ـ ماحدش خاف منها خالص، دى هى مرة واحدة بس لما «آرمن» قال إنه شافها بتاكل عصفور حى، والكلام ده كان من عنده.

وضعت أمى يدى حقيبتها السوداء فوق كتفها، وقالت:

ـ مش بعيد أبدًا!

ـ منذ متى تمسك أمى بهذه الحقيبة؟ كم من مرة تمزقت فيها يدا تلك الحقيبة وقامت أمى بحياكتها؟ كم من مرة ردت علىّ فيها حينما كنت أقول لها: «ما أنش الأوان علشان تشترى شنطة جديدة؟» بقولها: «لو كنت زى الستات المسرفة وأشترى الشنط والجزم ماكنتيش خدتى الليسانس، لا انتى ولا «آليس».

كم من مرة وضحت فيها لأمى إن شهادة اللغة الإنجليزية التى حصلت عليها من شركة النفط لا يطلق عليها الليسانس، وأن «آليس» وقتما كانت تدرس فى إنجلترا للحصول على ليسانس التمريض فى حجرة العمليات كانت شركة النفط هى التى تدفع نفقات دراستها.

وفى الدهليز مسحت أمى بإصبعها على منضدة الهاتف، ثم قالت:

ـ إنتى مامسحتيش التراب؟

قلت وأنا أنظر إلى الحقيبة السوداء:

ـ أيوه، مسحته ٨ مرات أول إمبارح، و١٥ مره إمبارح، و٣٢ مره

ثم رفعت بصرى قليلاً ونظرت إلى وجهها فى حيرة وتخيلت صورة ساخرة من ملامح وجهها، وعندئذ قالت:

ـ بطلى دلع.

ووضعت يدها على مقبض الباب، وقالت:

ـ فى المدينة المتخلفة دى مايكفيش مسح التراب عشر مرات فى اليوم، أنا هاروح عند «آستور»، من كام يوم جاب نوع جديد من الشيكولاته.

وبالتأكيد وجدت الدهشة فى عينى لذا بادرت بقولها:

ـ تعرفى، قولى حمارة، لكن.....

وأخذت نفسًا عميقًا ثم تركت المقبض وبدأت فى ترتيب طيات ستارة الباب وقالت:

ـ آليس» ملهاش مزاج، تعرفى إن....

وبعد أن قالت: «هو الله» رفعت يدها فجأة عن الستارة واستدارت ناحيتى، وقالت:

ـ أحلفك بروح أبوكى تخلى بالك وماتتكلميش فى حاجة أحسن يحصل زعل تانى، مش عايزة حاجة من «آستور»؟

قلت:

ـ لأ مش عايزة، بس لو سمحتى ما تشتريش شيكولاته للولاد.

حينما فُتح باب المنزل كان الجو حارًا وتفوح خلاله رائحة أزهار «الشبت»، قالت أمى:

ـ متخرجيش الهوا أسخن من نار جهنم.

وفتحت الباب السلكى ومضت، أمسكت الباب السلكى بيدى، واتكأت على إطاره وأنا أنظر إليها، وقفت وسط الدهليز الضيق وانحنت لتقطف زهرة من الحديقة ثم عدلت قامتها بصعوبة واستنشقت الزهرة وانصرفت. فتحت الباب المعدنى ثم أغلقته واتجهت ناحية محطة الأتوبيس.

عندئذ تذكرت فصل الصيف حينما كنا نذهب إلى منطقة «نماجرد»، كم كانت أمى سريعة الخطى.

ـ ٤ ـ

جلست على حافة الدرجة الأمامية من السلم وجعلت أنظر إلى حوضى الزهور، حول الدهليز الضيق، أنظر إلى هذه الناحية تارة وإلى تلك تارة أخرى

حيث الأزهار المتعددة الأشكال والألوان التى زرعها السيد «مرتضى» زهرة زهرة فى الحوضين. نظرت إلى شجرة الصفصاف التى كانت تلقى بظلالها على الأرجوحة المعدنية.

لدينا ثلاث شجيرات فى حديقة الفناء، كانت «يوما» تطلق عليها اسم «لسان العصفور» بينما كانت السيدة «رحيمى» تطلق عليها اسم «لسان البقر» إلا أن آليس «كانت ترى أنهما تخطئان فى الاسم وأن الاسم الحقيقى لها هو «الأرجوان» أما التوأمان فكانتا ـ دون الاهتمام باختلاف وجهات النظر تلك ـ تطلقان على الشجيرة الأولى اسم «آرمينه»، وعلى الثانية اسم «آرسينه». والشجيرة الثالثة فكانت أصغر من الآخريين ودومًا ما كانت قليلة الأزهار رغم ما كان يبديه السيد «مرتضى» من رعاية تجاهها حيث كان يكثر من تقليمها ومدها بالسماد.

وكان اسم هذه الشجيرة يتوقف على من تكون الصديقة الحميمة للتوأمين، فأثناء جيرتنا لـ«نينا» و«جارنيك»، كانت تُسمى «صوفى» ابنة «نينا» و«جارنيك»ـ وفى اليوم الذى كسرت فيه «صوفى» الراديو الترانزيستور «سينجورينج» الخاص بهما، وتخاصمن، ظلت الشجيرة دون اسم لعدة أيام حتى قام «تيجران»ـ ابن «نينا»ـ بإصلاح الراديو، وعندئذ صار اسمها «تيجران».

وقبل «صوفى» و«تيجران» كانت لدينا «اليز» ابنة جارة أمى و«آليس»، وكانت فتاة مرحة تقيم على مسافة شارعين من تلك الناحية، ودومًا ما كانت تعلم التوأمين كيفية أخذ الفأل من زهرة الـ «النمره يى». وحينما رحلت تلك الفتاة المرحة عن طهران إلى الأبد بكت «آرسينه و«آرمينه»، وظلتا لعدة أيام تحاولان أخذ الفأل من هذه

الزهرة كى تعلمان موعد عودة صديقتهما، ومنذ أيام قليلة صار اسم هذه الشجيرة الثالثة «إميلى»، وتذكرت:

«آليس ملهاش مزاج، تعرفى إن...»

لا شك أننى كنت أعرف أنها حادة المزاج، وكنت أعلم أيضًا السبب وراء ذلك. ففى الأسبوع الماضى تزوجت إحدى الممرضات الأرمن العاملات فى مستشفى شركة النفط ـ وكانت تعمل تحت يد أختى وتعتقد «آليس» أن الله لم يخلق أقبح ولا أجهل ولا أبله من هذه الفتاة ـ من طبيب أرمنى تحدثت آليس عنه أكثر من مرة وهى تبتسم وتبدو نظراتها ولهة فقالت عنه أنه أكثر الرجال الذين رأتهم حتى الآن أناقة وإحساسًا.

وكون أن «آليس» كانت تعتبر أن كل زواج هو إهانة مباشرة لها فهذا هو فرع الموضوع أما أصله فهو أن أختى كانت تهمس أحيانًا منذ فترة قائلة: ـ

ـ افتكر إن الدكتور «آرتاميان» معجب بىّ.

ـ وفى الوقت الذى فكرت فيه أن تدعوالطبيب الأنيق ذا الإحساس المرهف على العشاء وصلتها بطاقة الدعوة الخاصة بزواجه.

تذكرتُ:

ـ «خللى بالك، ماتتكلميش فى حاجة أحسن تزعل تانى».

وسطقت زهرة من شتلة الأزهار المورقة التى تغطى سور المنزل على السلم، وحينئذ تذكرت:

«لقد كنت فى العاشرة أو فى الثانية عشرة من عمرى، وكانت «آليس» تريد أن تلعب بأحجار لعبة «الكبة» الخاصة بى ولم أعطها إياها، فجعلت تصر وتبكى إلى أن صاحت أمى فىّ بقولها:

ـ «بنت متخلفة، ليه خلتيها تعيط؟ إديها الأحجار الملعونة دى، إنت أكبر منها، سيبك منها».

وحينما لم أفعل ما طلبته منى صاحت أمى فى أبى قائلة:

«قول حاجة مرة واحدة أنا غلبت من خناق الاتنين دول» فنظر إلىَّ وإلى أمى وإلى آليس» للحظات ثم طوى الصحيفة على مهل ونهض من مكانه وأخذ الأحجار منى ـ

وكنت قد استنفدت شهورًا فى البحث عنها وجمعها ـ وأعطاها إلى «آليس» ، وقال لى :

«لازم أحرمك من العشا» ثم عاد وجلس وأخذ الصحيفة بينما انفرجت أسارير آليس ومسكت أمى بالكوفية التريكو التى كانت تطرزها ، بينما نمت تلك الليلة وأنا أبكى.

وبعد عدة أيام سألت «آليس» عن الأحجار ، فرفعت كتفيها وقالت : «ضيعتها» . ربما كان ذلك بعد الموقف بشهر تقريبًا ، وعثرت أمى على الأحجار التى بعثرتها «آليس» بجوار المنزل وقامت بوضعها على المنضدة الصغيرة الموجودة بجوار سريرى. وبعد أيام ـ ربما فى الصباح الباكر ـ وضع أبى يده فى جيب معطفه الخاص بالمطر أثناء ذهابه إلى العمل ، وأخرج خمسة أحجار على شكل مستدير ووضعها فى يدى دون أن ينطق بكلمة. أخذت أحجارى ووضعتها أمام آليس وقلت :

ـ «دى ليكى ، بابا جابهالى» .

فردت آليس بدلال :

ـ «لعبة الكبة دى لعبة المدلعين ، انا بجمع صور الفنانين» .

وتذكرتُ :

ـ أحلفك بروح أبوكى....

أخذت الزهرة الحمراء المورقة من على درجة السلم وأدرتها فى يدى. «لم كانت أمى تستحلفنى بروح أبى؟! من أين لها أن عرفت؟!»

ثم تذكرت ثانية :

فى ذكرى وفاة أبى وكنا قد عدنا توًا من الكنيسة ، كانت أمى و «آليس» تتجاذبان أطراف الحديث ، على مائدة المطبخ ، وأردت الذهاب إلى الفناء الخلفى لأجمع الملابس المغسولة من على الحبل ، كنت ما أزال أشعر برائحة الشمع والبخور وأثر البكاء وسمعت أمى تقول لآليس :

ـ الذنب مش ذنب حد ، ماتتهميش الناس بالباطل ، بالتأكيد ما كانش من قسمتك صاحت آليس بعصبية :

ـ الذنب مش ذنب حد؟ طب وأخته الحنينة اللى خلاص قربت تموت، لما وصلت من طهران وغيرت رأى أخوها، ده بقى يبقى معناه إيه؟!

كانت السلة خاوية فى يدى، وتذكرت شتلة الورود الحمراء التى قمت بزرعها فى صيف العام الماضى على شاهد قبر والدى. هل يتذكر خادم القبر ريها؟ وبينما كانت حواسى لا تزال فى تذكر شتلة الورود الحمراء التى على شاهد قبر والدى إذا بكلام ينطلق من فمى:

ـ مش عيب إن احنا نشوف عيوبنا وسلبياتنا، التفكير فى الخاتم البرلنتى اللى وزنه ثلاثة قراريط...

ولم تمنحنى «آليس» الفرصة لاستكمال حديثى، حيث قاطعتنى بقولها:

وأنا مثلاً إيه عيوبى وسلبياتى علشان مافكرش فى الخاتم البرلنتى؟ هو أنا مش من أسرة كبيرة ولا لأ؟ هو أنا مش متعلمة ولا لأ؟ ولا أنا حتة لحم مفيهاش جلد ولا عضم زيك؟ هو أنا لازم أتجوز من أى واحد أخلاقه وحشة ماعندوش دم زى جناب البرفسور؟ أوأقلل من نفسى زيك علشان يبقى فى إيدى دبلة عدمانة ماتساويش مليم؟ لأ يا حبيبتى، أنا قيمتى أكبر من كده بكتير، إنتى أصلاً بتغيرى منى من أيام ما كنا صغيرين لغاية دلوقتى، رَيَّحى بالك، لو كنت عايزة اتجوز واحد زى جوزك كان زمانى اتجوزت عشرين مرة لحد دلوقتى.

وضعت السلة على الأرض واستدرت نحو أختى، لا أدرى! هل شحب لونى أو احمر وجهى؟ أو كان هناك شىء ما فى نظرتى جعل «آليس» تنظر فى البداية إلىّ ثم إلى السلة ثم التفتت إلى أمى وقالت:

ـ إيه اللى حصل؟ أنا ماقلتش حاجة غلط!

تركت أمى و«آليس» فى المطبخ بمفردهما وتوجهت إلى الفناء الخلفى بالسلة الخاوية.

فى كل مرة كنت أذهب فيها إلى طهران أقوم بزرع شتلة من الورود الحمراء فوق شاهد قبر والدى، وفى كل مرة كنت آخذ وعدًا من خدام القبر برى الورود الحمراء، لكنهم لم يقوموا بذلك، فأقوم فى المرة التالية بزراعة شتلة أخرى.

جعلت أنظر إلى الملابس المنشورة على الحبل:

ـ «جوارب ابنى، الملابس الداخلية للتوأمين بمقاس واحد وبشكل واحد قمصان «آرتوش»، ملاءة وغطاء وسادة». جعلت أجمع كل هذه القطع قطعة قطعة وأطبقها وأضعها فى السلة وأنظر إلى الحبل الخاوى الذى كنت قد عقدته بين شجرة النبق وسور الفناء الخلفى.كانت أغصان الشجرة تهتز ويسقط منها بعض النبق على الأرض.

«لِمَ لمْ أذكِّر آليس بالمشاكل التى كانت تفتعلها أثناء زواجى من «آرتوش»؟»

فكرت وأنا أنظر إلى ثمرات النبق الحمراء:

«لِمَ لمْ أقل لها كم كانت تضايقنى بعد زواجى بمدة بلمزها علىّ سواء فى غيابى أو فى حضورى قائلة: «ده آرتوش» كان عايز يتجوزنى فى الأول لكن «كلاريس» دخلت بيننا زى المعلقة القذرة».

ليتنى كنت قد زرعت غصنًا «لشجرة النبق فوق شاهد قبر أبى بدلاً من شتلة الورود الحمراء التى لا يتذكرها أحد ليرويها. قلت فى نفسى:

ـ «لما ييجى السيد «مرتضى» المرة دى لازم أسأله عن مكان شراء أغصان شجرة النبق».

ربما كانت تنمو بريًّا، ربما أيضًا أنها لا تتواءم وطقس طهران، إننى لم أكن أشاهدها حتى قدومى إلى «عبدان».

كانت «آليس» وأمى تتشاجران حتى لحظة الرحيل، وليلاً، بعد تنويم الأطفال وغسل الأطباق وتنظيف المطبخ جلست على الفوتيه الجلدى الأخضر أتناول ثمرات النبق الحمراء الواحدة تلو الأخرى، كنت أتذكر أبى وهو يقول:

ماتناقشيش حد، ماتنتقديش حد، كل اللى يكلمك قولى له «معاك حق» وخلصى نفسك، لما يسألك الناس عن رأيك بيكونوا عايزين موافقتك ليهم على رإيهم مش عايزين وجهة نظرك إنتى، مفيش فايدة من مناقشة الناس.

أكلت النبق وقلت فى نفسى:

ـ «كان معاك حق، مفيش فايدة من مناقشة الناس» ووعدت أبى إننى سأرد على كل ما تقوله آليس لى بجملة «معاكى حق»، وأننى سأؤيد كل عمل تقوم به. أكلت آخر ثمرة من ثمرات النبق، وفكرت:

«ليت أبى كان موجودًا، كان سيعجبه النبق حقًا».

كانت الورود الحمراء المورقة قد تكورت فى يدى. قفزت ضفدعة سمينة من الحوض، وجلست فى مواجهتى، ونظرت إلى عينى، نهضت من مكانى وتوجهت إلى الداخل وأغلقت الباب خلفى وقلت بصوت عالٍ:

ـ أنا عارفة إنى لازم أسكت وأسمع بس، وإنتى كمان عارفة إنك مش لازم تأنبى «آليس» على كتر الأكل والتخن.

فى كل مرة كانت تتحدث فيها أمى عن طعام «آليس» فإنها تأخذ الموضوع بمزاح وسخرية إذا ما كان مزاج أختى مواتيًا، أما إذا كان غير ذلك ـ كهذه الأيام ـ فكانت تصرخ وتقول:

ـ ليه مش عايزة تحلى عنى؟ أنا هابقى مبسوطة لو بقيت تخينة، هاخلّى نفسى رُفيَّعة علشان مين؟ صاحبى؟ جوزى؟ ولادى؟

كانت أمى تضطر للكف عن الكلام، وتحضر الشيكولاته «كادبورى» ـ التى كانت تشتريها آليس دومًا ـ وتخفيها ثم تظهرها لها، أو تقول مثلما يحدث هذه الأيام حيث الأوضاع غير مواتية:

ـ قولى علىّ حمارة!

وتذهب بنفسها لشراء الشيكولاته لأختى.

تحسست منضدة الهاتف، كان مع أمى الحق، فما أن فتحت الباب لمدة دقيقتين حتى غطى التراب المنزل، ربطت مريلة المطبخ، وقبل أن أفتح الصنبور فى حوض غسيل الأطباق نظرت إلى فنجان القهوة الخاص بى ولم أر فيه أى شىء له أدنى شبه بشجرة السرو.

ـ ٥ ـ

سحبت ستارة حجرة التوأمين وسويت المفرشين ـ المكون كل منهما من أربعين وصلة ـ على السريرين، لقد قامت أمى بحياكتهما وتوصيلهما بالقصاصات التى كانت تجمعها منذ أعوام طوال. وذات يوم، وبعض مضى شهور من حياكتهما قامت التوأمان بعد عدد المربعات فى كل مفرش على حدة كى تطمئنا أنهما متساويان. كان تحت كل سرير زوج من النعال كلاهما أحمر اللون ذو قيطان أصفر. وفى الغرفة التى كان كل شىء فيها مزدوجًا ومتشابهًا تمامًا كانت الدميتان فقط هما غير المتشابهتين، وحينما سألتهما ذات مرة:

ـ إنتو ليه بتحبوا دايما كل حاجتكم تكون زى بعض؟

تشاورتا معًا قبل الرد، ثم قالت «آرمينه»:

ـ هو كده، علشان...

وأكملت «آرسينه» الجملة:

ـ ..... علشان مانحسش بالوحدة فى أى وقت.

ثم وضعت يدها حول رقبة أختها، وحينما سألتهما:

ـ طب ليه العرايس مش زى بعضها؟

نظرتا إلى بعضهما إلى الأخرى ثم إلىّ وقالتا:

ـ مش عارفين!

سويت الغرفة وقلت فى نفسى:

ـ «ياريت حبهم يفضل لبعض لغاية ما يكبروا».

وطبقت بيجامة «آرسينه» ووضعتها تحت الوسادة، وفكرت ثانية فىّ وفى

«آليس» من منا كانت المذنبة فى ذلك الوقت؟» ثم وضعت «إيشى» على سرير «آرمينه»، وفكرت:

ـ أنا كمان كنت بضايق «آليس».

أخذت الدمية الزنجية التى تدعى «تام» من فوق السرير، كانت التوأمان ترعيانها اكثر من الدمى الأخرى «أحسن لاقدر الله تفتكر إن حبنا ليها أقل علشان لون بشرتها».

تذكرت ذلك اليوم الذى تصرفت فيه بخبث وعلّمت «آليس» جدول الضرب خطأ، وتذكرت تلك المرات التى أرادت أن أكتب لها موضوع الإنشاء ولم أكتبه. وضعت «تام» فوق مهد الدمى، وبينما كان يهتز تذكرت الوعد الذى وعدت به أبى اكثر من مرة، وكنت أكرر فى نفسى:

«أى حاجة تقولها آليس هاقول لها معاكى حق». وإذا بالجرس يدق. فتحت الباب ولم أر شخصًا على مستوى الارتفاع الذى كنت أتوقع أن أرى شخصًا فيه، وخفضت رأسى هذه المرة أسرع من الأمس. كانت ترتدى بلوزة بيضاء معقودة الياقة مع تنورة سوداء، ووضعت عقد اللؤلؤ ـ الذى كانت ترتديه بالأمس ـ فوق البلوزة، وكانت ترتدى جوربًا من النايلون أحسست لرؤيته بحرارة الجو، وحينما رأيت حذاءها الأسود العالى اعتقدت أنه مقاسه هو ٣٠ ـ وهو مقاس قدم التوأمين نفسه ـ قدمت لى علبة مغلقة، وقالت:

ـ تورتة كريز صنع إيديا.

طلبت منها الدخول إلى غرفة الجلوس، رفعت يدها اليسرى ونزلت بنظرها قليلاً، ثم قالت:

ـ لأ الزيارة دى مش رسمية، بصراحة أنا جيت علشان أعتذر ثم رفعت عينيها، وأكملت:

ـ أعتذر عن تصرف إمبارح.

وضعت العلبة المغلفة فى يدى واتجهت ناحية المطبخ، وحينما كنت أغلق الباب وآتى فى إثرها كانت قد جلست خلف المائدة. واليوم كانت ترتدى خاتمين، أولهما ذو فص أخضر والآخر به حجر أبيض ضخم، خمنت أنه لا بد أن يكون من الماس، لو

كانت «آليس» هنا لكانت قد عرفت، فأختى تحب المجوهرات بعد حبها للشيكولاته والحلوى وربما تحبهما بنفس القدر. جعلت الجارة قصيرة القامة تنظر حولها وهى تقول:

إيه المطبخ ده! دى حاجة أوريچينال! لم أكن أرى قدميها، لكننى كنت واثقة أنهما لا تصلان إلى الأرض، ثم أحضرت طبقًا مستديرا من الصينى فوق أحد أرفف المطبخ، كان هدية «آليس» من رحلتها الأخيرة إلى إنجلترا. فتحت العلبة وأخذت الكعكة من الطبق المقوى ووضعتها على طبق التقديم، ثم وضعت العلبة والطبق المقوى على الرف وتوجهت بطبق الكعكة ناحية المائدة وأنا أقول:

ـ أد إيه التورتة جميلة، ليه تعبتى نفسك؟

ابتسمت وقالت:

ـ براڤو!

ولما شاهدت نظرتى الحائرة، قالت:

ـ كل ست أرمنية وديت لها تورتة زى دى كانت بتقدمها على الترابيزة بالطبق الكرتون اللى تحتها.

وفضلت أن تشرب الشاى بدلاً من القهوة، وأفرغت اللبن عليه وشرعت تقلبه.

لقد كان ظاهر كعكة الكريز أفضل بكثير من طعمها، قلت:

ـ أد إيه لذيذة!

قالت:

مش لذيذة ماكانش عندى فانيليا.

وكانت ما تزال تقلب الشاى ـ حاولت أن أجد موضوعًا للحديث بيننا، بدأت أتحدث عن طقس عبدان الحار الرطب والذى لم يكن يقارن من وجهة نظرها بطقس الهند الحار، وتدريجيًّا بدأ صوت ارتطام الملعقة بالفنجان يثير أعصابى، فكرت ماذا أقول كى ألفت انتباهها، ووقع بصرى على السلة الموجودة فوق المائدة، كان لا يزال متبقيًا فيها عدد من البيض الخاص بعيد القيامة، فقلت:

ـ خدى البيض الملون ده علشان «إميلى»

وقدمت السلة إليها.

وأخيرًا، تركت الملعقة بجوار الفنجان وأخذت بيضة وجعلت تلفها فى يدها، وهى تقول:

إنتى اللى لونتيه؟

قلت:

ـ أيوه، لأ، لونته مع الولاد.....

أعادت البيضة إلى السلة، وقالت:

ـ إميلى مابتحبش الحاجات دى.

قلت:

ـ لكن الأطفال بيحبوا البيض الملون.

كأنها سمعت كلامًا غير لائق، فقالت:

ـ «إميلى» مش طفلة، أحيانًا بتعمل حركات غريبة، لكن... هى مش طفلة، هى لها حاجات خاصة بيها.

وقررت عدم الحديث، وشربت الشاى بينما استمرت فى حديثها، كانت تبدأ جُملتها فى الغالب بـ «لما كنت فى پاريس»، فى السنة اللى كنت عايشة فيها فى «لندن» أو «بيتى اللى فى كلكتة». ورغم هذا لا أدرى لِمَ لْم أشعر أنها كانت تتحدث بعنجهية مثلما كانت تتحدث «آليس»! إن مدح النفس هو التخصص الأصلى لأختى، وفجأة نهضت من مكانها وشكرتنى على حسن استقبالى لها ومضت تجاه الباب وقالت:

ـ مستنياكى الخميس بالليل على العشا، الولاد هيلعبوا مع بعض، وتتعرفى إنتى وجوزك على إبنى «إميل».

إنها حتى لم تسألنى إن كان لدينا ارتباطات يوم الخميس مساءً أم لا؟

ـ ٦ ـ

كرر «آرتوش» كل مناقشاتنا خلال الأيام الماضية أمام أمى و «آليس» وقال:

ـ دى أول وآخر مرة، لو سمحتى بلاش الاختلاط، مابحبش الحكاية دى، ومش هاربط الكراڤتة.

أخرجت «أليس» شيكولاته مربعة الشكل من حقيبتها الكبيرة ثم فتحت غلافها الذهبى ووضعتها فى فمها وألقت بالغلاف الذهبى على مائدة المطبخ وقالت بوجنة منتفخة:

ـ هو فص الخاتم كان من الزمرد؟ لازم جابته من الهند.

دفعت أمى المقعد بشكل أصدر صوتًا، ثم قالت:

ـ أنا شايفة إنه لازم يكون فيه حدود للاختلاط.

وأخذت الغلاف الذهبى وألقت به فى سلة المهملات وهى تقول:

ـ الست دى ماكانتش سيرتها كويسة فى جلفا.

وردت «آليس»:

ـ الست دى ماكانتش سيرتها كويسة، طب ده علاقته إيه باابنها؟

وتلاقت نظراتى أنا وأمى، لا بد وقد دار فى ذهنها: «ظهر الحديث تانى عن راجل عازب».

دخلت «آرسينه» المطبخ وهى تجرى وتقول:

ـ فستان «رابونزل» الأحمر مش موجود.

والتفتت إلى أمى وقالت:

ـ الفستان أبو كسر اللى إنتى خيّطتيه.

وأخذت تدق على الأرض بقدمها وهى تقول:

ــ لو الفستان ماظهرش «رابونزل» مش هاتيجى العزومة، ولو ما جتش «رابونزل» مش هاروح أنا ولا «آرمينه» كمان.

ووضعت يدها على وسطها وجعلت تنظر إلى «آرمن». لم يكن «آرمن» موجدًا منذ ساعة. لقد ارتدى القميص المرسوم عليه رأس الكبش مع بنطلون بال باهت اللون طلبت منه أكثر من مرة أن ألقيه بعيدًا، وفى كل مرة كان يصيح: ـ «لأ». لقد قام فى البداية بتنظيف حذائه بمسحة التراب الخاصة بالمطبخ وبصاقه، وبعدما صحت فيه قام بتنظيفه بمسحة الأحذية والماء، قلت:

ـ فكرة مش بطالة، طالما إن فستان «رابونزل» مش حايظهر، «آرمن» هايخليه فى البيت.

واتجهت أنظارنا جميعًا نحو «آرمن» الذى نظر إلىّ أولاً ثم إلى «آرسينه» وكأنه كان مترددًا: «أيستمر فى شقاوته؟ أم يكف عنها!» وبعد أن تملكته الحيرة، تقدم عدة خطوات، وفتح علبة الشاى التى فوق المائدة وأخرج فستان العروسة.

نفخت «آرسينه» بقوة، وخرجت مسرعة وهى تمسك بالفستان. كنت أعلم أن «آليس» وأمى تبتسمان الآن تأييدًا لتصرف «آرمن» الذى يحلو لهما، وكانت النتيجة عدم مبالاة، قلت:

ـ روح أوضتنا، بابا ساب كراڤتته هناك.

كان «آرتوش» يعقد رباط حذائه، فقال:

ـ أنا قلت مش هاربط الكراڤتة. فأشرت إلى «آرمن» دون صوت:

ـ روح.

وحينما خرج «آرمن» قالت أمى:

ـ ربنا يحميك، هو الواد يشبه مين فى خفة الدم دى؟

ضحكت «آليس» وقالت:

ـ يشبه خالته.

ثم التفتت إلى «آرتوش» وقالت:

ـ إنت قلت ابنها بيشتغل إيه؟ وبينما كان «أرتوش» يجيب بأنه مهندس إنشاءات، كانت قطعة الشيكولاته الثانية فى فم «آليس» وقالت:

ـ مهندس إنشاءات، م م م.

وحملقت فى المزهرية الموجودة على حافة الشرفة، بينما علا صوت أمى:

ـ رجعت تانى تاكل الشيكولاته زى ما تكون بتاكل حمص ولا زبيب!

وهذه المرة أخذت أنا غلاف الشيكولاته الذهبى من فوق المائدة، واعترتنى الدهشة:

«من إمتى أختى بتهتم براجل اتجوز قبل كده وعنده عيال؟»

وعادت أمى ثانية إلى صلب الموضوع وهو سوء سمعة السيدة «سيمونيان» فى جلفا. قلت فى نفسى:

«يا ريت ماتحكيش كل اللى حصل طول الأيام اللى فاتت».

كان «آرتوش» ينظف حذاءه بمسحة تنظيف المطبخ فقدمت إليه ممسحة الحذاء فأخذها وهو يقول:

ـ مش مهم أهل جلفا كانوا بيقولوا إيه أو بيقولو إيه، أنا مابحبش المجاملات والاختلاط المفروض مع الجيران.

كانت «آليس» تضع يدها تحت ذقنها وما يزال نظرها على المزهرية، وقالت:

ـ زمرد الهند مشهور.

وأخرجت اللبان من حقيبتها.

نظرت إلى نفسى فى المرآة الموجودة فى الدهليز للمرة الأخيرة، كنت متشككة فى أمرين: «هو صدر فستانى اللى من غير كمام مفتوح قوى؟ هو ديل الفستان مش ضيق قوى؟

توجهت «آليس» وأمى ناحية الباب، نظرت أمى إلىّ ثم قالت:

ـ إحنا ماشيين، ياريت تحطى شال أو أى حاجة على كتفك.

قلت :

ـ تحبوا «آرتوش» يوصلكم؟

نفخت «آليس» اللبان وقامت بفرقعته ثم قالت :

ـ لأ هاناخدها مشى ، المسافة مش أربع ولا خمس شهور ، لكن أنا شايفة....

ثم نظرت إلى «آرتوش» ـ الذى كان يحاول عقد رابطة العنق أمام المرآة ـ وأكملت :

ـ لكن أنا شايفة إن جوز أختى يتعب نفسه شوية ويوصلنا البيت بعربيته آخر موديل.

وانطلقت فى الضحك ثم التفتت إلىّ وهى تقول :

ـ مش ممكن نمشيها من «بواردة» لغاية «بريم» ، باى باى ، وبالمناسبة فستانك واسع عليكى باى باى يا ولاد.

أغلقت الباب خلفهم وأخذت نفسًا عميقًا.

ـ ٧ ـ

فتحت «إميلى» الباب

كانت ترتدى فستانًا أبيض بأكمام منتفخة وحذاءً وجوربًا أبيض اللون أيضًا، قد وعقدت شعرها الطويل المنسدل بشريط أبيض عريض، كانت تبدو لى وكأنها ملاك على وشك الصعود الآن من على الأرض. قالت «آرمينه»:

ـ واو «إميلى»...

قالت «آرسينه»

ـ بقت زى الملايكة بالظبط

أعطت «آرسينه» الدمية «رابونزل» إلى «إميلى»، وكأن فستان الدمية الأحمر هو الذى احتفظ بـ «إميلى على الأرض همس آرتوش فى أذنى:

أد إيه البنت دى جميلة!

نظرتُ حولى فى انتظار أصحاب المنزل الأصليين، بدا لى الدهليز المماثل لدهليزنا أوسع، ربما لعدم وجود أشياء فيه باستثناء منضدة الهاتف. وبينما كنت أفكر:

ـ «شكلهم كده لسة ماخلصوش فرش العزال».

حتى جاءت السيدة «سيمونيان» وابنها عبر الدهليز، والشىء الذى جعلنا جميعًا نركز أنظارنا على السيدة «سيمونيان» لم يكن قصر قامتها فقط، لقد كانت ترتدى فستانًا حريريًّا أسود اللون يكسوها من الرأس حتى إخمص القدم، ووضعت على صدرها دبوسًا كبيرًا، بينما يتدلى القرط من أذنيها، وكان العقد اللؤلؤ ذو العدة صفوف طويلاً لدرجة أنه كان يصل إلى النطاق الذهبى العريض. وقالت «آرمينه» بهدوء:

ـ بالظبط زى شجرة الكريسماس.

وبينما كنت أقوم بركلها حتى غلبها الضحك هى وأختها.

مدت السيدة «سيمونيان» يدها الصغيرة وسلمت على «آرتوش» ، وقالت :

ـ الميرا هاروتونيان ـ سيمونيان» ، أهلاً ومرحبًا.

ثم نظرت إلينا وأشارت خلفها ثم قالت :

ـ أقدم لكم ابنى «إميل سيمونيان» .

ـ لقد شاهدت مثل هذا التعارف والسلام بشكل رسمى جاد فى الأفلام فقط. كان إميل سيمونيان فى نفس طول قامتى ، وهذا ما كان عجيبًا. لقد كنت تقريبًا أطول من جميع الرجال الذين عرفتهم باستثناء «آرتوش» الذى كان فى نفس طولى فقط حينما ارتدى الحذاء ذا الكعب العريض. لا ادرى لم اكن أرتدى حذاءً عاليًا كى لا أبدو أطول من زوجى أم أننى كنت فى الحقيقة أشعر بالإرتياح أكثر مع ارتداء الكعب العريض. مددت يدى تجاه «إميل سيمونيان» ، كم كان جميلاً أننى حفزت «آرتوش» على ارتداء رابطة العنق.

ابتسم «إميل سيمونيان» بعينيه الخضراوين وكان يرتدى حلة كحلية اللون ورابطة عنق رمادية ، وبينما كنت أمد يدى كى يمد يده ، انحنى وقبلها بدلاً من السلام علىّ ، سعل «آرتوش» مرة ، ونظرت التوأمان بدهشة إلى يدى وإلى رأس «إميل سيمونيان» وكان شعره الكثيف الناعم البراق ينسدل خلفه ، لا أذكر أيًّا من التوأمين قالت :

ـ أد إيه هو لطيف !

وأيًّا منهما قالت :

زى الأفلام بالظبط.

كنت أتمنى ألاّ يتساقط عرقى من تحت ردائى ، بدا «آرمن» وكأنه لم يكن منتبهًا ، لم تكن هناك فرصة كى أفكر فيما كان مشغولاً ، وبينما كان «إميل سيمونيان» يعدل قامته كان «آرمن» يسلم على «إميلى» نظر «آرتوش» إلىّ ورفع حاجبيه ، ففى كل مرة كنا نقول فيها لـ «آرمن» :

ـ إنت كبرت ، ولازم تسلم على الناس زى البنى آدمين.

كان يرفع كتفه ولا يمد يده لشخص قط للسلام عليه.

قالت «آرسينه» لـ «إميلى»

ـ إنتى وحشتى «رابونزل» قوى.

وأكملت «آرمينه» :

ـ وحشتيها قوى.

وقدمتُ باقة الأزهار الحمراء الصغيرة إلى السيدة «سيمونيان». وكنت قد زرعت بنفسى شتلة الأزهار الحمراء فى الحديقة، ومع التشاؤم الذى كان لدى السيد «مرتضى» ؛ حيث كان يأتى كل مرة ويقول :

ـ يا مدام الباش مهندس، لا مؤاخذة، ما أظنش إنها هاتزهر.

إلا أنها امتلأت عن آخرها بالأزهار فى أقل من أسبوع.

استنشقت السيدة «سيمونيان» الأزهار ولم تشكرنى واكتفت بابتسامة خفيفة ثم أشارت بيدها إلى موضع غرفة الجلوس. بدت لى غرفة الجلوس كذلك أوسع من غرفتنا، كانت تحتوى على مقاعد معدنية، ومائدة لتناول الغذاء تسع ستة أفراد وقد وضعت على أحد جوانب الغرفة وبعض الأثاث الذى كانت تقدمه شركة النفط إلى كل منزل فى «بوارده». كانت معظم الأسر مثلنا ترجح شراء مقاعد ومائدة سفرة أفضل من التى كانت تقدم إلينا. لم يكن على النوافذ أية ستائر، وتخرج من ثقوب فى الجدار عدة أسلاك، قالت التوأمان معًا :

ـ احنا هانروح أوضة «إميلى».

وشعرت أن «آرمن» كذلك يريد الذهاب معهما إلا أنه كان مترددًا، وكنت واثقة من أننى لو قلت له : «خليك» فإنه سيذهب، فقلت :

ـ خليك إنت معانا.

فرفع كتفه وذهب مع البنات. قلت فى نفسى :

«ربنا يستر ومايتخانقوش فى أقل من نصف ساعة»

استنشقت السيدة «سيمونيان» الأزهار ثانية، واتجهت ناحية دولاب كان يشغل نصف مساحة الحائط تقريبًا، كان من الخشب الأسود وله بابان بمرآتين، وسط البابين رفان مثبتان وضعوا على كل منهما شمعدانًا ذا عدة أفرع بداخلها شموع بيضاء، ولم

يكن الدولاب الكبير يتناسب مع بقية أثاث الغرفة. فتحت السيدة «سيمونيان» أحد البابين وأخرجت مزهرية بلورية، كانت مرآتا البابين منقوشًا حولهما رسومات رقيقة من الأزهار والطيور. فكرت:

«بالتأكيد جابوا الدولاب ده من الهند».

وطلب الأستاذ «إميل سيمونيان» منا أن نجلس.

نظرت من هذه الناحية من الغرفة ـ التى كانت وكأنها لا علاقة لها قط بالناحية الأخرى منها ـ على مدام «سيمونيان»، التى أعادت المزهرية البلورية فى الدولاب، وأخذت أخرى حمراء من الصينى، ثم أغلقت الباب واتجهت إلىّ، وقالت:

ـ فيها تناسق أكتر بين لون دى ولون الورد.

لا أدرى ما الذى شاهدته فى نظرتى جعلها تبتسم؟! قالت:

ـ الدولاب عجبك؟ ده صنع إنجلترا، فى أواخر القرن الـ ١٨.

ثم مدت يدها بالمزهرية، وقالت:

ـ «إميل»!

قام ابنها وأخذ المزهرية وخرج من الباب الذى كنت أعلم أنه يفتح على المطبخ، فكرت:

«تتناسق أكثر»! كم من الوقت مضى لم أسمع فيه هذه الكلمة الأرمنية الصعبة! دوما كنت أقول «يتناسب أكثر» أو يتلاءم أكثر» إن الفستان الحريرى الأسود والمجوهرات من المؤكد أنهما يتلاءمان أكثر ـ يتناسقان أكثر ـ مع الدولاب عن بقية الأثاث.

وفى ركن الحجرة المثلث الشكل يوجد بيانو أسود اللون كان غطاؤه مفتوحًا وتميل أزراره البيضاء إلى الصفار وتوجد نوتة موسيقية من عدة ورقات فوق المكان المخصص لها، كنت بعيدة عن البيانو لدرجة أننى لم استطع قراءة اسم اللحن المكتوب عليها.

أخذت مدام «سيمونيان» الأزهار أمام صدرها وهى ما تزال تنظر إلىّ بالابتسامة العميقة نفسها، وقالت:

ـ أد إيه الشريط اللى ربطتى بيه الورد كان جميل!

ورأيت «آرتوش» بطرف عينى يتململ فوق المقعد.

فى عصر ذلك اليوم كنت أقوم بعقد الشريط الأحمر عدة مرات حول الأزهار ثم أقوم بحله، ثم أعقده ثانية حتى راق لى وصار فى النهاية معقودًا على شكل فيونكة. فى كل مرة آخذ فيها هدية لشخص ما يكون لى مثل هذا الهاجس مع عقد الشريط، وحينما يرانى «آرتوش» يقول لى:

ـ يا صبرك! مين اللى هيبص على الشريط؟

وكانت هذه هى المرة الأولى التى ينظر فيها شخص إلى الشريط.

عاد «إيميل سيمونيان» بالمزهرية مملوءة بالماء ووضعته أمه على مائدة الطعام وجعلت تضع الأزهار بداخلها الواحدة تلو الأخرى.

كان «آرتوش» و«إميل» يتحدثان عن حرارة الطقس بينما كنت أنظر إلى يدى مدام «سيمونيان». كانت المزهرية بنفس لون الأزهار تمامًا. كان نور الغرفة ينبعث من مصباح عار يتدلى بسلك طويل وبجواره مروحة السقف، لفت جارتى الشريط حول المزهرية ونظمت ثنياته ثم جلست على فوتيه سعة ثلاثة أفراد وأشارت لى بيدها كى أجلس بجوارها. ذهبت، وجلست بجوارها، أحدثت سوست الفوتيه صوتًا، ربتت بيدها الصغيرة عدة مرات على ركبتى، ثم قالت:

ـ «إميل»!

خرج إميل ثانية من الباب الذى يفتح على المطبخ.

كانت مدام «سيمونيان» قد جلست على حافة الكرسى وقدماها تصلان إلى الأرض، وكان حذاؤها الساتان الأسود العالى مفتوحًا من الخلف ومطرزًا بفراشات من الترتر الفضى، اتجهت نحو «آرتوش» وقالت:

ـ مراتك من ستات الأرض المثقفات اللى هاافتخر بمعرفتها طول عمرى فى كل مكان أنت راجل محظوظ.

طرف جفنا آرتوش عدة مرات ثم هز رأسه وحل رابطة العنق، كان الطقس حارًا جدًا فى الغرفة، وثمة كلمات فى الجملة المطولة التى قالتها جارتنا قصيرة القامة لم أسمعها أنا و«آرتوش» منذ فترة.

عاد «إميل سيمونيان» إلى الغرفة وفى يده صينية فضية صغيرة عليها مفرش أبيض مزركش ودورق مملوء بعصير البرتقال وأربعة أكواب. شربت عصير البرتقال الفاتر المر وأصغيت إلى حديث مدام «سيمونيان» التى كانت تقارن فيه بين وحرارة عبدان بحرارة الهند، كانت تقول إن هواء التكييف يسبب أضرارًا للظهر لا يمكن علاجها لو كنت مكانها لقلت: ـ «من الأصل التكييف مش كويس لألم الضهر».

وصاح جانبى الملول المتعب:

ـ «كفاية مش لازم تترجمى لغة جارتك دايمًا من الأرمنية الفصحى للعامية»

ثم ضحك جانبى الحنون وقال:

ـ «إنتى كمان بتتكلمى بالفصحى»

كنت أحاول عدم النظر إلى «آرتوش»، كان مظهر الأم وابنها وسلوكهما غير الطبيعى، والحوار الإجبارى، وعصير البرتقال المر الفاتر، والحرارة، وضوء الغرفة الخافت، كل ذلك كان خارج حدود طاقتى

لم تمر عشر دقائق حتى وقفت مدام «سيمونيان» وقالت:

ـ إحنا بنتعشى بدرى.

فقال «آرتوش» على الفور:

ـ وإحنا كمان.

أشفقت عليه، لِمَ أجبرته على المجىء؟ ولِمَ قبلت الدعوة من الأساس؟ ربما كان ذلك بسبب التوأمين؛ حيث كانتا تتحدثان دومًا عن «إميلى» منذ أيام وأيًّا ما كان..... ففى النهاية نحن جيران. وفى هذه المرة نهضت من مكانى بينما كانت السيدة «سيمونيان» تقول:

ـ «إميل»!

وقلت:

ـ إسمحى لى أساعدك.

فنظر «إميل سيمونيان» إلىّ وكان لا يزال بين الجلوس والقيام وابتسم وجلس ثانية.

كان عشاء الأطفال عبارة عن أرز بدون سمن مع الدجاج المسلوق، وقد تقرر أن يتناولوا طعامهم على مائدة الطعام فى المطبخ. كم كان جيدًا أن قدمت لكل منهم ساندويتشًا قبل قدومنا، ففى كل مرة نكون فيها ضيوفًا على العشاء أو الغداء عند شخص غريب أقدم لهم قبلها شيئًا يأكلونه.

إن الأرز الخالى من السمن مع الدجاج المسلوق هو الطعام الذى كانت تصر أمى على تناوله حين المرض، ولم يتناولونه فى أى وقت قط، أما عشاؤنا فكان عبارة عن بامية خضراء مطهية مع الأرز.

كانت المائدة قد أعدت مسبقًا، وكان مفرش المائدة ومناديل السفرة من الكتان الأبيض، ومن المؤكد أن الأطباق الصينى المنقوشة بالورود البرتقالية كانت قديمة، ومن المؤكد أيضًا أنها كانت باهظة الثمن، لكن طبقى كان ذا يدين جميلتين.

جلست مدام سيمونيان على رأس المائدة، وأشارت لى ولـ «آرتوش» على المقعد الذى نجلس عليه، تذكرت حديث التوأمين:

ـ زى الأفلام بالظبط.

فتحت المضيفة منديل السفرة وألقته على ركبتها وقالت:

ـ «إميل»!

وأشارت إلى الدولاب الخشبى، أحضر «إميل سيمونيان» الشمعدان الموجود فى الدولاب ووضعه وسط المائدة وأشعل الشمع، نظر «آرتوش» إلىّ خلسة وانتظرت مدام سيمونيان حتى أضيئت آخر شمعة دون حركة أو كلمة وكأنها فى انتظار انتهاء أحد المراسم الرسمية، جلس ابنها وفتح المنديل وقال:

ـ اتفضلوا لو سمحتم.

وعلى أثر ضوء الشموع مال لون المفرش الأبيض إلى الإصفرار، وكان يظهر عليه أثر لأكثر من بقعة وحرق سيجارة.وضعت أول ملعقة فى فمى وحاولت ألا تقع عينى على عين «آرتوش»، كان الطعام حريفًا لدرجة أننى شعرت باضطرام النار بداخلى رغم حبى للطعام الحار، وكان «آرتوش» ينفر من الطعام الحار.

قدمت مدام «سيمونيان» الطبق الصينى الصغير إلى «آرتوش»، وقالت:

ـ لو كان الأكل مش حامى كفاية خد من الصلصة الحامية دى.

وضع «آرتوش» كوب الماء فوق المائدة واكتفى بهز رأسه، كنت أريد أن أقول:

ـ «صب من الصلصة دى على وشها»

فقلت فى نفسى:

ـ «اخرسى»

وأخذ «إميل سيمونيان» يتململ فوق مقعده ثم قال دون أن يرفع رأسه:

ـ يا ماما مش كان أحسن إنك ماتخليش الأكل حامى كده ؟الناس مش متعودة على كده.

ثم نظر إلىّ وإلى «آرتوش» وابتسم، وشعرت أنه يعتذر، أفرغت الأم معلقتين من الصلصة على حافة الطبق، وقالت دون أن تنظر إلى ابنها:

ـ لو سمحت، ماتدينيش أوامر فى الطبيخ، البامية لازم تكون حامية.

ثم نظرت إلىّ وقالت:

ـ أنا اتعلمت طريقة تحضير الصلصة دى فى كلكته من الطباخ بتاعنا وكان اسمه «رامو».

ووضعت طبق الصلصة بحذر بجوار إناء الأرز، وقالت:

ـ قبل ما اطرده.

مسح «إميل سيمونيان» شعره بيده، كانت أصابعه طويلة ولطيفة، كانت «آليس» تقول:

ـ اللى عندهم إحساس مرهف همَّ اللى عندهم صوابع طويلة ولطيفة.

وكانت تضع يديها أمام وجههاوتحرك أصابعها، وتقول:

ـ زى صوابعى.

وكنت أنظر إلى يدى أختى، كانتا ممتلئتين مثل كل موضع فى جسدها، وكنت أهز رأسى بما يفيد ردى عليها بـ «صح».

صمت الجميع عدة دقائق، كانت أصوات الضفادع والصراصير تعلو من الفناء،

وكان ضوء الغرفة خافتًا إلى درجة أننى أردت أن أقوم لأشعل مصباحًا آخر، كانت مدام «سيمونيان» تتناول الطعام فى صمت، رأيت أنه يجب علىّ أن أبدأ الحديث، كان صوت ضحكات الأطفال يصل من غرفة «إميلى». هل تناولوا العشاء؟ لِمَ لمْ يقل أى منهم «مابحبش الأكل ده» كان نظر «إميل سيمونيان» ما يزال إلى أسفل، ولم أجد كلامًا للحديث.

وضع «آرتوش» كوب الماء الثانى على المائدة، وقال:

ـ كنت بتشتغل فين فى منطقة «مسجد سليمان»؟

رفع «إميل سيمونيان» رأسه، وابتسم، وشعرت هذه المرة أنه يبدى الشكر، ربما من قبيل اقتحام الصمت! نظرت إلى «آرتوش» وفكرت:

الأب والابن بيتسابقوا مع بعض فى أعمال ماعملوهاش قبل كده.

لم أتذكر أن زوجى قد بدأ الحديث مع شخص قط سوى لمعارضته لأمى. رفع «إميل سيمونيان» منديل السفرة ناحية فمه، وبينما استعد ليرد فإذا بأمه تقول:

ـ كان «إميل» طالب متميز، وبعدين اشتغل فى الهند وكمان فى أوروبا فى مناصب عالية، دى شركة النفط محظوظة قوى لأن ابنى قبل عرض العمل فيها، ورغم إننا فى الحقيقة مش محتاجين مرتب إميل لكن طالما فكرت وقررت إنى أعيش فى طهران فالأفضل إنه يشتغل، ماكنش فيه فرصة لغاية دلوقتى علشان أعلق شهادت التقدير اللى خدها من الجامعة على الحيطة، أنا وصيت أغلى صنايعى براويز فى كلكته علشان يعمل براويز للشهادات دى، وكلها من خشب النخل الهندى.

كان «آرتوش لا يزال ينظر إلى «إميل»، وقال:

ـ قلت لى كنت بتشتغل فين؟

وكأن الأم لم تقل شيئًا!

سعل «إميل سيمونيان» مرة ونظر إلى أمه وبدأنى فى الحديث كم كان شبيهًا بابنته، إنها كانت فى مطبخنا ـ حينما وصلت الجدة ـ هلعة خائفة.

تناول «آرتوش» الأرز دون إضافات وهو ينظر فقط إلى «إميل سيمونيان»

واكتفى بهز رأسه. أفرغت مدام «سيمونيان» الصلصة الحريفة فى الطبق للمرة

الثانية بدقة بالغة وكأنها تزن معجونًا نادرًا، فكرتُ فى العودة إلى المنزل، وبينما كنت أرد على همهمات «آرتوش» إذا بمدام «سيمونيان» تقول:

ـ ولادكم بيناموا إمتى؟

لقد مرت نصف الساعة ولم يصدر صوت للأطفال، انتابنى القلق، قلت: ـ

ـ فى العادة بيناموا الساعة ثمانية ونص أو تسعة على الأكثر لكن فى الليالى اللى زى الليلة دى اللى بيكون فيها تانى يوم أجازة.....

ألقت السيدة سيمونيان بالملعقة والشوكة معًا فى الطبق، ورفعت منديل السفرة من على ركبتها، وقالت:

ـ مرواح المدرسة أو عدم المرواح مش سبب فى النوم متأخر أو بدرى، لازم الأطفال يتعودوا على برنامج محدد، «إميلى» بتنام الساعة تسعة بالظبط، ولما كانت طفلة صغيرة كنت بأمر الدادة بتاعتها.....

أزحت المقعد إلى الخلف، ووقفت باأأمر وقلت «أنا رايحة أشوف الولاد»، وقام «إميل سيمونيان» من مكانه وأدى تحية بسيطة بينما قضم «آرتوش» قطعة من الخبز.

كانت بعض الحقائب مرصوصة بعضها فوق بعض فى جانب من الدهليز وبجوارها تمثال حجرى لفيل بنصف خرطوم وقد كسر جزء من إحدى أذنيه. نظرت إلى ساعتى، كانت تشير إلى الثامنة والربع.

كانت حجرة «إميلى» تماثل حجرة «آرمن» وتبدو لى أيضًا أوسع منها، لا تحوى سوى سرير معدنى ومكتب صغير وسجادة عنابى صغيرة، كانت النافذة تخلو من الستائر والحجرة خافتة الضوء، والتوأمان تجلسان على السجادة بينما يجلس «آرمن» فوق مقعد المكتب، أما «إيملى» فكانت تمدد جسدها فوق السرير وذيل فستانها الأبيض مرفوعًا فوق ركبتيها وقد حلت إحدى شرائطها وينسدل الشعر على وجهها وتلعب بشريطتها، وما أن رأتنى حتى نهضت وسحبت ذيل فستانها إلى أسفل، ووضعت كلتا يديها على ركبتيها.

نظرت «آرسينه» إلىّ بشعرها المجعد الذى يخرج من تحت التوكة البرتقالية:

ـ أد إيه يكون جميل لو بكره.....

وأكملت آرمينه بشعرها المجعد الذى كان يخرج أيضًا من تحت التوكة البرتقالية : ـ

ـ تروح «إميلى» معانا السنيما.

قالت «آرسينه» :

ـ هاتاخدى إذن ليها؟

وتمايلت «آرمينه» وقالت :

ـ من فضلك.

رفع «آرمن» كتابًا من فوق المكتب وانشغل بتصفحه ، فقلت :

ـ قضيتم وقت كويس؟ عملتم إيه؟

قالت «آرمينه» :

ـ كنا بنتكلم طوال الوقت.

وقالت «آرسينه» :

ـ كانت «إميلى» بتحكى لنا عن المدارس اللى راحتها قبل كده.

قالت «آرمينه» :

ـ واتفقنا دلوقتى نلعب لعبة الإزازة.

قالت «آرسينه» :

ـ «إميلى علمتهالنا» .

قلت :

ـ لعبة الإزازة؟

وأخذت شهيقًا .

لقد تعرفت على «آرتوش» أثناء ممارستنا لعبة «الزجاجة» هذه فى حفل عيد ميلاد صديق مشترك لنا ، كان كل فرد من الضيوف يلف الزجاجة فى دوره ، وعلى الشخص الذى يدير الزجاجة أن يقبل الشخص الذى أمام رأس الزجاجة. وحينما قررنا الزواج اعترف «آرتوش» لى قائلاً :

ـ كنت بحاول ألف الإزازة بالشكل اللى يخلى رأسها تقف قدامك.

وبعد عيد زواجنا الأول تجرأت وقلت :

ـ وأنا كمان.

قالت «آرمينه» :

ـ اللى بيلف الإزازة.....

وأكملت «آرسينه» :

ـ يقف قدام اللى وقفت قدامه رأس الإزازة....

واستطردت «آرمينه» :

ـ ويأمره بأى حاجة هوّ عايزها

ثم قالتا معًا :

ـ حلوة مش كده؟

أخرجت زفيرًا وضحكت ، وقلت :

ـ بشرط ماتكونش الأوامر خطر.

وفكرت :

ـ «أد إيه الأطفال أبرياء» .

كان «آرتوش» و«إميل» يتحدثان فى غرفة الجلوس بينما كانت مدام «سيمونيان» ترفع مائدة العشاء. تعجبت :

ـ لِمَ لمْ تستدع ابنها ليقوم بذلك؟!»

تقدمت لمساعدتها ، كانت ترفع ذيل فستانها أثناء ذهابها وإيابها ما بين حجرة الطعام والمطبخ ثم تحدثت دون توقف :

ـ من يوم ما اتولدت وأناعندى خدم وحشم ، ودلوقتى أنا مضطرة أشتغل بنفسى ، ورغم إن الهند مليانة حاجات وحشة لكن الخدم فيها كتير ، فى بيت أبويا اللى كان فى جلفا كان عندنا خدم زى ما انتى عايزة منهم اللى اتولدوا واتربوا فيه.

كان العقد اللؤلؤى يصطك دومًا بالأطباق ومقبض الباب ، واستطردت فى حديثها :

ـ لما كنا فى منطقة «مسجد سليمان» جبت بنت من جلفا بس ما كانتش شاطرة

فاتصلت بأهلها وجم خدوها، أظن أنها من «نماجرد»، بالرغم من إنك بالتأكيد مش عارفة هىّ فين «نماجرد» إنتى ليه مابتدوريش على خدامة هنا؟

أردت أن أقول:

ـ «أنا عارفة «نماجرد» «فين» لكننى لم أقل وتذكرت «آشخن» التى كانت تأتى إلينا مرتين كل أسبوع للمساعدة فى أعمال المنزل وكانت تذهب إلى منزل أمى و«آليس» مرة كل أسبوع، وقد أصيب زوجها بالفلج بعد عملية جراحية فى ظهره، وكان يحصل على معاش بسيط من شركة النفط، وقد عاد ابنها مؤخرًا من الجندية وكان عاطلاً، وكما كانت تقول «آشخن»:

ـ كل شغله من الصبح لحد بالليل المرواح لأسواق الكوايتة والشط، وتدخين علبتين سجاير كل يوم وقزقزة اللب، فاكر إنى ـ أمه الغلبانة ـ بتجيب فلوس من على الشجر.

فكرت فى التقليل من مشقة جارتى وإبداء المساعدة لـ «أشخن» وبعد مائدة العشاء جلست أمام «إميل» و«آرتوش»، وجلست مدام «سيمونيان» فى مكانها السابق، وقالت:

ـ احنا مابناكلش فاكهة ولا بنشرب شاى بعد العشا، أصل ده مضر للهضم.

ثم أخذت عنوان محل «أديب» للبقالة ـ وكان بالقرب من منزلنا ـ وسجلت رقم هاتف مدرِّبة البيانو الخاصة بالأطفال، وقالت:

من يوم ما كانت «إميلى» عندها سبع سنين وديتها تتعلم البيانو، ولازم تكمل فيه، أنا نفسى كنت باضرب على البيانو وأنا عندى خمستاشر سنة.

فكرتُ:

ـ «حاجة غريبة، هى ليه ماقالتش: كنت باعزف؟»

وضع «إميل» ساقًا على ساق، كان يرتدى حذاءً لامعًا أسود اللون وجوربا أسود، وكذلك وضع «آرتوش» ساقا على ساق، كان حذاؤه أسود والجورب بنيًّا، الذنب ذنبى، لقد نسيت أن أضع جوربًا أسود بجوار الحذاء.

كنت أنتظر أن ينظر «آرتوش» إلىّ كى أشير إليه لمغادرة المكان، وإذا بـ «آرمن» يهرول نحو الحجرة، لقد احمرّ وجهه وجعل يسعل دون توقف، قفزت من مكانى، وقلت:

ـ إيه اللى حصل؟

رد وهو يسعل:

ـ مية

وقف «إميل سيمونيان» وكذلك «آرتوش» بينما لم تتحرك السيدة سيمونيان. أخذت «آرمن» إلى المطبخ، وصببت الماء على يديه، وسألته:

ـ فيه حاجة نزلت فى زورك؟

ـ كانت أهدابه الطويلة قد التصقت ببعضها على أثر الدمع، طلب الماء ثانية، وسعل ثانية، شرب الماء ثانية، وهدأ ثم قال فى النهاية دون أن ينظر إلىّ:

ـ مش عارف ليه مرة واحدة بدأت أكح؟

وخرج من المطبخ.

نادى «آرتوش» على التوأمين وشكر مدام «سيمونيان» وودعها، كانت «إميلى» تلف الشريط الأبيض حول إصبعها وهى تطأطىء رأسها،

ـ هوّ كان بيتهيألى إنها كانت بتضحك بخبث، ولا ده كان بجد؟!»

أثناء مد يدى تجاه مدام «سيمونيان» وابنها لمحت «آرمن» بطرف عينى وهو يتجه نحو التوأمين ويهمس فى أذنيهما، سحبت «آرمينه» ذيل فستانى وقالت:

السينما بكرة.

نظرت إلى «إميل سيمونيان» وقلت:

ـ تسمح إن «إميلى» تروح مع الولاد بكرة السينما؟

نظر «إميل سيمونيان» إلى أمه، فى الوقت الذى راحت فيه «آرسينه» تسحب الطرف الآخر من ذيل فستانى وهى تقول:

ـ اطلبى من جدتها.

وبعد أن سألت مدام «سيمونيان» عن اسم السينما واسم الفيلم ، ومع من سيذهب الأطفال، ومع من سيأتون، وفى أى وقت سيذهبون؟ وأى وقت سيعودون؟ وإذا ما كانوا ـ لا قدر الله ـ سيأكلون الشيبسى أو الساندويتشات فى السنيما؟ وافقت فى النهاية.

كانت التوأمان تسيران أمامى أنا و«آرتوش» و«آرمن» ويد كل منهما على وسط الأخرى، التفتتا مرتين ونظرتا إلى «آرمن» وهما تضحكان، فتحت باب المنزل وأضأت مصباح الدهليز:

قالت «آرسينه»:

ـ يااااه، أد إيه جميل إن بيتنا مش ضلمة.

وقالت «آرمينه»:

ـ يااااه، والجو فيه منعش.

قالت «آرسينه»:

ـ قضينا وقت كويس، بس بيتهم كان ضلمة قوى.

وقالت «آرمينه»:

ـ قضينا وقت كويس، بس بيتهم كان حر قوى.

حل «آرتوش» رابطة عنقه ومضى تجاه المطبخ، وقال:

ـ عندنا حاجة ناكلها؟

وتوجه «آرمن» إلى حجرته فى صمت وأغلق الباب بإحكام، وأخذتُ التوأمين إلى حجرة النوم، وخلعت الحذاء ذا الكعب العالى، وتوجهت إلى المطبخ حافية القدمين، كان «آرتوش» يجلس خلف المائدة ينظر إلى الورود الموجودة فوق حافة الشرفة، وقال:

ـ مسكين! دلوقتى فهمت هو ليه مش طبيعى، مع الأم دى.....

كان برص صغير يحملق من خلف الباب السلكى فى المطبخ، أعددت شطائر البيض، فالبيض على أى نحو يكون وفى أى وقت هو الطعام المفضل لدى زوجى. وما أن بدأ «آرتوش» فى قضم الشطائر حتى علا صياح «آرسينه»:

ـ قول «إيشى» فين بدل ما أقول ليه كنت بتكح.

وأردت النهوض من على المائدة، فأمسك «آرتوش» بيدى. يعلم الله كم مرة قال لى فيها:

ـ ماتتدخليش، سيبيهم يتخانقوا، هايتصالحوا بعدين، وبعدين هايتخانقوا تانى، وهايتصالحوا تانى، سيبك منهم.

ـ ثم ابتسم وقال:

ـ ماتخافيش، مش هايقتلوا بعض.؟

وعلى أثر أصابعه التى سحبها من فوق يدى والتى كانت لا تزال عليها. ظللت دون حركة كم من الوقت مضى ولم يلمس يدى! تركها، وأمسك بالشطائر وجعل يقضمها وهو يقول:

ـ جلدك بقى خشن قوى.

نظرت إلى يدى، وإلى أظافرى المتآكلة عديمة الطلاء، هل انتبهت مدام «سيمونيان» إلى جفاف بشرتى أثناء السلام؟ وماذا عن ابنها؟

تذكرت تقبيله ليدى، وتملكنى الضيق.

صمت الأطفال، وبعدها بنصف ساعة، حينما توجهت إلى حجرتهم وجدت ثلاثتهم نائمين و«إيشى» بجوار «آرمينه».

ـ ٨ ـ

كنا فى أيام الجمع ـ على عكس الأيام الأخرى ـ نتناول فطورًا خاصًا كان المذياع مفتوحًا، كسرت البيض فى المقلاة وقلت لـ «آرتوش» الذى كان يحضر الزبد والجبن من الثلاجة:

ـ أنا هاحضر السفرة وروح إنت صحى «آرمن» علشان يروحوا السنيما.

وإذا بـ «آرمن» يقول وهو على باب المطبخ:

ـ أنا صاحى، روحوا صحوا بناتكم الكسلانين، وبالمناسبة، صباح الخير.

كان شعره مبللاً ووجهه متوردًا، ، نظر «آرتوش» إلىّ ورفع حاجبيه ونظر كلانا فى دهشة إلى ابننا، جلس «آرمن» خلف المائدة، وقال:

ـ فيه إيه، ماشفتوش حد اخد حمام؟

وضع «آرتوش» المقصوصة تحت البيض المقلى، وقال:

شفنا كتير، لكن قليل لما نشوف «آرمن» بياخد حمام! وضع البيض المقلى فى طبق «آرمن» وضحكنا. منذ أن كان «آرمن» فى العاشرة وحتى الآن كان من أصعب مهامى هو أخذه للحمام وبينما كان يرطن بأنه لا يحب البيض المقلى النصف مطهى أسرعت كل من «آرسينه و» آرمينه» بالدخول إلى المطبخ، وقالتا وهما ترتديان الشورتات الكاروهات الحمراء والكحلى والبلوزات البيضاء إنهما لن تأكلا البيض المقلى، وطلبت كل واحدة منهما الزبد والمربى مع الكاكاو باللبن البارد.

قال «فروزنده أربابى» عبر المذياع:

الطقس هذه الأيام فى طهران ربيع وعليل، والأمطار....

قال «آرمن» بصوت عالٍ:

الطقس هذه الأيام فى عبدان ليس ربيعًا، وهو حار رطب.

وقالت «آرسينه» :

ـ قلت إيه؟

قالت «آرمينه» بصوت به غنة :

ـ ده اتكلم زى فروزنده أربابى.

وانطلقت «آرسينه» فى الضحك من طريقة كلام أختها وأخيها، وقالت وسط ضحكاتها :

ـ هاتتغدى فى النادى؟

قالت «آرمينه» :

ـ هانتغدى فى النادى.

فى أيام الجمع، لو لم نكن ضيوفًا على أحد، أو لم يكن لدينا ضيوف، نذهب لنتناول الغداء فى نادى جُلِسَتان. الأطفال يحبون الأرز مع الكباب الذى يقدمه النادى. كنت أرى كم هو جميل أن نجتمع معًا لتناول الغداء مرة كل أسبوع. وضع «آرتوش» السكر فى فنجان الشاى وجعل يقلبه ثم قال :

ـ بشرط.

ازدردت «آرمينه» لقمتها بسرعة، وقالت :

ـ شرط إيه؟ إحنا عملنا كل واجبات المدرسة، وخلصنا تمرين البيانو، ووطّبْنا أوضتنا.

ورغبت كالعادة فى كسب تأييد أختها، فقالت :

ـ مش كده يا «آرسينه»؟

كان «آرمن» يفضل الأجزاء نصف المطهية عن الأجزاء المتماسكة من البيض، وقال :

ـ وطبنا، لأ، اسمها وضبنا يا عبيطة....

ووقع نظره علىَّ ولم يكمل حديثه، كانت التوأمان تركزان على «آرتوش» وقالتا :

ـ قول، قول إيه هوْ الشرط.

ـ كان «آرتوش» يقلب الشاى، قالت «آرمينه» :

إحنا موافقين. وقالت «آرسينه» :

ـ إحنا موافقين على أى شرط.

ثم قالتا معًا:

ـ قول، قول، قول.

والآن، كنت انظر أنا و«آرمن» والتوأمان إلى «آرتوش» منتظرين، فأخرج الملعقة من الفنجان على مهل، ووضعها بكل هدوء فى الطبق، ونظر إلى الخارج عبر النافذة، ثم نظر إلىّ، ثم إلى «آرمن»، ثم إلى التوأمين حتى قال فى النهاية:

ـ بشرط تدى بناتى الحلوة بوسة كبيرة لباباها.

وضحكت «آرمنية» و«آرسينه» وقفزتا من مكانهما، وتغير وجهه «آرمن» وقال ممتعضًا:

ـ ييه، أيه الدلع ده؟

فضحكتُ وبدأت أجمع مائدة الفطور. قالت «آرسينه» وهى جالسة فوق ركبة «آرتوش»:

ـ ياريت «إميلى» تيجى معانا النادى بعد السنيما.

وقالت «آرمينه» وهى جالسة فوق ركبته الأخرى:

ـ يبيه! لازم نسأل عنها.

وقفزت من حضن «آرتوش»، ودفع «آرمن» مقعده إلى الوراء، وقال:

ـ ها أروح أسأل عليها.

نظر «آرتوش» إلىّ من فوق شعر «آرسينه» المجعد، وما أن وصل «آرمن» إلى الدهليز حتى صاحت التوأمان خلفه:

ـ استنى.

ـ وخرجتا من المطبخ. نظر «آرتوش» إلى باب المطبخ وقال:

ـ ابننا بقى يعرف الأصول كويس!

ثم قام من مكانه وقال:

ـ هاآخد الولاد للسينما وبعدين آجى لك، اتصلى بماما و«آليس» علشان ييجوا معانا.

ـ تملكتنى الدهشة! كان «آرتوش» يعلم جيدًا أن أمى و «آليس» ليستا فى حاجة إلى دعوة وأنهما ستأتيان حتمًا، كما كنت أعلم جيدًا أنه لا يحبذ مجىء أى منهما. إذن، ما هو سبب كل ذلك الود واللطف؟!

صاح عبر الدهليز:

هااسيب الولاد فى السنيما وهااروح عند «شاهنده»

فقلت فى نفسى:

ـ آه قول كده.

ناديته:

ـ استنى.

وجريت وراءه.

وقف وسط الدهليز وانتظر وصولى، كان يلعب بيده فى لحيته ويضحك، إذن كان ظنى صحيحًا، إنه كان يقدم المقابل، وقفت أمامه، وقلت:

ـ إنت مش وعدتنى إنك مش هاتروح عند «شاهنده»؟

رفع شعرى الذى انسدل على جبهتى، وقال:

ـ أنا قلت ميت مرة إن اللى سمعتيه مش صحيح، من إمتى «وشاهنده» الغلبان دع بيلعب فى السياسة، فيه إيه لو ساعات جه شوية ناس واتكلمنا مع بعض فى المحل؟

وضرب بإصبعه على طرف أنفى، وقال:

ـ ماتقلقيش، هااشرب بس الحبوب بمية الورد وارجع، أجيب لك معايا؟

وضحك.

إذا ما كان الطقس حارًا، كان «شاهنده» يقدم إلى كل من يذهب إلى متجره مشروب الحبوب بماء الورد، ولو لم يكن الجو حارًا فيقدم الشاى مع الليمون العمانى، لقد شربت مشروب الحبوب بماء الورد مرة واحدة فقط ولم يعجبنى طعمه قط.

توجهنا معًا ناحية الباب المعدنى، ثم قال «آرتوش»:

ـ جايز يحكى قصة شيقة عن الصيد، ولما أرجع أحكيها لك.

قلت :

ـ إنت مابتعرفش تحكى الحكايات.

كانت الحكايات التى يقصها «شاهنده» حول رحلات صيده شيقة حتى حين يعيد «آرتوش» قصها بشكل سريع خالٍ من التشويق، ساعدته ليفتح باب المرآب، وقلت :

ـ حقيقى مفيش خبر عن محل «شاهنده» ، هو ليه كان مقفول من يوم رأس السنة لحد يوم عيد القيامة؟

قال بائع العطور المجاور :

ـ فيه ناس جت له من طهران.

كانت أشعة الشمس تسقط على السيارة «شورلت» النبيتية والتى كان قد مضى عليها عشرون عامًا وكانت أحد الموضوعات المحببة لدى «آليس» للسخرية من «آرتوش» .

فتح باب السيارة، وقال بائع العطور كلامًا هراء :

ـ كان «شاهنده» زيى فى شبابى بيعمل حاجات كتير، ودلوقتى تعبنا وعجزنا.

وركب وقال :

ـ احنا بنتكلم بس، اطمنى.

وأديرت السيارة بعد محاولة تشغيلها عدة مرات، وبينما كان «آرتوش» يبغى الخروج بالسيارة من المرآب بظهره حتى وصل الأولاد. كانت «إميلى» تجمع شعرها إلى الخلف بشريط أحمر على جبهتها، والآن ؛ حيث لا ينسدل الشعر على وجهها، كانت عيناها تبدوان أوسع ، وشفتاها ووجنتاها أكثر بروزًا، تخيلت أنها قد وضعت بعض المساحيق، كانت «آرسينه» و «آرمينه» غاضبتين، وقالتا :

ـ الجدة ماسمحتش إن «إميلى» تيجى تتغدى معانا فى النادى، قالت لنا إن الأكل برة مش كويس علشان «إميلى»

وأخذتا يدى وجعلتا تحركانها، ثم قالتا :

ـ روحى خدى الإذن منها، لو سمحتى، روحى، علشان خاطرنا.

جعل «آرمن» يحرك الحصى أمامًا وخلفًا بأطراف قدميه على خطوات منا، وطأطات «إميلى» رأسها، ونادى «آرتوش» من داخل السيارة:

ـ اتحركوا، الوقت اتأخر.

وضعتُ يدى خلف التوأمين متجهة بهما ناحية السيارة، وقلت:

ـ ماشى، هاروح آخد الإذن ليها.

جلست «آرسينه» و«آرمينه» فى المقعد الخلفى، وأمسك «آرمن» بالباب حتى ركبت «إميلى» ثم أغلقه واتجه ليجلس فى المقعد الأمامى بجوار أبيه، سلك «آرتوش» الطريق وأشار لى بيده، أنزلت التوأمان الزجاج وصاحتا:

ـ إذن «إميلى» لو سمحتى.

أومات برأسى:

ـ حاضر.

ثم لوحت بيدى قائلة:

ـ مع السلامة.

وقفت حتى بلغت «شورلت» نهاية الشارع ولفت ناحية السينما «تاج» هبت رياح حارة، واهتزت الأشجار الطويلة على جانبى الطريق هزة خفيفة. كان السيد «رحيمى» ـ المجاور لنا فى المرآب ـ يمسح سيارته، وكان ابنه ذو الخمسة أعوام يمسك ببنطلون أبيه ويبكى قائلاً:

ـ عايزين نروح الحوط، عايزين نروح الحوط.

ألقى السيد «رحيمى» التحية علىّ، واستفسر عن الأحوال وضحك وقال:

ـ حبيب بابا الحوض لسه مافتحش دلوقتى.

زن الطفل وهو يمسك فى يده علبة الـ«كول ايد» وقد تكون حول فمه باللون البرتقالى. يعد الكبار فى عبدان الشراب من حبات الـ«كول ايد» ذات الطعم الليمونى أو البرتقالى أو بطعم أشياء أخرى، أما الصغار فيعشقونها لأنهم يأكلون حباتها واحدة واحدة، ثم يخرجون ألسنتهم أمام بعضهم، ويتساءلون:

ـ بقت برتقالى؟ حمرا؟ بنفسجى؟

ـ واستفسرت من السيد «رحيمى» عن أحوال زوجته التى سافرت إلى طهران لشراء جهاز ابن أخيها ثم ودعته. فتحت الباب المعدنى ثم أغلقته، سرت عبر الدهليز وسط شتلتين فى الحديقة وأنا أنظر إلى أزهار «الشبت»، وتذكرت كلام «آرمينه»: ـ

بالظبط زى شيكولاته سمارتيز البنفسجى، مش كده يا «آرسينه»؟

كلتاهما تعشقان شيكولاته سمارتيز المستديرة الملونة.

كانت فروع أشجار الصفصاف مائلة فوق الأرجوحة المعدنية، وها هى براعم شتلة الورود الحمراء قد تفتحت مؤخرًا.

ـ ٩ ـ

دخلت المنزل وأغلقت الباب خلفى بالقفل، لا يغلق شخص فى عبدان باب منزله بالقفل فى وضح النهار، أنا فقط التى كنت أدير المفتاح أحيانًا فى القفل لأننى كنت أريد أن أتأكد من كونى وحيدة. سألنى جانبى المستفسر:

ـ إيه العلاقة بين قفل الباب بالقفل وبين الوحدة؟

وكنت أجيب فى كل مرة:

ـ مش عارفة.

اتكأت على الباب وأغمضت عينى، فبعد حرارة الطقس والنور وجلبة الأطفال بالخارج، كان الجو المنعش والهدوء وظلال أضواء المنزل المحببة. ما كان يبدو فقط هو صوت التكييف ورائحة عطر «آرتوش» التى كانت لا تزال فى الدهليز، رغبت بشدة فى احتساء القهوة.

نظرت إلى ساعة الحائط بالمطبخ، لم يتبق شىء على العاشرة، من المؤكد أن أمى و«آليس» ستصلان بعد نصف ساعة فكرت:

استنى ونشرب القهوة مع بعض.

أحضرت علبة السجائر من الثلاجة، لا أدرى ممن سمعت أن وضع علبة السجائر فى الثلاجة يؤخر من جفافها؟ لم أكن أدخن السجائر بشكل مفرط، لكن أحيانًا حينما يكون المنزل خاليًا، أحب أن أجلس فوق الفوتيه الأخضر الحريرى وأسند رأسى إلى الوراء وأدخن سيجارة وأغرق فى التفكير. فى لحظات الوحدة النادرة تلك كنت أحاول ألا أفكر فى شئون الحياة اليومية، مثل:

عشاء الليلة، عدم مذاكرة «آرمن»، فتور «آرتوش» ونسيانه.

كنت أفكر فى أشياء قلما تحين الفرصة لتذكرها، مثل:

منزلنا فى طهران ذو الفناء الصغير، والغرف الواسعة والدهليز الطويل الذى كان يبدو مظلمًا حتى فى وسط النهار.

كنت أتذكر أبى حينما كان يعود إلى المنزل فى أوقات الظهيرة ويغسل يديه ووجهه، ثم يجلس خلف المائدة ويتناول أى شىء قامت أمى بطهيه فى هذا اليوم بشهية، كان يصغى فى صبر إلى أمى وهى تقص عليه الأحداث اليومية مع شرح أدق التفاصيل بداية من «البطيخة القرعة» الى اشترتها فى ذلك اليوم حتى غلاء ثمن اللوبيا وشجارى مع «آليس» الذى كان من المؤكد ضمن الأحداث اليومية. كان أبى يهمس بكلمات بشكل لا نستطيع أن نسمعها بدقة، وحتى لو سمعناها فإنها لا تبقى فى الذاكرة، ثم يقوم من على المائدة ويقدم الشكر لأمى على الغداء ويسير عبر الدهليز الضيق ويتجه إلى غرفته التى كانت تقع فى نهاية الدهليز. كانت حجرته صغيرة بها ستائر من القطيفة بنية اللون منسدلة دومًا، وكانت الحجرة دومًا مملوءة بأشياء تجعل أمى ترطن:

ـ ليه محتفظ بالزبالة دى؟!

بعد ذكرى الأربعين لوفاة أبى حينما دخلت أنا وأمى و«آليس» حجرة أبى، بكت أمى وقالت:

ـ ربنا لوحده اللى يعرف هو كان ليه محتفظ بالزبالة دى؟!

كانت الصناديق مملوءة حتى السقف بالكتب وقصاصات الصحف والمجلات والكلمات المتقاطعة المحلول نصفها. كانت هناك رسائل لم اتعرف أنا ولا أمى ولا «آليس» على أصحابها، كانت توجد صور جماعية لأبى فى فترة شبابه مع أصدقائه، أصدقاء لم نرهم قط، عبست «آليس»، وبكت أمى وهى تقول: ـ

ـ ليه احتفظ بكل الزبالة دى كل السنين دى؟!

فتحتُ الكتب ثم أغلقتها، قلبت فى ساعات اليد المعطلة وتذكرت أن أمى كانت تشكو دومًا من عدم التزامه بالوعد، نظرت فى علبة الأحذية القديمة على أمواس الحلاقة التى كان يعلوها الصدأ ونظرت فى الصندوق الخشبى على زجاجات العطور الفارغة المتعددة.

كان لأبى ـ إن أسعفتنى الذاكرة ـ ذقن كثيفة، ولم تفح منه فى أى وقت رائحة العطر.

فى الحجرة الصغيرة التى تقع فى نهاية الدهليز لم تعثر «آليس» على شىء يستحق الاحتفاظ به، قمتُ بحمل الكتب، وجففت أمى دموعها ثم سحبت الستائر القطيفة بنية اللون وأطاحت بعيدًا بكل ما طالته يداها. وفى الحجرة الصغيرة التى تقع فى نهاية الدهليز شعرت أمى وكأنها قد أنهت مهمتها الأصلية بعد أن صارت الحجرة خاوية، وجلست هادئة البال فى عزاء أبى تتردد على لسانها جملة:

ـ لو كان أبوكم الله يرحمه حى.....

وتدريجيًّا، نسينا جملة «لو كان أبوكم حى ماكانتش اتغيرت أى حاجة فى الدنيا».

كان أبى يقرأ الكتب ويحل الكلمات المتقاطعة، ويتناول الطعام الدسم، ولم يبد رأيه فى اى أمر قط، وإذا ما فعل لم نكن نسمعه، و كنا نسمعه أو ننسى ما يقوله ونستمر فى حياتنا.

لقد جئت مع «آرتوش» إلى عبدان وقمت بتربية أطفالى، وسافرت «آليس» إلى إنجلترا عدة سنوات، فى الباطن على أمل العثور على زوج إنجليزى وفى الظاهر لاستكمال دراستها فى التمريض. كانت أمى تقوم بتنظيف المطبخ مرتين كل يوم، وتقوم بذم النساء اللائى يقمن بوضع البطيخ والشمام فى الثلاجة دون غسيل، وفى كل يوم كانت تبحدث عن سبب لقلقها.

لقد ذكرنى الاتكاء على الفوتيه الأخضر بآل «سيمونيان»، بيد الابن الرقيقة، بحذاء الأم المزخرف بالترتر، بـ «إميلى» التى لم تتحدث معى حتى الآن بكلمة واحدة. فكرتُ:

«ياترى أم «إميلى» كان شكلها إيه؟»

كانت أمى تقول:

ـ دى اتجننت وراحت «نماجرد».

فكرت:

ـ كم كان عمرى فى ذلك الصيف الذى سافرنا فيه إلى «نماجرد»؟ ثمانية أعوام، أحد عشر عامًا؟ ربما كنت فى عمر التوأمين نفسه الآن.

سمعت صوت أزيز باب الفناء المعدنى، أطللت برأسى عبر النافذة فرأيت أمى و«آليس» آتيتين.

كانت أختى ترتدى فستانًا أصفر اللون فضفاضًا وتبدو بين الأشجار تحت وهج الشمس كزهرة عباد الشمس الكبيرة. أما أمى فقد بدت فى نحافتها وزيها الأسود كقطعة من الخشب الجافة. كان «آرمن» يقول:

ـ لما خالتى «آليس» بتمشى مع جدتى بيشبهوا لوريل وهاردى بالظبط.

كانت اختى تحمل فى يدها علبة كبيرة من الورق المقوى ما بداخلها غير مرئى لكننى كنت أعلمه. لقد كان الذهاب فى أيام الجمع إلى محل الحلوانى «نجرو» وشراء فطائر القشدة الطازجة لـ «آليس» أكثر وجوبًا علينا من الذهاب فى أيام الأحد إلى الكنيسة.

ـ ١٠ ـ

عبرت أمى عن شكواها بسبب الحر، والتقطت «آليس» أنفاسها وجلستا على مائدة المطبخ، ثم قالت أختى:

ـ كان كويس؟

لم يكن من الضروى أن أسأل: «إيه هوّه اللى كان كويس»؟»

إذا ماحدث وخرجت يومًا من غير «آليس» إلى مكان ما ـ ونادرًا ما كان يحدث ـ كان يجب علىّ فى اليوم التالى أن أقص كل ما حدث من الألف إلى الياء، ورغم ذلك لم تكن ترضى، وتتخذ لنفسها شكل المتشكك، وتقول:

ـ إنتى ماقلتيش كل حاجة.

وبينما كنت بجوار الموقد أترقب كنكة القهوة كى لا تفور قلت:

كان كويس، كان لازم نروح، فى الآخر دول جيراننا.

فقالت «آليس» وهى تبتسم:

ـ يعنى كانت المقابلة وحشة بالشكل ده؟ لازم البروفسور كان عمال يبرطم طول الوقت.

وضحكت أمى، وصببت القهوة ووضعتها على المائدة وجلست.

فكّت أختى الشريط الملفوف حول علبة الورق المقوى ورفعت غطاءها وقالت:

ـ أنا استنيت نص ساعة لغاية ما خلصوها، دى طازة طازة، كل ما الأستاذ «موسوى» كان بيصر على إنى أشترى نوع تانى صابح مكانها كنت باارفض، وقلت له انتم بتصبوا فيها تلات أطنان مية ورد، وماقلتلهمش يحطوا حلويات ثانية غيرها، دا كان بيترازل قوى.

والتقطت بإصبعيها واحدة من فطائر القشدة وقضمتها ثم أغمضت عينيها وقالت:

ـ م م م ....

أى أنه لذيذ. ثم أدارت العلبة ناحيتى أنا وأمى وقالت وفمها مملوء :

- م م م !

أى كلوا. أخذت أمى واحدة وحركت رأسى قائلة :

ـ أنا فطرت مع الأولاد دلوقتى.

قالت أمى : الأولاد مش هنا؟ ها! كانوا متفقين يروحوا السينما ، «آرتوش» فين؟ ها! راح يوصل الولاد وهايرجع؟ لأ هايروح؟ إده لازم هايروح عند «شاهنده».

وبعد السؤال والجواب من جانبها فقط قضمت قطعة من فطائر القشدة ومضغتها وبلعتها ثم قالت :

ـ أنا قلت ميت مرة مش لازم يروح عند مقصوص السوالف ده (كان «شاهنده» يعقد شعره الطويل الأبيض ذيل حصان) بيع أدوات الصيد ده حجة (يبيع «شاهنده» أدوات الصيد بالقرب من سوق الكويتيين) مين التاجر اللى بيفتح محله يوم الجمعة؟ (بالقطع كان محل «شاهنده» فتوحًا باستثناء أيام الجمع) ، وكما يقول هو نفسه إنه بيفتح محله يومين فى الأسبوع) مش مكسوف من شكله الضخم وشنبه المبروم ولبسه اللى زى لبس الشباب (كان «شاهنده» يرتدى قمصانًا صناعة إنجليزية مفتوحة الياقة ذات ألوان صارخة).

وحينما لم أجب على أمى استمرت فى حديثها :

ـ أنا قلت قبل كده ، هو شوية اللى اتحملته منه ـ الله يرحمه ـ فى السياسة علشان أتحمل جوز بنتى دلوقتى ، «خلصنا من البركة غرقنا فى سيل».

على ما أتذكر أن اهتمام أبى بالسياسة لم يكن يتعدى الذهاب عدة مرات إلى جمعية «إيران والاتحاد السوفييتى» ـ تحت إلحاح «آرتوش» ـ وسماع برامج راديو أرمينيا ارتشفت «آليس» القهوة ، وتغير وجهها وقالت :

ـ يع ! دى مُرَّة سم.

قدمت السكرية وأنا أفكر :

«باين عليها نسيت جواز الدكتور»

فغضبت أمى وقالت :

ـ آتشو .

فى كل مرة كانت تنادى فيها أمى على «آليس» بهذا الاسم الذى كانوا يطلقونه عليها وهى طفلة ــ وكانت أختى تتضايق منه ــ كان هذا يعنى أنها غاضبة من «آليس» ثم قالت :

ـ قعدتى تانى على برطمان السكر؟

ولا شك أن الموقف مر على عكس رغبة أمى التى تجرأت وزجرت «آليس» على طريقة شربها.

وضعت «آليس» ملعقتين مملوءتين عن آخرهما بالسكر فى فنجان القهوة وجعلت تقلبه ، ثم أخذت قطعة من فطائر القشدة والتفت إلى دون أن تعير أمى اهتمامًا ، وقالت :

ـ قولى لى ، هو ابنها كان شكله إيه؟ هى لبست مجوهرات تانى؟

جزَّت أمى على شفتيها ، ونظرت إلى السقف وهى تقول :

ـ يامريم يا قديسة ، دى بدأت تانى.

فكرتُ كيف أصف «إميل سيمونيان» ؟ ما كنت أتذكره هو عينيه اللتين كانتا وكأنهما تنظران من على بعد على الإنسان ، جلوسه ، سيره ، طريقة تناوله للطعام وكل حركاته التى اتسمت بالرقة والهدوء لكن مثل هذه الأشياء لم تكن تكتفى بها أختى ، فقلت :

كان طويل ، وشيك و..... وسيم.

قلت ذلك وندمت ، وظلت قطعة فطائر القشدة الثالثة بين العلبة وفم «آليس» ، وسألتنى :

ـ هو عمره أد إيه؟

أعدت فنجان القهوة فى الطبق ورفعت كتفى قائلة :

ـ مش عارفة ، أعتقد إن عنده حوالى أربعين سنة.

أغلقت أمى علبة فطائر القشدة وأدارتها نحوى وأشارت إلى الثلاجة، كانت «آليس» تنظر عبر النافذة دون أن تنتبه إلينا، قالت أمى:

ـ بالتأكيد هوَّ فى الحدود دى.

ثم نظرت إلى آليس وقالت:

ـ ماتفكريش فيه.

وضعت «آليس» يدها على شعرها وهى تنظر عبر النافذة، وقالت:

ـ أنا بكره عندى ميعاد مع الكوافير.

ـ ثم نظرت إلىّ وقالت:

إيه رأيك أقص شعرى؟

نظرت أمى إلىّ وهزت رأسها، فكلانا يعلم جيدًا ما سيحدث بعد ذلك، فكلما ظهر أثر رجل أعزب تغير «آليس» أولاً تسريحة شعرها وبعد عدة أيام أو عدة أسابيع ـ وهذا مرتبط باستمرار الحدث ـ تقوم بعمل نظام غذائى وتقلل وزنها وفقًا لرغبتها هى وليس رضوخًا لرغبتنا. قمت وأخرجت طبق الفاكهة من الثلاجة وتذكرت ما وعدت أبى به وجعلت أكرره فى نفسى:

«ماتتناقشيش».

قالت «آليس»:

إنتى فين؟ أنا سالتك، أقص شعرى.....

فبدأت فى جمع الفناجين، وقلت على الفور:

ـ طبعًا، ليه لأ؟

عـــلا صـوت كـابح السيـارة «شورلـت» وبعـد لحظـات دخلـت التوأمـان مسرعتان وقالتا:

ـ هالو يانينة!

ـ هالو يا خالتو!

احتضنت أمى «آرمينه» وقالت:

ـ بتقولوا هالوا تانى هو إحنا إنجليز، قولى بارِوْ[1].

واحتضنت «آليس» «آرسينه» وقالت:

ـ هاتأنبى فى العيال تانى؟ انتى شفتى حد فى عبدان ما بيقولش هالو؟ إنتى نفسك بتغرقينا تمللى بالكلام الأجنبى.

ضيقت الأم عينيها، وقالت:

ـ أنا! أبدًا!

ضيقت «آليس» أيضًا عينيها وقالت:

«أيوه» إنتى، تمللى، ومالت جهة اليمين تقلد أمها:

«فان» المطبخ عطلت.

ثم مالت يسارًا وقالت:

«آليس» راحت «الهوسپيتال»[2].

مالت مرة أخرى إلى اليمين:

استور ماعندوش تويست، اشتريت رول.

ثم مالت يسارًا:

ـ ياولاد، خلوا بالكم عشان متقعوش من البايسكل.

ثم نظرت إلى أمها وهى تقول:

ـ التنى شوز بتاع «آرمن» قدم. وبالمناسبة اسمه التنس شوزمش التنى شوز

ضحك الأطفال، ونظرت الأم شذرًا إلى «آليس» التى كانت تقول:

ـ امبارح فيه دكتور قال لى حاجة لطيفة.

---

(١) لفظ أرمنى يستخدم عند الترحيب بشخص. (المترجمة).

(٢) الألفاظ الأوروپية على الترتيب هى: fan ـ Hospital ـ store ـ twist ـ Roll ـ Bicycle ـ Tennis shoes بمعنى المروحة، المستشفى، المتجر، نوع من الخبز، لفافة من الخبز، دراجة، حذاء تنس (المترجمة).

جلست «آرمينه» أمامها وقالت:

ـ قولى يا خالتو، وبعدها....

جلست «آرسينه» بجوار «آرمينه» وقالت:

ـ وبعدها هاأحكى لك الفيلم.

وجهت «آليس» حديثها إلى أمها:

ـ إيه اللى جرى للفطير؟ حطتيه تانى فى الثلاجة؟

قالت «آرمينه»:

ـ قولى يا خالتو.

وقالت «آرسينه»:

ـ يا خالتو قولى.

أمسكت بيد «آرمن» المتجه نحو الثلاجة وأشرت له بإصبعى:

مش لازم تجيب الفطير.

قالت «آليس»:

ـ مهندس إنجليزى راح يفتش على المنشآت، نسيت كانت فين، والمدير كان بيترجم كلام المهندس للعمال ومرة المهندس قال:

Tell them to bend the pipes فالتفت المدير إلى العمال وقال:

آهاى وُلَك! كفت بايب ها روبندش كن[1].

وضحكنا جميعًا إلا أمى التى غمزت بطرف عينيها وقالت:

ـ مش لطيفة خالص.

قالت «آرمينه»:

ـ بس الفيلم كان لطيف قوى.

---

(١) قال المهندس: أخبرهم أن عليهم أن يثنوا الأنابيب فاستخدم المدير فى جملته الفارسية بعض الكلمات الأوروبية (المترجمة).

وقالت «آرسينه» :

ـ بس سينما تاج كانت زى الثلاجة بالظبط.

ـ كانت برد قوى.

ـ ماما عملتى إيه فى إذن «إميلى» ؟

ـ أخدتيه؟

ـ اتصلى بالتليفون.

ـ لأ، روحى بيتهم.

ـ لا يا خالتو مش هاناكل شيكولاته، لازم نتغدى الأول .

ـ ماما، لو سمحتى، روحى خدى الإذن، لو سمحتى.

وضعت يدى فوق رأسى، وقلت :

ـ يا رب عليكم، هاروح.

وقمتُ.

حينما خرجت من المنزل كانت «آرمينه» و «آرسينه» تجلسان على ركبة الخالة والجدة وتقومان معًا بقص أحداث الفيلم. قلت فى نفسى وأنا فى الطريق بين منزلنا وبين الشارع المواجه :

ـ «ياريت أختى ماتطبقش البرنامج المعتاد على «إميل سيمونيان» ، وعلى عكس كل مرة ؛ حيث كنت أقول لنفسى :

ـ «جايز يكون ده.....»

لم يكن لدى هذه المرة أدنى شك فى أنه لن يناسب «آليس» أبدًا. وبلغت مشامى رائحة الطمى المنبعثة من جدول الماء الموجود على الطريق.

كأن شخصًا كان فى انتظارى، فلم أكن قد رفعت إصبعى من الجرس حتى فتح الباب، ودون أن تجيب مدام «سيمونيان» على سلامى قالت :

ـ لأ، مش ممكن أبدًا، الأكل برة ماينا سبش «إميلى» ، كمان هى لازم تستريح دلوقتى.

ورأيت وجه «إميلى» الباكى من خلف الباب.

وعند عودتى نهرنى جانبى المنتقد:

ـ متضايقة؟ علشان ماتطاوعيش الولاد فى كل اللى بيقولوه.

وأجبته:

ـ أنا حَرَمت.

قال «آرمن»:

ـ أنا مابحبش أروح النادى.

وبمجرد أن قلت:

ـ كويس خليك فى البيت وذاكر دروسك.

فإذا به يتجه ليركب السيارة أسرع منا جميعًا.

جلست مع أمى و«آليس» فى المقعد الخلفى لـ «شورلت» وجلست «آرمينه» بجوار «آليس»، وجلست «آرسينه» فى الأمام بين «آرتوش» و«آرمن» بعد أن وعد «آرمن» بعدم مضايقتها كانت التوأمان عابستى الوجه فى المسافة من «بوارده» حتى «بريم» ولم تنطقا بكلمة واحدة، وكان «آرمن» يتعلم من «آرتوش» درسًا فى فن القيادة، أما أمى و«آليس» فكانتا تتناقشان معًا حول موعد بداية الصوم الأكبر فى عيد القيامة العام القادم وموعد بداية الصوم الأصغر، وفى النهاية قالت «آليس»: ـ

ـ إحنا فين وعيد القيامة فين؟ على كل حال أنا مش هااصوم يوم واحد، أنا صمت السنة دى اللى يكفى لسابع جد.

قالت أمى:

ـ لازم تصومى.

قالت «آليس»:

ـ مش هااصوم.

ـ مش هااصوم!

ـ وحياة أبويا لاتصومى

ـ مش هااصوم

ولهثت الأم كالقطة الغاضبة ولدغت ساعد «آليس»بقوة فصاحت «آليس» : آخ خ خ !

ضحكت التوأمان وانفرجت أساريرهما، لقد كان شجار أمى و»آليس»_ سواء أكان جادًا أم على سبيل المزاح هو أفضل طريقة لإضحاك التوأمين.

ـ ١١ ـ

همست «آليس» أمام باب النادى فى أذنى قائلة :

ـ لو سمحتى ، اعزميهم.

ـ أخذت ، نفسًا عميقًا ورددتُ تحية السيد «سعادت» مدير النادى ، واستفسرت منه عن أحوال زوجته التى أنجبت طفلها الرابع منذ أسبوعين. وقام «آرتوش» كعادته بالسلام باليد على السيد «سعادت» وكالعادة راق لى منه هذا التصرف منه. فنادرًا ما كنت أرى أعضاء النادى يتبادلون السلام مع المدير باليد.

صاحت التوأمان :

ـ ياه !مى مى !

وجريتا ناحية طفلة صغيرة من زميلاتهن بالفصل تدعى «مارجريتا» وأصرت أمها على أن تناديها بـ «مى مى». كانت «مى مى» أو «مارجريتا» تعيش فى بوارده الشمالية حتى عدة شهور ، وكان الأطفال الصغار يخافون والدها الذى كان يتسم بطول القامة والبدانة واللحية الكثيفة ، وكانوا يطلقون عليه اسم «جولير»[1] كنت قد سمعت من «آرتوش» إنه ترقى فى عمله ، أو كما يقول أهل عبدان «جريد جوريل» ، واتخذوا منزلاً فى «بريم». حينما كانو يقطنون فى «بوادره» ، كانت «مارجريتا» تأتى بعد المدرسة إلى منزلنا بصحبة الأولاد وتبقى معنا حتى تأتى أمها فى النهاية لتأخذها بعد أن يكون قد مضى كثير من الوقت ، ثم تعتذر متعللة :

ـ لامؤاخذة ، الوقت اتأخر ، كان عندى شغل كتير.

وكان الأرمن جميعهم فى عبدان يعلمون شغل والدة «مارجريتا» إنه لعب الميسر وقضاء الوقت فى «ميلك بار» الكافتيريا التى افتتحت حديثًا.

---

(١) أى الغوريللا (المترجمة).

أخذت «آليس» يدى ومشت وهى تقول:

ـ يللا.

لم يكن من الضرورى أن أسألها «رايحة على فين؟» حيث كان أول ما تقوم به فى كل مكان نذهب إليه هو البحث عن مرآة لتتأكد: هل شعث شعرها؟ هل مُسح الماكياچ؟ ولم يكن من الضرورى كذلك أن أسأل عن سبب توجهى معها. فمن المحال أن تذهب إلى الحمام بمفردها.

وداخل الحمام كانت والدة «مارجريتا» وتدعى «چولييت» وقد أصرت على أن ينادونها بـ «چوچو». كانت ترتدى باروكة، وبجوار حقيبتها علبة صغيرة من السجائر. كانت آخر مرة تقابلنا فيها فى سهرة فى «يوت كلوب»، كان شعرها أحمر بلون البلح، وهو الآن قرمزى بلون أحمر الشفاه الذى تضعه. ما أن رأتنا عبر المرآة حتى استدارت وسلمت فى عجالة وقالت:

ـ أد إيه جميل! إنتم فين؟ هنا؟

من هذه الجملة القصيرة كانت تهدف إلى معنى كبير وهو:

«بيتكم فى «بوارده»، ودرجتكم من الدرجات الدنيا، بتعملوا إيه فى نادى جلستان المخصص لأهالى «بريم» أصحاب الدرجات العالية؟»

وعندما أخذت أختى نفسًا عميقًا وتقدمت بصدرها إلى الأمام، فهمت الآن أنها ستقوم بغسلها وعصرها ونشرها من خلال ما توجهه إليها من حديث. نظرت أولاً فى المرآة، وعندما تأكدت من تناسق شعرها وضبط مكياچها استدارت إلى والدة «مارجريتا» وسألت بينما كنت أتحرك:

ـ اسمحى لى يا چولييت، هو جوزك على الدرجة الكام؟

رفعت والدة «مارجريتا» حاجبيها على شكل هلال وأجابت:

ـ اسمى «چوچو»، على الدرجة الخمستاشر، ليه؟

ابتسمت «آليس» وقالت:

ـ جميل، ده يبقى لسة باقى له تلات درجات على ما يحصل جوز أختى.

ثم وضعت يدها تحت ساعدى وقالت :

ـ يووه ، أنا اتخنقت من ريحة السجاير ، ياللا يا «كلاريس» .

وبعد خروجنا من الحمام قلت لها :

ـ ليه قلتى كلام مش مظبوط؟ ده جوزها وآرتوش على الدرجة نفسها.

أخرجت يدها من تحت إبطى وأشارت إلى أحد الأشخاص ، وقالت :

ـ أنا اتصرفت بشكل كويس علشان الست المتغطرسة دى ماتسحبش درجة جوزها قدام الناس. لو البروفسور يبطل أوهامه دى كان زمانه خد بيت فى «بريم» زى البنىآدمين ، وماكناش اضطرينا نسمع كل يوم رذالة كل واحد كبر. وبالمناسبة ، سمعتى أنا قلت إيه قدام الباب؟ هاتعزميهم؟

وفجأة ابتسمت ابتسامة عريضة ، وقالت بصوت عالٍ :

ـ سلاااام!

واتجهت ناحية إمرأة لم تسعفنى الذاكرة على تذكرها. لقد سمعت ما قالته أمام الباب ، ولم يكن ضروريًّا أن أسألها :

«أعزم مين» ؟

كان «آرتوش» يتحدث مع كبير الندلاء أمام باب قاعة الطعام ، اتجهت ناحيته ، وأثناء ذلك أطللت برأسى داخل قاعة الاجتماعات ؛ حيث كان بابها مفتوحًا على مصراعيه. رأيت ما يقرب من ثلاثين أو أربعين امرأة تجلسن فى سبعة أو ثمانية صفوف من المقاعد خلف بعضهن وظهرهن للباب ، ثمة امرأة فى مواجهتهن تخطب فيهن من خلف مائدة عليها مفرش من القماش الأخضر السميك منقوش عليه أزهار اللؤلؤ. لقد تعرفت عليها على الفور ، إنها السيدة «نور اللهى» . كنت أتعجب فى كل مرة أراها فيها :

«كيف تقوم بعمل هذا الشينيون بمثل هذا الارتفاع؟»

كان آرمن يقول على شكل الشرائط التى تضعها السيدة «نور اللهى» وسط الشينيون فى شعرها ، والتى كانت دومًا من نوع نسيج فستانها نفسه :

ـ العلامة التجارية لسكرتيرة بابا.

وبينما كنت أنهره :

ـ اتأدب.

كان «آرتوش» يضحك، ويقول :

ـ دى ست محترمة، بيعجبنى فيها إنها مابتتكلمش كتير، وساعات بياخذها الحماس.

قلت «لآرمن» الذى كان يريد جذب شعر آرسينه :

ـ بس.

وأمسكت بيد «آرمينه» التى كانت تتسلل تجاه «آرمن» لتدافع عن أختها.

قال «آرتوش» :

ـ مفيش ترابيزة فاضية لازم نستنى نص ساعة.

ثم نظر إلى «آرمن» وقال :

ـ سمعت إنك عايز تتغلب كام دور فى البينج بونج.

ضحك «آرمن» وقال :

ـ لا، باافكر أكسب .

قفزت التوأمان وقالتا :

ـ اللى يغلب يشترى لنا آيس كريم بعد الغدا.

أمسك «آرتوش» بيد التوأمين، واتجه مع «آرمن» إلى موائد البينج بونج، فقلت وأنا خلفهما :

ـ أنا ها استنى هنا.

لكنهم لم يسمعوا.

رأيت بطرف عينى أمى و«آليس» تتحدثان مع إمرأة وزوجها وكانا من أقاربنا من بعيد، لم تكن لى رغبة فى الحديث مع الزوج ولا زوجته، إنهما عضوان فى إحدى الجمعيات الدينية باسم «أتباع مريم» ، كانا دومًا فى حال الدعوة والإصرار على

مشاركتنا فى اجتماعات الجمعية وكى لا تقع عينى على أعينهما نظرت إلى لافتة الإعلانات بقاعة الاجتماعات «المرأة والحرية ـ محاضرة الأستاذة پروين نوراللهى ـ تبدأ الحادية عشرة والنصف» نظرت إلى ساعتى إنها تقترب من الثانية عشرة والنصف، لا بد أن المحاضرة توشك على الانتهاء الآن.

دخلت القاعة، وفكرت:

«أنا ماكنتش عارفة لغاية دلوقتى إن الاسم الأولانى لسكرتيرة «آرتوش» هو «پروين».

جلست على أول مقعد خال، نظرت إلىَّ إمرأتان، إحداهما مسنة والأخرى شابة كانتا تجلسان على المقعدين المجاورين، وهزتا رأسيهما وابتسمتا. كانت المرأة المسنة تخرج اللب من كيس وضعته بين ركبتيها وتأكله، بينما أخذت المرأة الشابة تمضغ اللبان بشكل سريع. كانت مدام «نور اللهى» تقول:

ـ وأكرر ثانية، إن أول رغبة وهدف للمرأة الإيرانية هو امتلاك حق الانتخاب.

فى آخر مرة كان «جارنيك» و «نينا» ضيفين عندنا بدأ «جارنيك» و «آرتوش» نقاشًا طويلاً، وفى النهاية قال «جارنيك»:

ـ ليه لازم نحشر نفسنا فى الموضوع ده؟

فأجاب «آرتوش»:

ـ هو إحنا إيرانيين ولاّ لأ؟

فأجاب «جارنيك»:

ـ إحنا آرمن ولاّ لأ؟

وقالت «نينا»:

ـ ليه ننتخب؟

كان صوت السيدة «نور اللهى» رقيقًا، وهاهى تختم حديثها:

ـ أذكر فى النهاية أننا جاهدنا كثيرًا فى هذا السبيل، لقد تعالت صيحات عديدة من

حلق المرأة الإيرانية، لكن هذه الصيحات فى الحقيقة لم تكن متضافرة، ولم تكن فى اتجاه واحد، ولم يكن بينها أى تنسيق.

مالت المرأة المسنة وقدمت لى اللب وابتسمت، ابتسمتُ وأشرتُ لها بيدى: «لا»، كانت الفتاة الشابة تركز فى المحاضرة وتهز رأسها مع طرقعة مضغ اللبان، ثم قالت السيدة «نور اللهى»:

ـ والآن، ولكى نحسن الختام، اسمحوا لى أن أقرأ بعض الأشعار.

وتذكرتُ أننى لم أضع الملاءات التى تم كيها داخل الأدراج فى حجرات النوم، وقرأت السيدة «نور اللهى» ما يلى:

ـ استيقظى يا أختاه،

ـ فى العالم الذى تكتب فيه الحسان بدمائهن

ـ قرار حرية الشعب على صفحة التاريخ

لا يكون شرط الأنوثة فقط هو الشفاه الملونة والعين الناعسة.

همست المرأة المسنة فى أذن الفتاة الشابة بصوتٍ سمعتُه:

ـ هو قصدها مين الحسان، إحنا؟

ـ قالت الفتاة الشابة: لأ يا ماما.

ثم تململت فى ضيق من مكانها، ورطنت:

ـ وإنتى تفهمى إيه؟

وظلت المرأة المسنة ثابتة على كيس اللب ثم قالت:

ـ ليه مابافهمش؟ أنا بافهم كويس.

واتحد صوت التصفيق مع صوت خشخشة الكيس. قامت النساء من أماكنهن وتحدثن معًا وقدمن التهانى إلى السيدة «نور اللهى»، واتجه بعضهن إلى باب القاعة، كان شنيون السيدة «نور اللهى» يبدو وسط كل الرءوس أعلى من الجميع، ودعتُ المرأة المسنة وابنتها ثم خرجت.

كان «آرتوش» والأولاد يقفون أمام باب قاعة الطعام، ولا تزال أمى و«آليس»

تتحدثان مع تلك السيدة وزوجها عضوى جمعية «أتباع مريم». أشرت بيدى إلى «آليس»:

ـ «احنا فى المطعم»

وسرت مع «آرتوش» والأولاد ناحية كبير الندلاء الذى كان يشير لنا:

ـ «اتفضلوا».

كان مع «آرتوش» الحق، لقد كانت السيدة «نور اللهى» سيدة محترمة، كنت أعلم أنها متزوجة ولديها ثلاثة أطفال ـ مثلى ـ ورغم ذلك فهى تعمل وتشارك فى الأنشطة الاجتماعية. أما أنا، ماذا أفعل باستثناء القيام بأعباء المنزل؟

رددت على تحية كبير الندلاء، وفكرت:

ـ «إن السيدة «نور اللهى» امرأة محترمة».

كانت قاعة الطعام فى نادى جلستان مزدحمة مثلما هى كالعادة فى جميع أيام الجمع، وكالعادة أيضًا كانت مملوءة بالمعارف. جلست على المائدة التى كانت لحسن الحظ بعيدة عن مائدة «مارجريتا» وأمها وأبيها، وهاهى أمى و«آليس» قد ظهرتا، كانت أمى تقول:

ـ ده كلام فارغ، دول زوجين متفاهمين.

ـ أنا ماقلتش إنهم وحشين، أنا قلت إنهم بيتكلموا كتير.

ـ مقابل كده بيتهم بيبرق من كتر النظافة.

نظرت «آليس» خلسة إلى الأطفال، وقالت:

ـ زى بيتنا؟

وضحكت التوأمان.

طلبنا الأرز مع الكباب، وطلبت ثلاث مرات من «آرتوش» أن يوصى النادل بشى الكباب جيدًا وأن يأخذ هذا البيض.

قالت «آرمينه» و«آرسينه» معًا:

ـ لأ، إحنا عايزين نلعب بالدقيق.

أعطيت طبق الدقيق والبيض الذى كان يتوسطه إلى النادل، قلت:

ـ متشكرين، احنا مش هناكل البيض.

فى أيام الجمع، كانو يضعون على كل مائدة فى قاعة الطعام طبقا عميقا مملوءًا بالدقيق ووسطه عدد من صفار البيض كل واحدة داخل نصف قشرة من قشر البيض. وكان اللعب بالدقيق فى الطبق من الأمور الشيّقة التى يحبها التوأمان. كانتا تضعان صفار البيض على المائدة، ويضطر النادل إلى تغيير المفرش الكتان الأبيض والقماش الأخضر السميك الذى تحته. وكانت أمى تستاء من أكل صفار البيض مع الأرز والكباب.

أخذت «آليس» قطعة من الخبز وطافت بنظرها فى القاعة ثم بدأت الحديث:

ـ إنتى شفتى مراة الدكتور «صالحى فرد»؟

وكان الطبيب «صالحى فرد»؟ ـ رئيس قسم الجراحة بالمستشفى ـ قد تزوج حديثًا، وأتذكر الآن أنه هو الشخص نفسه الذى لوحت له «آليس» بيدها وقبلت زوجته.

ـ رغم شكله الحلو ده تعرفى إتجوز مين؟ بصى لمراته «دلاتاريان»، أنا مش عارفه ليه الناس كلها بتقول عليها شيك؟! وإيه البرنيطة اللى حطاها لى على راسها دى؟ دى عاملة زى قسرية الطفل بالضبط. هى فاهمة إن كل واحدة حطت برنيطة على راسها بقت چاكلين كيندى!

إن المرأة التى كانت تتحدث عنها «آليس» هى والدة أحد زملاء «آرمن» فى الفصل، وذات مرة ضربه آرمن ضربًا مبرحًا لأنه أهان «آرمينه» و«آرسينه» بقوله لهما: «يا جحشة». قالت «آليس» لـ «آرمن»:

ـ إن كنت مش هتأكل السلطة؟ اديهالى.

ووضعت سلاطة «آرمن» فى طبقها ثم نظرت إلى الباب وقالت:

ـ أووووه! «مانيا وفازجن»، بيعملوا إيه هنا هو البصل اتخلط بالفاكهة؟

«ومانيا» هى مدرِّسة الرسم الخاصة بالتوأمين، أما «فازجن هايرابتيان» فهو مدير المدرسة. كانا زوجين شابين ليس لديهما أطفال، يتركز تفكيرهما ومجهودهما على المدرسة وتلاميذها، وكانا يتقدمان نحو مائدتنا، قلت للأولاد:

ـ أقفوا للمدرِّسة ومدير المدرسة.

وكذلك وقف «آرتوش» ، وبعد الاستفسار عن الأحوال دعاهما للجلوس، فقال «فازجن» :

ـ كام دقيقة بس.

ثم جلس وقال :

ــ إحنا ضيوف الأستاذ «خالاتيان» ، وإن ماكانش كده، إيه علاقتنا بنادى جلستان؟!

حاولت «آليس» عدم النظر إلىّ، وقالت :

ـ إيه الكلام ده؟

كانت «مانيا» منهمكة فى الحديث مع أمى و«آليس» وتقوم بالمزاح المعتاد مع التوأمين :

ـ أنتم أختين ولاّ فيه واحدة منكم صورة للتانية؟

ثم نظر «فازجن» إلىّ، وقال :

ـ أنا خلصت ترجمة الكتاب اللى كلمتك عنه لو عندك فرصة علشان تقريه أكون شاكر.

كان «فازجن» و«مانيا» يصدران مجلة شهرية للأطفال باسم «لوسابر» وكم من مرة قمت فيها بترجمة بعض القصص والأشعار لنشرها فيها، وأحيانًا كان يطلب منى قراءة موضوعات المجلة قبل طبعها لإبداء وجهة نظرى فيها، وحينما اتجه الزوج وزوجته إلى مائدتهما، قالت «آرسينه» :

ـ كتاب إيه ياماما؟

وقالت «آرمينه» :

ـ كتاب إيه؟

فى اليوم الذى ذهبت فيه إلى المدرسة بسبب ضرب «آرمن» لزميله، وبعد أن طيبت السيدة «دلاتاريان» خاطر «آرمن» (وكانت رقيقة نحيلة ترتدى تاييرًا صوفيا يميل إلى السواد وتسريحة شعرها على شكل خيار) وبعد طيبت أيضًا خاطر ابنها،

وأجبرناهما كى يعتذر كل منهما للآخر، تحدث «فازجن» عن كتاب اللورد فونتيلروى الصغير وأبدى رغبته فى ترجمته إلى الأرمنية.

قالت «آليس»:

ـ اللورد إيه إيه الصغير؟ وضحكت.

ثم قالت أمى:

ـ «مانيا» دى مالهاش مثيل، مع كل مشاغلها لازم تشوفى بيتها دايمًا مرتب ومنظم زى ما يكون بوكيه ورد، دى بقى اللى يقولوا عليها ست بصحيح.

وضع «آرمن» الطماطم التى فى طبقه فى طبق «آرسينه» فمطت شفتيها ورطنت «آرمينه»:

ـ إنت فاكر إن طبقنا سلة زبالة؟

أخذ «آرتوش» الطماطم من طبق «آرسينه» ووضعها فى طبقه ثم قال:

ـ رغم كل المشاغل اللى شايلها «فازجن» عنده وقت للترجمة؟

ليه ماترجمتيش إنتى الكتاب؟

نظرت للحظات إليه، كان ينظر إلىّ مبتسمًا، قالت أمى:

ـ وهاتجيب وقت منين؟ ده فات أكثر من ست شهور ماغسلتش فيهم ستاير أوضة النوم.

ـ ثم نظرت إلىّ وقالت:

ـ لو بكدب قولى بتكدبى.

قطعت الكباب الخاص بالتوأمين، أى شىء كان فى «آرتوش» يشبه فترة خطوبتنا، ابتسامته أم طريقته فى الحديث؟

ـ ١٢ ـ

كان الأولاد فى المدرسة و«آرتوش» فى العمل وكنت قد رتبت حجرات النوم، وانتهت مهمة تنظيف الغبار، والعشاء على الموقد وعندئذ رن جرس الهاتف.

ـ أنا مااتصلتش بالتليفون قلت جايز لا سمح الله تسألى إنتى عننا.

كانت «نينا».

وما إن بدأت فى التبرير بأننى كنت أفكر فيها منذ عدة أيام، وكنت أريد الاتصال بها لكن الوقت لم يسعفنى إلا أنها قاطعتنى بضحكتها:

ـ ماتقوليش أعذار، أنا عارفة إنك مشغولة، بتدققى فى كل حاجة، وأمك الوسواسة وسوء أخلاق «آرتوش».

من محاسن «نينا» أنها لا تغضب أبدًا، وكانت دائمًا تقول:

ـ أنا بااحط نفسى مكان أى حد وبااشوف إن الحق معاه.

من وجهة نظرها أن الجميع دومًا لديهم الحق، وما من شخص مقصر فى أى وقت قط، وما من شخص سىء الخلق أو لديه غرض ما أو هدف ما، ومع هذا.... مع هذا، لم ذكرت سوء خلق آرتوش؟، لم كان المحيطون بى يعتقدون أن زوجى سىء الخلق؟

غيرت الموضوع وسألتها عن أحوال «صوفى» و«جارنيك»، وكذلك عن «تيجران» الذى تم قبوله فى جامعة طهران. وهى بدورها سألتنى عن أحوال الأولاد وعن «آرتوش» وأمى و«آليس» ثم تحدثت عن نفسها بما يفيد أنها سعيدة بمنزلها الجديد وأن جيرانها ليسوا سيئين:

ـ جارنا اللى جنبنا من هولندا الغربية وعازب، طوله ييجى مترين، ماعندوش عقل ولا رزانة يمكن أكتر منى.

ثم قالت بين ضحكاتها:

ـ بياخد الهولندى ده حمام شمس كل يوم الساعة تلاتة بعد الضهر تحت لفحة

الشمس فى جنينة الحوش، وكل ليلة سبت بتطلب جارتناليهودية اللى قدامنا من «نينا» إنها تنور لمبة الحوش، والجيران التانيين لسة ماتعرفتش عليهم....

الثرثرة هى أحد عيوب «نينا» خاصة فى المكالمات التليفونية، كنت أفكر فى الطعام الموجود على الموقد، فقلت:

ـ «نينا»، الأكل على النار....

ـ فبادرت بقولها يووه معلش، أنا نسيت بااتصل ليه، تعالى عندنا ليلة الخميس وقولى لمامتك و»آليس»، ولا أقولك هااتصل أنا علشان أعزمهم لحسن ـ لا قدر الله ـ أختك تزعل.

وضحكت ثانية ثم قالت:

ـ بنت خالة «جارنيك» ضيفة علينا، جت من طهران من كام أسبوع المسكينة اتطلقت من فترة قليلة وعاوزاكى تشوفيها، دى زيك بالضبط فى شوية من تصرفاتك، ماتنسيش، يوم الخميس، وتعالوا بدرى علشان الأولاد يلعبوا مع بعض، البنتين وحشوا صوفى قوى زى ما يكونوا مابيشوفوش بعض فى المدرسة!

وفى النهاية ودّعنا بعضنا.

وضعت السماعة واتجهت إلى المطبخ لأُقلِّب الطعام وأطفىء الموقد وفإذا بجرس الهاتف يرن، فعدت إلى الدهليز:

ـ أنا ماكنتش متخيلة إنك من الستات الى بيرغوا فى التليفون كتير.

أحد عيوبى أننى لا أستطيع الرد على الناس فى حينه، وحينما سمعت هذا الكلام الغير مترابط بقيت صامتة. بينما استمرت مدام «سيمونيان»:

ـ إنتى قلتى الليلة اللى فاتت إنك هاتبعتى الوِليَّة دى لينا ومافيش حس ولا خبر، أنا ماباحبش اللى مابيوفيش بوعده.

إن عدم ردى على الناس وعدم الاعتراض عليهم له حدود، أخذت نفسًا عميقًا ولففت سلك الهاتف باحكام حول يدى وقلت بصوت أعلى من صوتى المعتاد: ـ

أولاً: «آشخن» مش ولية، دى ست محترمة بتشتغل علشان تعيش. ثانيًا: ماعندهاش تليفون ولازم أستنى لحد يوم السبت لما ييجى دور بيتى. ثالثًا: .....

قاطعتنى :

ـ ما النهاردة السبت

اضطربت وقلت :

ـ اتصلت إمبارح وقالت مش هاتقدر تيجى علشان....

قاطعتنى مرة أخرى :

ـ مش قلتى معندهاش تليفون!

كدت أنفجر :

ـ ابنها اللى اتصل.

صمتت للحظات ثم غيرت نبرة صوتها، وقالت :

ـ طب لو سمحتى ماتنسيش... أنا شايله لك إزازة صلصة حامية.

انعقد لسانى ولم أستوعب تصرفها الذى تحول إلى النقيض، قلت :

ـ هاكلم «آشخن» ، وشكرًا على الصلصة الحامية.

ثم وضعت السماعة، وجعلت أفكر :

«لازم أقول لـ«آشخن»من الأول على الست الغريبة دى اللى هاتروح لها».

ـ ١٣ ـ

كانت مدربة البيانو الخاصة بالأطفال سيدة إنجليزية يختلط فى وجهها البياض بالحمرة، تزوجت من إيرانى وبعد مكوثها لأعوام طوال فى إيران. كانت تتحدث الفارسية بشكل أسوأ منا نحن الأرمن.

سألتْ الأولاد قبل بداية الدرس:

ـ أنتم إديتم رقم تليفونى للست.....الست[١].... إسمها إيه؟ جارتكم

قلت:

ـ «سيمونيان».

وضعت يدها فوق جبهتها التى يغطيها النمش، وقالت:

ـ أووه، «سيمونيان»، دى اتصلت النهارده، دى ست غريبة قوى[٢]، قالت لى تعالى علشان تعزفى على البيانو قلت لها: أنا مش عازفة بيانو، كانت بتتكلم بقلة أدب جدًا.

ورفعت حاجبيها الأشقرين ـ اللذين يتسمان بالرقة ـ وكتفيها النحيلتين، وأشارت بأصابعها ذات الأظافر المطلية باللون الأحمر عدة مرات، ثم أخذت الأولاد إلى غرفة البيانو.

كأننى قمت بعمل سيء، جلست فى حجرة الاستقبال وأنا نادمة، جعلت أنظر إلى الوسادات الكاروهات والستائر المنقوشة بالورود والتماثيل الصغيرة واللوحات الكبيرة والأطباق الفضية صنع الصين وأنتظر انتهاء درس الأولاد بينما أدور فى صراع بينى وبين نفسى:

«وإنتى دخلك إيه؟ إنتى مش مسئولة عن تصرفات الناس التانية الوحشة، آرتوش معاه حق، مش لازم تختلطى بالأسرة دى أكتر من كده».

---

(١) نطقت فى هذه الجملة «هانوم» بدلاً من «خانم» ـ أى السيدة ـ لتعذر تلفظها بحرف الخاء (المترجمة).

(٢) نطقت الجملة «هيلى هانوم عشيبى هشت بدلاً من «خيلى خانوم عجيبى هست» (المترجمة).

وجال نظرى حول الحجرة، إن تنظيف الغبار من فوق كل هذه التماثيل الكبيرة والصغيرة الذى يعلو اللوحات والأطباق يستلزم بلا شك وقتًا طويلاً.

وأثناء عودتنا فى الأتوبيس حاولت أن أشرح للتوأمين لِمَ لا يحب زيارة «إميلى» كثيرًا، قلت:

ــ درس «إميلى» أطول وأصعب من دروسكم، وافتكر إن جدتها مابتحبش خروجها كتير، كل واحد حر فى سلوكه ولازم نحترم ده.

دفعت «آرسينه» بعضًا من شعرها المجعد عن جبهتها وهى تنفخ، وقالت:

ـ بس «إميلى» صاحبتنا، وإحنا بنحبها قوى.

ووضعت «آرمينه» النوتة الموسيقية على مقعد الأتوبيس وأمسكت بيد أختها، وقالت:

ـ هى نفسها كل يوم تيجى عندنا ودايمًا بتقول لنا: ياريت آجى عندكم.فكرت فى «إميلى» المسكينة، كنت أريد أنا أيضًا أن أخلصها من هذا السجن وذلك السجان.

قالت «آرمينه»:

ـ هانروح استور.

وقالت «آرسينه»:

ـ هانشترى شيكولاته سمارتيز؟

ونزولنا فى المحطة القريبة من المتجر، كان الجو بداخله عليلاً ومنعشًا كالعادة، أسرعت التوأمان ناحية صندوق الشيكولاته، وسألنى بائع المتجر:

ـ عربية ولاّ سلة؟

قلت:

ـ سلة لو سمحت.

أخذت سلة المشتريات واتجهت مباشرة ناحية قسم المستلزمات الصحية. ثمة إمرأة تستند إلى عربة اليد الخاصة بها وتنظر إلى صناديق الصابون والكريم، كانت عربة اليد مملوءة بأنواع الشيكولاته «كادبورى»، ابتسمت كل منا للأخرى كانت وكأنها تستعد للتبرير:

ـ أنا باأهادى بيها الطهرانيين اللى ماشافوش الشيكولاته.

وضحكتْ، وضحكتُ أنا كذلك، ثم قالت:

ـ دول طلبوا كمان صابون وكريم إيد، ومش عارفة آخد صابون إيه؟

أخذت ربطتين من صابون «ڤينوليا» ووضعتهما فى السلة، وقلت:

ـ أنا دايمًا باأهادى بصابون «ڤينوليا».

فأخذت أربع ربطات من الصابون ووضعتها فى عربة اليد مع ثلاث علب من كريم اليد «ياردلى» ثم ودعتنى ودفعت عربة اليد بقوة إلى الأمام.

أخذتُ علبة الكريم «ياردلى» ووضعتها فى السلة وقمت بجولة فى المتجر، كما أخذت علبتين من بسكويت «نايس» والذى يحبه «آرتوش»، أخذت كذلك شراب «هالى برانج» للأولاد.

ظهرت كل من «آرسينه» و«آرمينه» وأيديهما مملوءة بالشيكولاته، قالت «آرمينه»:

ـ قلتى لنا نفكرك إنك....

وقالت «آرسينه»:

ـ تشترى العيش واللبن من «ديرى»

قلت:

ـ رجعوا نص الشيكولاته للصندوق.

واتجهنا إلى المحل المجاور للمتجر، أو كما يقول أهل عبدان إلى «ديرى» واشترينا لفائف الخبز واللبن.

حينما عدنا إلى المنزل كان الضيق يتملكنا بسبب حرارة الطقس، وكانت سيارة «آرتوش» فى المرآب، قالت «آرمينه»:

ـ آخ، بابا جه.

وقالت «آرسينه»:

ـ بابا جه، آخ

كان ثمة صوت يعلو من غرفة الجلوس، وضعت «آرمينه» النوتة الموسيقية على مائدة الهاتف، وقالت:

ـ إحنا عندنا ضيوف؟

ـ وما أن جئت لأقول إن مكان النوتة ليس فوق المائدة الخاصة بالهاتف حتى أخذت «آرسينه» النوتة بسرعة، وقالت:

ـ عندنا ضيوف.

فكرت:

«يا ترى مين اللى جه؟ «آليس» عندها شغل طوال الأسبوع وقت العصر، أمى متعودة دايمًا تكون فى المطبخ ولو كان «آرمن» فلازم يكون فى أوضته علشان صوت الاسطوانة جايب لغاية تالت بيت.»

نظرت «آرمينه» إلىّ وقالت:

ـ جايز يكونوا معارف بابا.

قالت «آرسينه»:

ـ بس العربية الكاديلاك الخضرا مش موجودة فى الجراج.

ثم أدخلت يدها فى كيس المشتريات وأخذت واحدة من شيكولاته سمارتيز، ورفعت «آرمينه» يدها إلى ذقنها وكأنها تمسك باللحية، وجعلت تقلد «آرتوش»: ـ

ـ صحيح أنا نسيت، فيه شوية من معارفى جم.

ضحكت «آرسينه»، وما أن نهرتها بقولى:

«اتأدبى».

حتى كتمت ضحكتها.

«شوية معارف»، ثلاثة رجال متوسطو العمر كانوا يأتون أحيانًا إلى منزلنا، لم يكونوا من الأرمن، كانوا يجلسون على مقاعد السفرة ويعربون أكثر من مرة عن شكرهم على الشاى الذى قدمته إليهم، كان «آرتوش» يغلق الباب خلفى، وأظل لمدة ساعتين أسمع صوت همهمات فقط من خلف الباب.

التفتت «آرمينه» إلى أختها، وجعلت تقلد أحد هؤلاء الثلاثة وكان أطول من الاثنين الآخرين ويتحدث بشكل متقطع:

لو ـ س ـ محت ـ هى ـ الـ ـ كا ـ دى ـ لاك ـ مو ـ جو ـ دة ـ فى ـ الـ ـ جا ـ راچ؟

فى المرة الأولى التى جاء فيها هذا الرجل الطويل طلب أن يضع سيارته الكاديلاك الخضراء فى المرآب لأن الشمس تؤثر على لونها، وصار هذا من تصرفه عادة، وكلما أتى إلينا ـ حتى لو كان وقت الغروب ولا وجود للشمس ـ كان يضع سيارته الكاديلاك فى المرآب ويغلق مصراعى الباب. تملكنى الضيق من «آرتوش» لأنه نسى أن يخبرنى بأن لديه ضيوفًا، صحت فى التوأمين:

ـ إغسلوا أيديكم، واعملوا واجب المدرسة.

أسرعت التوأمان إلى حجرتهما، واتجهت أنا إلى المطبخ.

كم من مرة رأيت فيها السيارة الكاديلاك الخضراء أمام محل «شاهنده» تحت وهج الشمس، وحينما ذكرت ذلك لـ «آرتوش»، رفع كتفيه وقال:

ـ ماشى، علشان مفيش جراچ جنب محل «شاهنده»

بدأتُ فى نقل الأشياء التى اشتريتها، لم أكن أعرف أسماء هؤلاء الثلاثة، ولم أكن أرغب فى معرفتها، ذات مرة سألت «آرتوش» بعد انصرافهم:

ـ هو مفيش خطر فى مجيئهم هنا؟

فقال:

ـ ماتقلقيش، إحنا بنتكلم بس.

وضعت الخبز فى الحافظة الخاصة به ورطنت مع نفسى:

ـ دول مابيتكلموش بس.

اتجهت إلى غرفة الجلوس، وبدلاً مما كانت تقول التوأمان «إنهم معارف بابا» رأيت «إميل سيمونيان» فى الغرفة وما أن دخلت حتى وقف ومد يده بالسلام. مددت يدى لكن سرعان ما سحبتها، كانت علبة الكريم على مائدة المطبخ، استفسرنا عن الأحوال وسألت:

ـ تشرب قهوة؟

وإلى أن يتم إعداد القهوة، غسلت يدى تحت صنبور المياه فى الحوض الخاص بغسل الأطباق، ثم فتحت غطاء علبة الكريم «ياردلى» ومسحت يدى به، ثم اتجهت بصينية القهوة ناحية غرفة الجلوس، وفكرت:

ليه «آرتوش» عزم «إميل» عندنا؟

وما أن قال «آرتوش»:

ـ إنتى كنتى عارفة إن إميل لاعب شطرنج شاطر؟

حتى أدركت الإجابة عن استفسارى وتذكرت رحلتنا خلال شهر العسل إلى أصفهان وشيراز ومحاولة «آرتوش» تعليمى الشطرنج طوال ساعات من الصبر والمثابرة لكننى لم أتعلمه.

أخذ «إميل سيمونيان» فنجان القهوة ونظر تجاه النافذة، وقال:

ـ إيه الستاير الجميلة دى؟

أنا التى قمت بتطريز الكنار السفلى للستائر الكتان، وكنت أحبها كثيرًا، لكن ما من شخص قد تحدث فى أى وقت عن الستائر باستثناء أمى التى كانت تقول: ـ «ذوقك زيىّ».

وما أن بدأ «آرتوش» فى توزيع بيادق الشطرنج حتى خرجت من الغرفة وطلبت من التوأمين أن تحضرا كشاكيل الإملاء إلى المطبخ، وطلبت من «آرمن» أن يخفض صوت الجرامافون، وبينما كنت أفكر:

«هاأعمل إيه على العشا».

وإذا «بآرمينه وآرسينه» تدخلان علىّ وهما ثائرتان!

ـ كشكول الإملاء بتاعى مش موجود.

ـ المقلمة بتاعتى كمان مش موجودة.

وجعلتا تدقان على الأرض بأقدامهما، وتقولان:

ـ هوّ «آرمن».

وقلت :

ـ هوّ «آرمن» .

ونهضت من مكانى.

كان باب غرفة «آرمن» مغلقًا كالعادة، وبدلاً من الطرق على الباب حركت مقبض الباب بقوة عدة مرات، وما أن قلت :

ـ افتح...

حتى صاح من داخل الغرفة :

ـ فى دولاب أوضة الجلوس.

قلت وأنا أنظر إلى الباب المغلق :

ـ والله إنت مريض.

واتجهت إلى غرفة الجلوس، رفع «إميل» رأسه، ثمة سلسلة ذهبية لطيفة تظهر من بين أزرار قميصه المفتوح، فتحت باب دولاب الأطباق، قال «إميل» موجهاً حديثه إلى «آرتوش» :

ـ هو كان فى إيه النهارده؟ الناس كلها مشيت بدرى.

قال «آرتوش» وهو ينظر إلى رقعة الشطرنج ويلعب فى لحيته :

ـ كان فيه محاضرة، إنت ليه ماجيتش.

ـ محاضرة؟

ـ «بيجوف» قال محاضرة.

ـ «بيجوف» سفير الاتحاد السوفييتى.

ـ آاه!

أخذت كشكول الإملاء والمقلمة من على الأطباق الموجودة داخل الدولاب، وعدت إلى المطبخ، وبينما كنت أقوم بتصفية المكرونة للعشاء حتى دق الجرس، كانت «إميلى» ، لقد أحضرت رسالة من جدتها تفيد بأنهما تنتظران والدها على العشاء.

قفز «إميل» من مكانه، وقال:

ـ أنا ماأخدتش بالى من الساعة.

كان يشبه ابنته تمامًا حينما جاءت الجدة للسؤال عنها فى المرة الأولى. أما شكل «آرتوش» فكان شبيهًا بالطفل الذى أخذوا من يده اللعب، قالت التوأمان فى توسل:

ـ خليهم معانا على العشا.

ونسيتُ مراعاة حدود الاختلاط والكف عن سماع كلام الأولاد وقلت لـ «إميل سيمونيان»:

ـ ليه ماتفضلش معانا على العشا؟ أنا هااتصل بوالدتك.

وكرر «آرتوش» الدعوة، وأخذت التوأمان يدى وسحبتاها ناحية الهاتف، وكان «آرمن» يستند إلى إطار باب غرفته.

لم تبد «الميراسيمونيان» موافقتها على بقاء ابنها وحفيدتها فقط، بل وافقت كذلك على مجيئها هى أيضًا. وبعد هذه الموافقة السريعة غير المتوقعة قفزت التوأمان من السعادة وعادتا مع «إميل» و«آرتوش» إلى الشطرنج.

وفكرت مع رؤيتى ابتسامة «إميلى»:

ـ «أد إيه هى بنت بريئة».

كان ظهرى «لآرمن» ولم أر إن كان سعيدًا أم لا.

ـ ١٤ ـ

كان كل من «إيشى» و«رابونزل» يجلسان القرفصاء على السرير، قالت «آرمينه»:

ـ إنتى ماقلتيش لينا، بس احنا فهمنا فى الآخر ليه جدة «إميلى» فضلت صغيرة.

قالت «آرسينه» بشكل جاد للغاية:

علشان مااتطّعمتش.

ففى كل مرة يحين فيه موعد تطعيم التوأمين تكون الجملة التالية جزءًا من رجائى وتهديدى وتبريرى لهما:

ـ لو مااتطعمتوش هاتفضلوا صغيرين طول العمر.

ـ وغلب «آرتوش» الضحك لمدة نصف ساعة بعد أن قصصت عليه ما حدث، جلست بجواره وقلت:

ـ مدام «سيمونيان» ماتسألش عن الدكتور چايكل ومستر هايد، لما تفكر فيها على إنها أد ايه مخلوقة أنانية ومفزعة تروح عاملة تصرف يعجبك على العكس تمامًا، دى حكت حكايات حلوة كتير، ومانبعدش عن الحق، عزفها على البيانو مفيش فيه كلام.

بعد العشاء، قامت «إميلى» والتوأمان أولاً بالعزف على البيانو، ثم قامت مدام «سيمونيان» بعزف التدريبات الصعبة على الأطفال، ثم عزفت كل لحن كانوا يطلبونه منها، وأخيرا عزفت بعض الألحان الأرمنية القديمة. أظن أن «آرمن» لم ينتبه حتى الآن إلى أن قدمى مدام «سيمونيان» لم تصلا إلى دواسة البيانو. تثاءب «آرتوش» وقال:

ـ هُمَّ مش وحشين، ولعب «إميل» الشطرنج مفيش فيه كلام.

ـ نقاشكم السياسى وصل لحد فين؟

شبك يديه خلف رأسه، وقال:

ـ ما وصلش لحاجة، (إميل بيسبح فى عوالمه).

التقطت قشر الفستق من على السجادة، وقلت:

ـ عوالم إيه؟

أنزل يديه من خلف رأسه وراح يتحسس بها لحيته وقال:

ـ اللى أنا عارفه القصة والشعر والحاجات اللى زى كده.

جعلت أنقل قشر الفستق بين هذه اليد وتلك، كانت مدام «سيمونيان» تقول:

ـ رغم إنى حاولت كتير لكن ماتعلمش البيانو، بس فى المقابل. بدأ فى قراءة الكتب وكتابة الشعر وهو ماكنش لسه راح المدرسة.

ـ ألقيت بقشر الفستق فى منفضة السجائر، وقلت:

طب إيه المشكلة فى قراءة الكتب؟

مدد قدميه فوق المائدة المواجهة للفوتيه ونظر إلى شاشة التلفاز المغلق، وقال:

ـ مفيش مشكلة، بشرط إن يكون ليها فايدة، بتوضح الطريق، بتقدم شىء لعقول الناس، ماتكونش بس للتسلية، كأن «إميل» مش عايش فى العالم ده!

ـ لففت خصلة من شعرى حول إصبعى، وقلت:

ـ هو كل اللى يحب قراءة الكتب وكتابة الشعر يبقى مش عايش فى العالم ده؟

تثاءب وقال:

ـ عمر الشعر ولا القصة ما بيأكلوا عيش ولا يشربوا مية، بالمناسبة، مدام «نور اللهى» قالت إنها عايزاك وإنها هاتتصل بيكى.

ما شأن مدام «نور اللهى» بى؟ كانت مدام «سيمونيان» تقول:

ـ فيه مجلة مهمة جدّا نشرت شعر إميل فى أعدادها، وفيه قصة من قصصه أخدت جايزة.

ما شأن مدام «نور اللهى» بى؟

قال «آرتوش»:

ـ ماعرفتيش فى الآخر مين السبب فى اللى حصل «لإيشى ورابونزل»؟

ـ بعد انصراف آل «سيمونيان» اختفى كل من «إيشى ورابونزل» ، وساورنا جميعًا الشك ـ كالعادة ـ فى «آرمن» ، لكنه ـ على عكس عادته ؛ حيث كان يبتسم فى البداية ابتسامات ساخرة ثم يعترف فى النهاية بمكان اخفاء اللعب ـ كان جادًا هذه المرة لدرجة أن الدمع أخذ يترقرق فى عينيه ، وبينما كان يقسم :

ـ والله ، والمسيح ، والسيدة مريم أنا ما اخدتهمش.

ـ حتى عثر «آرتوش» عليهما تحت نافذة غرفة التوأمين فى الفناء.

ـ دفعت خصلة الشعر التى كنت ألفها حول اصبعى ـ خلف أذنى وقلت :

ـ مااعتقدش إن دى عملة «آرمن» .

ـ أغمض «آرتوش» عينيه واتكأ على مسند الفوتيه ، بينما نظرت على شاشة التلفاز السوداء وقلت :

ـ يعنى ممكن تكون دى عملة البنت الصغيرة؟

ـ فتح «آرتوش» عينيه ووقف ثم مد ذراعيه وهو يتثاءب وقال :

ـ هاتطفى المصابيح ولا أطفيها أنا؟

قلت :

ـ هااطفيها أنا.

حينما كنت أرفع مائدة العشاء كان «إميل يقول» :

ـ كلاريس ، تحبى أساعدك؟

ـ هل ما كان يروق لى هو عرضه للمساعدة؟ أم مناداته لى باسمى الأول؟ أطفأت مصباح غرفة الجلوس ، وقبل توجهى إلى غرفة النوم وضعت زجاجة الصلصة الحريفة التى أحضرتها مدام «سيمونيان» فى قاع أحد الصناديق بالمطبخ ، وكان هذا الصندوق يختص بالأشياء التى قلما أحتاج إليها.

ـ ١٥ ـ

جلست «آليس» على مائدة المطبخ وكان شعرها قد تم قصه بشكل مدرج حتى نهاية أطرافه، كانت رأسها كالمدفع تمامًا. قالت:

ـ أنا جيت من الكوافير على هنا على طول.

فبادرتها بقولى:

ـ شعرك بقى حلو قوى، انت رحتى عند «آنجيل»؟

فابتسمت وقالت:

ـ لا يا ماما، «آنجيل» مابتعرفش تقص الشعر، انا رحت كوافير «شمشاد»، أصله جاب كوافير جديد من طهران.

ـ ووقعت عيناها على الأطباق التى تم غسلها ليلة أمس وكانت توجد فى المطبقية، فغضبت وسألت:

ـ هو كان عندك ضيوف؟

كانت تسأل وكأنها تقول:

ـ إنتى قتلتى حد؟

بدأت فى نقل الأطباق، وسألنى جانبى الحكيم للمرة الألف:

«مش لازم تبررى لها؟ قولى أيوه وبس، قولى كان عندى ضيوف وبس».

وضعت آخر ملعقة، فى الدرج وأغلقته واستدرت ناحية «آليس» وقلت:

ـ أيوه، كان عندى ضيوف.

وذكرت من كانوا، فعبست وقالت:

ـ ليه ما قلتى ليش؟

وبينما كنت أفكر فى أننى لا يجب أن أبرر ما حدث، ألهمنى خاطرى المعين بالتبرير التالى:

ـ كل حاجة تمت بشكل مفاجىء، وبعدين إنتى إمبارح بالليل كنتى فى المستشفى.

ـ وعلى عكس عادتها، حيث كانت ترطن فى غضب وتبدأ فى الشجار، قامت هذه المرة بأخذ تفاحة من سلة الفاكهة دون أن تتفوه بكلمة، وتضايقت من نفسى متسائلة: «أنا ليه بررت ليها تانى؟»

وتعجبت من «آليس»: «هى ليه ماعملتش الدوشة بتاعتها؟!»

جلست أمامها، أكلت التفاحة عن آخرها ثم قالت:

ـ ياريتك كنتى قلتى لهم ييجوا يوم الخميس بالليل بيت «نينا».

ولكى أحافظ على هدوئى، حاولت أن أفكر فى شىء آخر، فنظرت إلى المزهرية الموجودة خلف النافذة، إننى لم أستطع فى أى وقت قط أن أفهم أختى إنه لا يصح أن تأخذ معها ضيفًا إلى ضيافة أخرى.

وهذه المرة لم أستطع إقناعها أيضًا. رفعت حاجبيها قائلة:

ـ إيه الكلام ده؟ مفيش فرق بينك وبين «نينا»، لكن كويس، مش مهم قوى، أنا أخذت قرارى؟ عندك سجاير؟

ـ قمت دون أن أنطق بكلمة وأحضرت علبة السجائر ـ إذن، لقد أخذت أختى قرارها بأن تصير نحيفة، أشعلت الكبريت لها، أخذت نفسًا من السيجارة بشكل ينقصه الخبرة ثم نفثت دخانها وقالت:

ـ طالما إن ماما مش موجودة علشان تتدخل فى الكلام، أنا بقى باقول مش مهم العيوب أوالسلبيات اللى عند «سيمونيان»، بجد أنا اتضايقت من الوحدة وذَنّ ماما، ومش مشكلة إنه كان متجوز قبل كده، واللى إنتى قلتيه كان مظبوط، «الإنسان مابيقدرش ياخد كل اللى هوَّ «عايزه»، وبعدين مش من أسرة وحشة، وكمان متعلم، إنتى فين؟ إيديك إتلسعت، مذهولة من ايه؟

ألقيت بفزع بعود الكبريت ـ وكان قد احترق عن آخره ـ فى منفضة السجائر لقد قالت أمى عبر الهاتف:

ـ لو «آليس» جت ماتناقشيهاش فى أى حاجة تقولها، المرة دى دماغها طقت.

خمنت أنهما لابد وقد تشاجرتا، قد فهمت الآن، وتذكرت هذه المزحة:

«قال رجل: أنا قررت أتجوز بنت الملك. فقالوا له: والملك مش هايديك بنته. فقال: بس أنا قررت، وبكده تم حل خمسين فى الميه من المشكلة».

وقد قرت أختى الزواج من «إميل سيمونيان»، ومن وجهة نظرها أن المشكلة وقد تم حلها بنسبة مائة فى المائة.

أخذت «آليس» تفاحة أخرى وقالت:

ـ لما تموت أمه هااورث الجواهر بتاعتها. وقهقهت ثم قالت:

ـ مشكلته الوحيدة البنت، بس إنتى قلتى إنها مش وحشة، أنا ماباحبش أبدًا تربية العيال، بس انتى هاتساعدينى.

ثم نهضت من مكانها بعد أن قامت ـ على حد قول أمى ـ بقص كل شىء وحياكته، ثم قالت:

ـ طيب أنا هامشى، بس أنا عايزة جزمة كحلى للتايير الأبيض.

كانت رأسى تدور، أظن أننى لم أرد على تحيتها عند الوداع بينما مضت وهى مبتسمة. وبينما كنت متجهة ناحية الدهليز للاتصال بأمى إذا بالهاتف يرن، وبدأت أمى:

ـ أنا عارفة، أنا عارفة، من إمبارح لغاية دلوقتى وأنا باازن فى ودانها لكن مفيش فايدة، أفضل إنها تشوف الراجل التافه ده فى أسرع وقت ممكن، يمكن ربنا يهديها.

وحينما وضعت السماعة كان الضيق يتملكنى من أمى، بأى حق كانت تقول «الراجل التافه ده» دون أن تراه أو تعرفه؟

جلست خلف مائدة المطبخ واتجهت بيدى ناحية رأسى، لففت الشعر حول إصبعى ثم حللته، ولففته ثم حللته لم يكن تخيل اللقاء الأول بين «آليس» و«إميل سيمونيان» أمرًا صعبًا.

سوف تبدى أختى نفسها فى أبهى زينة، وتقوم فى النصف ساعة الأولى بتقديم

تقرير مفصل حول حسن خلقها وتعليمها ومكانتها الاجتماعية، كما تقوم بإبداء وجهات نظرها فى كل شىء بداية من الطهى وإدارة المنزل حتى السياسة والاقتصاد العالمى، ثم تتحدث عن كثرة خطابها، وبالتأكيد ستظهر إنها رفضتهم جميعًا، ثم تذكر فى النهاية سفرها إلى إنجلترا.

صار شعرى الناعم كالسوسته الملتوية، رفعته خلف أذنى ثم أمسكت بخصلة أخرى بين يدى.

لقد كان زواج «آليس» من أكبر أمنياتى، كم من مرة اقترحت عليها بنفسى بعض الأشخاص، لكنها كانت تبدو وكأننى أقدم لها كوبًا من السم، حيث تعبس وتقول:

ـ ياااه! هو أنا متعوسة قوى كده بالدرجة اللى تخليكى تدورى لى على عريس؟

فى كل مرة كنت ألف فيها شعرى حول إصبعى كانت «نينا» تقول لى:

ـ هو إنتى لويس السادس عشر؟ شيلى إيدك عن شعرك الغلبان ده.

ـ رفعت يدى عن شعرى ونهضت من مكانى وتجولت فى الحجرات أبحث عن حل وحينما لم أجد حلاً نذرت:

«لو رجعت أختى لعقلها هااقدم غدا وعشا يوم كامل فى بيت المسنين».

ـ ١٦ ـ

حينما عاد الأولاد من المدرسة كانت إميلى برفقتهم، وسألتها قبل أى شىء:

ـ قلتى لجدتك قبل ما تيجى؟

هزت رأسها وألقت ببصرها على الأرض، وكان هدوؤها هذا يستفزنى.

قالت «آرمينه»:

ـ إحنا رحنا بنفسنا وأخدنا الإذن من جتها.

وقالت «آرسينه»:

ـ «إميلى» عندها مسائل صعبة عليها فى الرياضة، فجت علشان «آرمن» يساعدها.

وبينما كان نظرى يجول فى دهشة تجاه ابنى حتى قال:

ـ أنا راجع دلوقتى.

وجرى إلى حجرته. قلت فى نفسى:

«زى ما يكون النهاردة يوم الأحداث العجيبة».

فآرمن يكره مادة الرياضيات بعد مادة الإنشاء أو بالقدر نفسه وحينما قالت الطفلتان:

ـ احنا عندنا إيه على وجبة العصر؟

تذكرت وجبة العصر، وقلت متحججة:

ـ كان عندى شغل، ماكانش فيه وقت علشان أعمل حاجة.

مالت رأسا التوأمين واتسعت عيونهما، وقالتا:

ـ شغل ايه ده اللى كان عندك؟

ـ ليه ماكانش عندك وقت؟

قلت بلا صبر:

ـ فيه عيش وجبنة، كلوا من غير ما تسألوا.

تراجعتا خطوة ونظرتا إلى بعضهما، وضعت يدى فوق جبهتى واستندت إلى الحائط وأغمضت عينى. تقدمت «آرمينه» وأمسكت بيدى وقالت:

ـ إنتى تعبانة؟

ـ أمسكت «آرسينه» بيدى الأخرى، وقالت:

ـ إنتى تعبانة؟

كم كنت أريد أن أقول: «أيوه، تعبانة». ولم تكن هناك فرصة كى أسأل نفسى: «ليه أنا تعبانة؟» حيث رن الجرس فسحبت يدى من يد التوأمين واتجهت ناحية الباب وقلت فى نفسى:

«اللهم اجعله خير»، وكأننى كنت أتوقع حدثًا عجيبًا آخر.

فتحت الباب، وجال بخاطرى: «أنا بقيت عاملة زى آليس فى بلاد العجايب». لو كان هذا فى وقت آخر لكان قد غلبنى الضحك من ذكر اسم بطل القصة الصغير مع أختى، لكننى لست فى وقت آخر، كما أننى متعبة، لذا لم يغلبنى الضحك.

كان عامل الكهرباء بالشركة قد جاء ليصلح مصابيح الفناء. كان شابا لم أره حتى ذلك الوقت، كان نحيفا للغاية وعلى وجنته وحمة كبيرة، ذهبت معه إلى الفناء الخلفى ثم عدت كى يجرب المصابيح واحدًا واحدًا، ومع كل مصباح كان يتوقف ويتحدث عن ظروف التحاقه بالعمل مؤخرًا فى شركة النفط، وأنه قرر الزواج بعد أن تحسنت أحواله المادية، وأن أمه قد خطبت له ابنة خالته التى كان يريدها منذ الطفولة. وفى النهاية استنتج أن أحد المصابيح به ماس كهربائى وهذا ما كنت أعرفه، ثم قال:

ـ الفيوز اللى هنا عطلان، ياريت يكون فيه واحد تانى.

ـ كنت على يقين من أن لدينا فيوزًا آخر، لكننى لما بحثت عنه فى صندوق العدة لم أجده. من المؤكد أن «آرمن» أخذه ثانية، طرقت باب حجرته ودخلت ثم قلت:

ـ الفيوز عندك؟

كان يجلس مع «إميلى» على المكتب وكل منهما يؤرجح قدميه، وسرعان ما أنزلا أقدامهما ثم قال فى ارتباك:

لأ، مش عندى.

إتجهت إلى الفناء وأنا أفكر:

«ايه المذاكرة العجيبة دى؟!»

قال عامل الكهرباء:

ـ مش ممكن تستلفيه من الجيران؟

كانت السيدة «رحيمى» فى طهران، ولا بد أن زوجها لن يكون متواجدًا فى المنزل فى هذا الوقت من النهار، كما أن معرفتى بالجيران الآخرين ليست بذلك القدر الذى يسمح لى أن أكشف وجهىوأستدين منهم شيئًا. قلت:

ـ حاضر استنى شوية.

عبرت الشارع ودققت جرس منزل آل «سيمونيان»، لا بد ان «إميل» لم يعد حتى الآن من الشركة، دعوت الله ألا تكون أمه فى حالة من الضيق وأن يكون عندها فيوز فتح «إميل سيمونيان» الباب، وأحضر الفيوز وجاء بنفسه معى قائلاً:

ـ جايز عامل الكهرباء يحتاج لمساعدة.

ـ لا أدرى، لم لم أعترض على مجيئه ولو حتى على سبيل المجاملة، ولم يدر بخلدى كذلك عدم وجوده فى الشركة فى هذا التوقيت، شعرت أن حالى صار افضل، لقد قالت «آليس» شيئًا، حقًا، إنها لم تكن حمقاء بذلك القدر.

ـ ١٧ ـ

اكتشف «إميل» عطل التوصيلة أسرع من عامل الكهرباء، وطوال الفترة التى كان يقوم فيها بإصلاح الأسلاك كان عامل الكهرباء يقف دون عمل يتحدث عن عرسه وعن إمكانية حصوله على منزل فى منطقة «بهمنشير» أو فى منطقة «فيروز آباد» ويتمنى من الله أن يذهبا للزيارة فى مشهد بعد العرس. وفى النهاية جمع عدته وقال مبتسمًا وهو يهم بالانصراف:

ـ ليه بتتصلوا بينا وانتم عندكم جار زى الباش مهندس؟

ناديت عليه بينما لم يكن قد بلغ الباب المعدنى، وقلت له:

ـ استنى.

ـ وجريت داخل المنزل، وفتحت دولاب المطبخ وأخذت علبة ثم عدت إلى الفناء وقدمتها إلى عامل الكهرباء، نظر إلى العلبة وقال:

ـ شيكولاته إستور؟

ولمعت نظرته، فقلت:

ـ خدها لعروستك.

شكرنى فى سعادة وانصرف، نظر «سيمونيان» إلىّ، كانت يداه قد اسودتا وعلاهما التراب، دعوته كى ندخل ليغسل يديه، واثناء غسل يديه أعددت كوبين من مشروب الـ«ڤيمتو» وكنت قد اشتريته من سوق الكويتيين، ولم يكن يحبذه شخص غيرى فى المنزل. وعندما جاء إلى المطبخ نظر حوله، ثم تشمم يديه وقال:

ـ أد إيه ريحة الصابون ده جميلة! أد إيه المشروب ده جميل! أد إيه المشروب ده لونه حلو!

لا ادرى لما تذكرنى رائحة صابون الـ«ڤينوليا» بأبى وبدهليز منزلنا الخافت الإنارة فى طهران! جلس على المائدة ونظر إلى النافذة، وقال:

ـ عملتى الرف ده بنفسك، مش كده؟ شباك بيتنا ما لوش رف زى ده.

جميع نوافذ المنازل فى «بوارده» تخلو من حواف للزرع. حينما جئنا حديثًا إلى عبدان وكنت حاملاً فى «آرمن» شيد السيد «مرتضى» حافة للزرع لى على نافذة المطبخ.

ارتشف «إميل» رشفة من المشروب وانتظرت أن يقول: «لذيذ» لكنه لم يقل، كان نظره لا يزال على النافذة وهو يقول:

ـ زى ما تكون كده أزهار البسلة دبلانة شوية!

لقد سحب السيد «مرتضى» يديه من فوق الحافة التى كانت لا تزال مملوءة بالتراب والجص الأبيض وقال:

ـ أزهار البسلة اللى الإنسان بيفقد وعيه من ريحتها مش هتطرح هنا.

ـ لم أكن أعلم ما هو شكل زهرة البازلاء ولم أكن قد سمعت عن اسمها حتى ذلك الوقت، وبعد أسبوع أو اثنين من إنجاب «آرمن» جاء السيد «مرتضى» فى يوم لم يكن من المقرر ان يأتى فيه، وأخرج مزهرية من صندوق دراجته ووضعها فى الحافة ونقل النبات وقال:

ـ زهرة البسلة، هدية مش قد المقام.

كانت هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها أزهار البازلاء الصغيرة ذات اللون الأزرق والوردى والأبيض. من أين عرف «إميل» اسم هذه الأزهار؟! قلت:

ـ لازم أغير تربتها.

ارتشف المشروب وقال:

ـ أنا زرعت زهرة البسلة فى الحوش فى «مسجد سليمان»، ووصيتهم يجيبوا لى سماد لجنينتنا وجابوه. وأنا اللى كنت باغير التربة بتاعتها.

قلت:

ـ ده شغل جناينى الشركة.

وضع الكوب على المائدة، واشتبكت السلسلة التى تحيط برقبته بزر القميص فأبعدها عن الزر، وقال:

أنا بااحب أتعامل مع التربة والزهور والأعشاب، مشاهدة الشيء اللى بذرتيه بنفسك وهو بيكبر بيحسسك بإحساس كويس، مش كده؟

واستقرت ابتسامة حمقاء فوق شفتى، ابتسم وقال:

ـ أكيد أنا ماعنديش خبرة زيك فى رعاية الزهور.

وحينما رأى علامة الاستفسار فى نظرتى، قال:

ـ أنا سمعت من التوأمين إنك إنتى اللى زرعتى بنفسك الورد اللى جبتيه لأمى الليلة اللى فاتت.

شعرت بالخجل واحمَّر وجهى، هل تملكنى هذا الشعور من حديثه؟ أم لأننى لم أعتد أن يثنى شخص على ما أقوم به؟ سألنى:

ـ حضرتك كنتى عارفة عامل الكهربا؟

مرة أخرى يقول «حضرتك»، قلت:

لأ، دى أول مرة أشوفه فيها، ده اشتغل فى شركة البترول من كام يوم.

نظر إلى الصليب المدلى من رقبتى، وقال:

ـ طب إنتى عرفتى منين إنه هايتجوز؟

عدلت الصليب الذى كان مائلاً، وقلت:

هو اللى قال لى بنفسه.

نظر إلى زهور البازلاء، وقال:

ـ أنا عارف ليه الناس كلها بتحب تتكلم معاكى، الكلام معاكى راحة. ثم نظر إلىّ وقال:

ـ زى ما يكون الواحد يعرفك من سنين طويلة.

وصلت كل من «آرسينه» و«آرمينه» وهما تقفزان وتهللان:

ـ خلصنا واجب المدرسة.

ـ هى «إميلى» لسة ماخلصتش الواجب؟

تذكرت توًا إنه لم يصدر صوت من حجرة «آرمن» منذ أكثر من ساعة، وبينما

كنت أنهض من مكانى فإذا بـ«إميلى» تدخل وهى تحمل الكتاب والكراس تحت إبطها، تعلقت «آرمينه» و«آرسينه» بساعديها وقالتا:

ـ نلعب لعبة الضيوف؟

ـ ولا لعبة الكبة؟

ـ نظرت «إميلى إلى أبيها، ارتشف «إميل» آخر رشفة من المشروب ثم وضع الكوب على الصينية، وقال:

ـ تيتة لوحدها، الصداع هايجيلها تانى، جايز يكون أحسن لو....

قاطعت «آرمينه» حديثه:

ـ كويس، الجدة هاتكون مستريحة أكثر لو «إميلى» بقت عندنا.

وقالت «آرسينه»:

ـ يبقى كويس لو خليتك إنت كمان هنا، الجده كده هاتستريح أكتر.

ـ ضحك «إميل» ونظر إلىّ، وقال:

ـ هىّ مش قلة ذوق لو أزعجناكم يومين ورا بعض؟

كنت واثقة من أنه يقول هذا على سبيل المجاملة، قلت:

ـ خليك، و«آرتوش» دلوقتى هايظهر.

ولم أكد أتم جملتى حتى علا صوت حشرجة من الشارع يشبه صوت «شارلوت» قفزت كل من «آرسينه» و«آرمينه» من مكانهما وقالتا:

ـ خليك، خليك لو سمحت. ثم نظرتا إلىّ، فقلت:

ـ انا هاتصل بمدام «سيمونيان».

وأدركنا بسرعة أن إذن «إميلى» ليس فقط هو الذى بيد الجدة بل إذن والدها كذلك. وبينما كنت أجيب على تحية «آرتوش» كانت التوأمان تقفزان وتهللان وأنا أفكر فى رد فعل «الميرا سيمونيان» وكان صوتها متعبًا متضايقًا وهى تقول:

ـ طالأمر مالوش دعوة بىّ، وهما عارفين كده كويس.

ثم وضعت السماعة.

بدأت فى إعداد وجبة للعشاء وكانت عبارة عن «الكتلت»[1] مع البطاطس كانت أحداث الظهيرة وقرار أختى العجيب قد قل تأثيرهما علىّ، لم تكن هذه هى المرة الأولى التى تتخذ فيها «آليس» هذه القرارات العجيبة، ربما لم يكن الدكتور «أرمنى» فى المستشفى؟ أم أن شقيقته قد أتت من طهران؟ ربما كان السبب فى سوء حالى هذه المرة...، قفز جانبى الفضولى قائلاً: هو «إيه الى حصل»؟ صببت الزيت فى المقلاة. ربما كنت، .....لا أدرى. كان «إميل» و«آرتوش» يلعبان الشطرنج فى غرفة الجلوس ويعلو صوت جرى الأطفال من الفناء. كنت اقلب قطع «الكتلت» وأنا افكر فى «الميرا سيمونيان»، كانت أمى تقول:

ـ كان بيت أبوها زى القصر، كان فيه حوالى خمسين أو ستين أوضة، وجنينة واسعة، وحشم، وخدم، ماتعديش، والدادة اللى انتحرت كانت انجليزية، وكانوا بيقولوا إن الست دى كان ليها عشاق كتير رغم إنها كانت أزعة سواء قبل زواجها أو بعده، وكان الأوروبيين الجمال اللى بيحبوا أصفهان بيشتاقوا جدّا ليها ولعزومتها.

ـ قشرت البطاطس وفكرت: «لازم كانوا بيبالغوا، فمع طولها ده....» وبينما كنت أحاول تخيل مدام «سيمونيان» فى شبابها فإذا «بآرمن وإميلى يدخلان المطبخ وهما يلهثان ويتصببان عرقًا. أحضر «آرمن» زجاجة ماء من الثلاجة، وصب الماء لـ «إميلى» أولاً ثم لنفسه. كان شعر «إميلى» ملتصقًا بجبهتها وعيناها تبرقان، جال بخاطرى:

«لو كانت الجدة فى شبابها تشبه حفيدتها دلوقتى...»

وصنعت زجاجة الماء ـ التى تركها «آرمن» فوق المنضدة فى الثلاجة، وقلت:

ـ ..... جايز كلام الناس كان حقيقى

وضعت البطاطس فى الزيت المقدوح. كانت أمى تقول:

الحفلة اللى عملها أبوها المسكين لفرح بنته ماحصلتش، الفرقة كانت من طهران والطباخ كان فرنساوى، وإشترى الخمرة المعتقة من ليون، وعزم الناس كلهم من أول أصحاب النفوذ فى البلاط لغاية السفرا الأجانب.

---

(١) طعام عبارة عن خليط من البطاطس المسلوقة والخضروات يعد على هيئة أقراص وتقلى فى الزيت. (المترجمة).

قلبت البطاطس وفكرت :

« بعد الحياة اللى وصفتها أمى دى أد إيه يكون بيت « بوارده » حقير » .

وتذكرت غرف المنزل الخاوية خافتة الإنارة ، والمفرش ، ومناديل السفرة الكتان التى كانت جميلة فى وقت ما ، ومن المؤكد أيضًا انها كانت غالية الثمن ، تذكرت تلك الملاعق والشوك الفضية التى كاد يكسوها السواد ، وكذلك الأطباق الصينى ذات الحواف ، والشمعدانين اللذين يتفرعان إلى عدة فروع ، فهما فقط اللذان ظلا محتفظين بجلال تلك الأعوام البعيدة ورونقها ، تذكرت كذلك الدولاب الخشبى.

وقفت أمام البطاطس كى لا تحترق ، وجعلت أتخيل :

كان إمتى آخر مرة فرشت فيها « الميراسيمونيان » المفرش الكتان على الترابيزة؟ كان فى بيتها فى كلكتة ، كانت فى شقتها فى باريس اللى قالت إنها قدام كنيسة النوتردام؟ »

تذكرت :

« كان المفرش نازل على الأرض من كل ناحية ، إذن هُوَّ كان لترابيزة أكبر ، جايز لترابيزة تسع إثنا عشر شخص ، ولازم كراسيها كانت بمساند عالية قطيفة. وصاحب العزومة كانت أكيد على سنجة عشرة بشعرها الأسود الطويل وفستانها اللى بياقة وجايز كانت مقلوبة ، وكان الحلق مدلدل من ودنها وعلى رقبتها عقد ماس ، وفى إيدها كاس كريستال محفور بتقربه لشفايفها الحمرا. أكيد كانت عينيها السودا بتلمع زى عين حفيدتهاوهى بتشرب المية من شوية » .

ومع صوت « إميل سيمونيان » وهو بيقول :

ـ إيه الريحة الجميلة دى !

خرجت من تخيل شكل ضيافة أمه فى شبابها ، ونظرتُ إلى البطاطس التى كانت تحترق ، وصحت :

ـ يووووه !

ودون تفكير ، رفعت المقلاه الساخنة بيدى ووضعتها فوق المنضدة وما أن تركت المقلاة حتى شعرت بلسعتها. إن لسع يدى أثناء الطهى أو الكى هو أحد أمورى المعتادة ،

لقد اعتدت على الألم والإحتراق، ونادرًا ما كنت أتأوه منهما، لكننى الآن لم أستطع منع تأوهى فتصببت عرقًا.

صاح «إميل»:

ـ إيه اللى عملتيه فى نفسك؟

وأمسك بكتفى وسار بى نحو المائدة وسحب أقرب مقعد لى، وقال:

ورينى ـ ورينى!

جلستُ على المقعد، لم تحدث بصيغة الاحترام ثانية؟ نظرت إلى كفى يدى، كانا يميلان إلى الحمرة تدريجيًا، صب الماء فى الكوب وقربه إلى فمى وقال:

ماتقلقيش، هااخففها.

ثم وضع الكوب على المائدة وبادر بالخروج من المطبخ. لقد تحدثت بشكل عادى هذه المرة.

والشىء الذى كان أسوا من الألم والقلق هو أننى لم أكن أستطيع القيام بأى عمل لعدة أيام ماذا يكون طعام الغد؟ من سيغسل الأطباق؟ وعشرات من الأسئلة الأخرى تدور بخلدى. وهاهى همهمات «آرتوش» الغاضبة، فقد جرى إلى المطبخ مع سماع صوت تأوهى، ووقف على رأسى وكرر لومه المعتاد فى مثل هذه الحالات التى يحدث فيها مثل هذا الموقف:

ـ قلت لك ميت مرة خللى بالك، تتحرق البطاطس، ليه مابتفكريش فى نفسك؟ أساسًا ليه تعملى الكتلت والبطاطس المحمرة فى الحر ده هانجيب اكل من برة، اطمنى، أكل بره مموتش حد، إنتى ورثتى الوسواس اللى مالوش لازمة ده من امك، ياريت أختك كان عندها نص وسواسك ده علشان....

حاولت ألا أسمع، لقد مرت أعوام فهمت من خلالها أن «آرتوش» يبدى محبته مع الوضع فى الاعتبار أن الشخص الذى وقع له الحادث مقصر.

ففى كل مرة يرتطم فيها الأطفال بالأرض أو يصيبهم مرض أو يلم بهم ألم فى مكان ما يتحدث على هذا النحو. كما أنه كان ينتهز كل فرصة ليلمز على أمى وآليس،

وهما كذلك كانتا تتعاملان معه بالأسلوب نفسه، وكان على أن أقوم خلال هذه الأعوام بدور الوساطة.

والآن يسير حولى وحول المائدة فى المطبخ ويتحدث دون توقف، وبينما كانت رأسى تدور وتزداد حرقة يدى شيئًا فشيئًا إذا بـ«إميل سيمونيان» يصل ومعه زجاجة بنية كبيرة، وضع يده فيها عدة مرات دون أن ينطق بكلمة ثم غطى كفىّ يدى بمادة تشبه الكريم الأسود اللزج، بينما كان «آرتوش» يقف صامتًا وهو ينظر إلينا. نظرت إلى كف يدى، وشعرت فجأة بالحرقة، شعرت وكأنهما قد التصقتا ثانية بالمقلاة واحترقتا توًا، ثم شعرت فيهما بوخز ثم هدأتا وبردتا تدريجيًّا، وإنتهى إحساس الحرقة والوخز. كنت أتصبب عرقًا، وحينما رفعت رأسى كان «إميل» ينظر إلىّ مبتسمًا وكأنه يقول:

ـ أنا مش قلت لك هااخففها؟

ـ ١٨ ـ

جلس ثلاثتنا إلى مائدة المطبخ، كان «إميل» يتحدث عن المعجون الهندى المضاد للاحتراق وهو يقشر البطاطس. لقد ألقى بالبطاطس المحترقة فى سلة القمامة وأخذ بعض وحدات أخرى من السلة الموجودة بجوار الثلاجة وجعل يقشرها، وكان «آرتوش» يبدو وكأنه يساعده.

فكرت:

كام مرة قشر فيها «آرتوش» البطاطس فى حياته؟ وكام مرة قشر فيها «إميل سيمونيان»؟

نظرت ثانية إلى يدى وأنا أصغى إلى «إميل» وهو يقول:

كان فيه طباخ من جنوب الهند جاب لأمى المعجون ده من سنين طويلة.

جرى التوأمان داخل المطبخ.

سألته:

ـ كان «رامو»؟

وسرعان ما ندمت على طرحى لهذا السؤال، فهو ذكرى لأحداث سيئة، وضع السكين على المائدة وقال:

كان «أبو رامو» وصمت للحظات ثم أخذ السكين ثانية وقال:

ـ أنا وديته كام مرة لأماكن كتير علشان يجربوه، لكن مفيش حد عرف تركيبته، كل اللى عرفوه إنهم حضروه من جذور الأعشاب وأوراقها، وده اللى أنا كنت عارفه من الأول.

أغلق «آرتوش» باب الثلاجة وجلس على المائدة، فسألته:

ـ هىّ البنات كانت عايزة إيه؟

قال :

ـ مية

وبينما قام «آرتوش» بتقشير اثنتين من البطاطس بشكل مائل كان «إميل» قد قام بتقشير بقيتها وتقطيعها على شكل صوابع ووضعها فى المصفاة وهو يقول :

ـ واحد بس من عيلة «رامو» هو اللى كان عارف طريقة تحضير المعجون ده ، وقبل وفاته علمها لواحد تانى من العيلة نفسها. ثم وضع المصفاه فى الحوض وفتح الصنبور ، فكرت :

«هو مابيتكلمش بشكل رسمى علشان أمه مش موجودة» . ثم رن جرس الهاتف ، ثمة شخص فى الدهليز رفع السماعة ، وبعد لحظات نادى «آرمن» :

ـ مااا ماا !مدام «نور اللهى» .

صحت :

ـ لىّ ولا لأبوك؟

ـ ليكى.

نهضت من مكانى ، قال «آرتوش» :

ـ مش صعب عليكى إنك تمسكى سماعة التليفون بإيدك؟

أدار «إميل» رأسه وهو بجوار الحوض ، كان صنبور المياه مفتوحًا على أصابع البطاطس فى المصفاة. هل كان يفكر فىّ أم أن نظرته كانت قلقة؟ فتحت يدى ثم ضمتها ، كان الألم قد قل قليلاً ، حركت رأسى وقلت :

ـ لأ ، مش صعب علىّ

واتجهت ناحية الدهليز ، رأيت إميلى وآرمن من باب غرفة الجلوس المفتوح وهما يجلسان على مقعدين ، كانت «إميلى» تشرح شيئًا ما بحركات رأسها ويديها ، لو لم أكن أعرفها لتخيلت أنها فتاة شابة وليست طفلة كان «آرمن» ينظر إليها وهو يجلس أمامها واضعًا يده تحت ذقنه. رفعت السماعة وأنا أفكر فيما تريده مدام «نور اللهى» ونظرى على يدىّ وكأننى قد أدركت أهميتهما توًا. ومثل كل مرة ، قامت مدام «نور

اللهى » بالاستفسار عن الأحوال بشكل مطول وحار ، ولا تتجه إلى أصل الموضوع طالما لم تسأل عن أحوال الأولاد بشكل تفصيلى. أية ذاكرة قوية لها ! لم تتذكر فقط أسماء الأطفال ، بل تتذكر أيضًا فى أية سنة دراسية يكونون ، حتى أنها كانت تتذكر إصابة التوأمين بالبرد منذ عدة شهور ، وفى النهاية ، قالت :

أنا شفتكم الجمعة اللى فاتت فىمحاضرة نادى جلستان ، لامؤاخذة ، ماكانش فيه فرصة أسلم عليكى.لم يكن هناك أى أثر للمز فى نبرتها ، تملكنى الخجل ، كان يجب علىّأن أتوجه إليها بعد المحاضرة وأهنئها ، لكننى لم أفعل ولم أهنئها ، ولم تمنح السيدة « نور اللهى » الفرصة للتبرير أو الاعتذار وكأنها لم تنتظر ذلك ، وقالت :

ـ كنت عايزة ـ لو سمحتم ـ تشاركوا فى المحاضرة الجاية لجمعيتنا ، قليل قوى لما ستات الأرمن يتلطفوا علينا ، أنا عارفة إن ليكم جمعيتكم اللى ليها نشاط إيجابى ، لكن انتم عارفين إن انتخابات المجلس على وشك ، وبالطبع عارفين إن السنة دى سنة مهمة لستات إيران علشان موضوع حق التصويت.....

لم اكن أعلم أن انتخابات المجلس قد أوشكت ، وقد سمعتُ فقط بعض الأشياء التى تتعلق بحق النساء فى التصويت ، فكرت :

« زى ما أكون مش عايشة فى البلد دى باقى الأرمن ! »

اعترانى الخجل ، وما أن قالت مدام « نور اللهى » :

ـ عندى شوية أسئلة ، تسمحو لى اعرضها عليكم فى أقرب فرصة؟

حتى قلت لتعويض ما حدث :

ـ بالتأكيد ، بكل سرور.

وقبل توديعى ، قالت :

ـ صحيح ، إنتم عندكم السنة دى حفلة علشان ٢٤ إبريل؟

ـ وضعت السماعة ، واتجهت إلى المطبخ. إن مدام « نور اللهى » غير الأرمينية تعلم عن مناسبة ٢٤ إبريل الخاصة بنا وأنا التى ولدت فى هذا البلد... اعترانى الخجل ثانية. لقد قالت :

ـ لازم نتعلم حاجات كتير من الستات الأرمن.

بالتأكيد كانت تجامل.

جلست مكانى ونظرت إلى يدىّ، كأنهما لم تحترقا، مال «آرتوش» ناحيتى وتحسس يدى وهمس فى أذنى بهدوء:

ـ مش بتوجعك؟

كان يبتسم، وكنت أعلم أنه يحاول أن يظهر مواساته لى، فابتسمت وأومأت برأسى:

ـ لأ.

نظرت إلى «إميل». كان يقف والمصفاة فى يده ووجهه إلينا ينظر إلىّ، كان صنبور الحوض مغلقًا، بقينا للحظات كل منا ينظر إلى الآخر، ثم قال:

ـ الزيت فين؟

قفزت من مكانى وأنا أقول:

ـ وليه إنت؟

ومددت يدى لأخذ المصفاة، فسحبها، ووقف «آرتوش» وقال:

هو لازم ناكل البطاطس المحمرة دلوقتى؟

قلت:

ـ روح إنت شوف العيال.

وكأنه كان يدعو الله أن ينصرف، نظرت إلى «إميل»، قلب البطاطس فى المصفاة، وقال:

أظن إن أنا من الرجالة المعدودين اللى بيحبوا الطبيخ.

كان زرا قميصه العلويان مفتوحين والسلسلة الذهبية ظاهرة، نظر إلى باب المطبخ وأخفض من صوته وهو يقول:

ـ فى المقابل ماباحبش السياسة، لكن زى ما يكون كده «آرتوش» ....

ونظر إلى منتظرًا، فقلت:

ـ لأ، أقصد أيوه، يعنى فى حدود قراءة الأخبار، وأحيانًا....

واستدرت وأخذت علبة الزيت من الصندوق الذى يقع خلفى، أخذ العلبة من يدى، وقال:

ــ السياسة مابتعجبنيش أبدًا، ومابيدخلش دماغى أى حاجة من الأسماء أو الأهداف دى، وفى المقابل بحب قراءة الكتب، لو المفروض إن الدينا تكون أحسن، أنا ماعنديش شك إن ده مش هايتم بالسياسة، ها، إيه رأيك؟

ابتسمت ابتسامة حمقاء بدلاً من الرد عليه.

قمنا بتحمير البطاطس وإعداد السلاطة، تحدث عن الطعام الهندى وعن الأدوية المختلفة وخصائص كل منها، تحدثنا عن الأدباء الذين نحبهما، وعن الكتب التى طالعناها. طلب منى أن أناديه بـ«إميل» بدلاً من الأستاذ «سيمونيان»، فكرت ثانية:

«أد إيه هو مرتاح وكلامه حلو فى عدم وجود أمه».

كنت أبسط مائدة العشّا بينما كان «آرتوش» و«إميل» ينحنيان على رقعة الشطرنج، قلت:

ـ هو فيه مشكلة لو بعتت العشا لوالدتك؟ أكيد مش هاتقدر تعمل العشّا وهىّ عندها صداع.

نظر إلىّ عدة لحظات، ثم قال:

ـ أيوه، جايز، مش عارف.

ما إن دار الحديث حول أمه حتى تلعثم وتغيرت نبرته!

ـ ١٩ ـ

وضعت طبق «الكتلت» والبطاطس مع طبق السلاطة الصغير فى صينية وقمت بتغطيتها بمنديل كبير حتى لا تقع آلاف الحشرات فى الطعام حتى وصولى إلى ذلك الشارع. ومع إن مصابيح الفناء كانت مضاءة إلا أننى كنت أمسك بإحكام مقبض الصينية طوال الطريق الضيق وأدق بقدمى على الأرض.

كان هذا أسلوبى المبتكر الذى اتبعته لإطلاع الضفادع الحمقاء بمجيئى حتى لا تقفزن أمامى أو على قدمى وتفسدن هدوئى، وكان «آرتوش» يضحكون من تصرفى هذا.

كان السيد «رحيمى» يرش الفناء بالماء ويغنى كعادته بصوت عالٍ، و«آرمن» يقول:

ـ من كتر ما صوت الأستاذ «رحيمى» وحش مراته مابتسمحش له يغنى فى البيت.

لذا كان السيد «رحيمى» يقوم برى الحديقة ورش الفناء ونصف الشارع بالماء ثلاث مرات كل يوم. ومع أنه لم يمض يوم دون ان تتجادل فيه «آرسينه» و«آرمينه» مع «آرمن» ودومًا ما ينتهى الأمر إلى الشجار، إلا أن مزاح أخيهما الأكبر كان يحثهما على الضحك حتى وإن كان بلا معنى.

وبينما كنت أعبر الشارع وأنا أفكر فى أن صوت الأستاذ «رحيمى» ليس سيئًا على الإطلاق تعثرت قدمى. حقًا ما كان يقوله «آرمن»، لقد رش السيد «رحيمى» الشارع كله بالماء.

فتحت الباب المعدنى للمبنى G4، لم تكن مصابيح الفناء مضاءة، لكن ضوء القمر كان بذلك القدر الذى يجعلنى أرى هذه الشتلات عديمة الأزهار وتلك الروضة الصفراء الجافة. كانت الأغصان الجافة الملتوية تلتصق بجدار المنزل كنسيجٍ العنكبوت. فى العام الماضى، كان هذا الجدار نفسه مغطى باللون الأخضر، وبدلاً من استخدام الجرس طرقت الباب برفق عدة مرات. كان المنزل مظلمًا، اعتقدت أنها ربما تكون نائمة، وما أن فكرت فى العودة حتى فُتح الباب، نظرت إلى الصينية التى فى يدى

والتى كانت فى مواجهتها تمامًا وكانت هى فى رداء النوم ذى الأكمام الطويلة والياقة المغلقة، ثم رفعت رأسها، فقلت:

ـ لا مؤاخذة، أنا جبت لك كام حتة «كتلت»، لكن لو تحبى تستريحى....

كان القمر يلقى بضوئه على وجهها، خيل إلى أن عينيها قد أصابهما الإحمرار والورم، ابتسمت ابتسامة فاترة وقالت:

ـ اتفضلى، ادخلى.

نحت نفسها عن الباب، كان صوتها يختلف عن ذلك الصوت المتعب المستاء العصبى الذى يصل عبر الهاتف. كانت متعبة لكنها لم تكن عصبية أو ثائرة، قالت:

ـ فيه مشكلة لو مددت جسمى، أنا تعبانة.

أضاءت مصباح الطرقة وتوجهت ناحية غرف النوم، ما من أثر للشمعدان النحاس، لكن الفيل مكسور الخرطوم ما يزال فى مكانه كان باب حجرة «إميلى» مفتوحًا، رأيت ورق النوتة الموسيقية ممزقًا وملقى على الأرض، رأيت كذلك مقصًا وبعض قصاصات القماش البيضاء.

وفى حجرة نوم مدام «سيمونيان» كان ينير فقط مصباح صغير فوق الكومودينو والنافذة تخلو من الستائر، كانت توجد سجادة صغيرة بالية فى أحد الأطراف وبعض الصور على السرير وعدة آلبومات شبه مفتوحة فوق الأرض. أخذت الصينية من يدى ووضعتها فوق الكومودينو ثم رفعت المنديل عنها، نظرت للحظات إلى طبق الطعام وكأس السلاطة ثم عادت وقالت:

ـ متشكرة لأنك فكرت فىّ.

كان المصباح الخافت يلقى بضوئه على وجهها، تأكدت هذه المرة من أنها كانت تبكى، ولكى أبدأ الحديث، قلت لها:

ـ اتفضلى حضرتك خدى أى حاجة، يقولون إن تناول الطعام مفيد لآلام الرأس.

«لم كنت أتحدث بهذا الشكل الرسمى؟!»

أزاحت الصور الموجودة فوق السرير ومسحت بيدها على رأسها وجلست على

السرير وأشارت لى بالجلوس ثم اخذت إحدى الصور وقالت :

ـ أنا ماعنديش صداع. ونظرت إلى الصور للحظات ثم التفتت إلىّ.

فكرت للحظة فى الصور التى كان القدامى يلتقطونها فى استديوهات التصوير ، كانت إميلى تجلس بكبرياء على مقعد ذى مسند عال ترتدى فستانًا قاتمًا بياقة مغلقة وتضع على رأسها شريطًا معقودًا على شكل « فيونكة » بينما ينسدل شعرها فى خصلات ملتوية من كلا الطرفين حتى كتفيها وثمة قط يجلس على ركبتها ، بينما لم يظهر فى الصورة الموضع من ركبتها حتى أسفل.

أخذت الصورة من يدى وقالت :

ـ دى مش « إميلى » ، دى أنا كنت أكبر شوية من « إميلى » دلوقتى.

وقلبت فى الصورة ثم أعادتها لىّ ، كان مكتوبًا خلفها :

« الميراهاروتيان ـ الخريف ـ فى الخامسة عشر » .

كان الخط واضحًا وثابتًا بالبنط العريض.

اتكأت على مسند السرير ونظرت إلى السقف ثم قالت :

ـ كان بابا بيجيب مصوراتى البيت كام مرة كل سنة أو ياخدنى لإستديو التصوير ، كان بيصر إن كل الصور تكون وأنا قاعدة ولغاية الركبة علشان مايبانش قصرى ، كان فاكر إنى هاموت بسرعة علشان قُصرى ده ، كان بيقول إنه عايز يحتفظ بصورى بعد ما أموت.

ثم ابتسمت فى سخرية وهى تنظر إلى السقف وقالت :

لكننى أثبتت لبابا إنى مابفكرش فى الموت قبله ، وكمان أثبتت للدكاترة اللى كانوا بيقولوا إنى هاموت بعد الحمل.

قدمت لى بعض الصور الأخرى ، واتكأت برأسها ثانية على مسند السرير وأغمضت عينيها. فكرت :

« هى ليه ماكانتش بتتكلم بشكل رسمى طول الوقت ده؟! »

جعلت أنظر إلى الصور ، جميعها يشبه الصورة الأولى فى كثير أو قليل ، صورة وهى على الأريكة فى الحديقة ، وأخرى بجوار حوض زهور كبير ، ربما كانت زهور

النسرين، وثالثة أمام مدفأة الحائط المصنوعة من الجص المنقوش، ورابعة فوق فوتيه وفى يدها مروحة وثمة كلب يظهر رأسه فقط على ركبتها، ومكتوب خلف كل هذه الصور بنفس الخط الثابت الواضح:

«الميراهاروتيان، فى الثالثة عشر أو السادسة عشر أو الثانية عشر من عمرها».

أردت مشاهدة الصور ثانية فإذا بها وقد فتحت عينيها ثم اعتدلت ومسحت يدها على جبهتها، وقالت:

معلهش لو كنت اتكلمت كتير، أحيانًا بتيجى فى بالى الذكريات دى، إنت كنتى لطيفة علشان جيتى لى، ودلوقتى... لو تسمحى...

وبينما كنت أقوم بتوديعها، سألتنى:

ـ الحرق اللى فى إيدك اتحسن؟

أجبت بتحريك رأسى، وحركت هى أيضًا رأسها بابتسامة فاترة.

ومساءً، قلت لـ«آرتوش» ونحن على المضجع:

ـ كانت عاملة زى ما تكون بتنتقم طول عمرها من البشر!

حينما لم يرد، استدرت برأسى ونظرت إليه، كان نائمًا، أطفأت المصباح الخافت وأنا أنصت إلى صوت التكييف الذى كان على وتيرة واحدة.

كم كنت أريد مشاهدة باقى الصور!

ـ ٢٠ ـ

كان منزل «نينا» أحد المنازل الكبرى فى محلة «بريم» ، يقع على بعد عدة أمتار من حمام السباحة. حينما نزلنا من السيارة قالت «آرمينه» :

ـ يابخت «صوفى» .

وقات «آرسينه» :

ـ مفيش دقيقتين لحد حمام السباحة.

ركن «آرتوش» السيارة وصاح «آرمن» :

ـ أقف ، «شوىّ» مش هتعدى الخط.

وضحكت البنتان. لم يمض يوم لا يقوم فيه الأطفال بإطلاق النكات على «شورلت» سيارة «آرتوش» القديمة ، لم نكن قد دخلنا الفناء بعد حتى خرجت «صوفى» مسرعة من المنزل وهى تصيح :

ـ اشترينا أرانب.

دخلنا. «كانت «نينا» تشير إلى المنزل بينما تهمس فى أذنى :

ـ شايفة أد إيه هى مهملة ، زى ما تكون لسة معزلة إمبارح.

وصلنا إلى المطبخ الذى كان يتسم بمساحته الواسعة والترتيب ، أفرغت «نينا» مشروبًا فى الأكواب ثم قالت :

ـ شفتم؟ لسة ماحطتيش كل حاجة فى مكانها ، اللى مش فاهم يفتكر إنى معزلة إمبارح ، الناس بتقول عنى إنى أكتر ست مهملة فى العالم.

ثم ضحكت. نظرت كل من أمى و «آليس» إلى بعضهما البعض وقال «جارنيك» الذى كان قد دخل المطبخ فى اللحظة نفسها ومعه «آرتوش» :

ـ بيقولوا عنك إنك أفضل ست فى العالم خلقًا.

وأخذ صينية المشروب من يد «نينا» ، وقال :

ـ هاتيها يا حبيبتى.

همست «آليس» :

ـ حظها حلو.

حاول «آرتوش» أن يكتم تثاؤبه ، وذهب فى أعقاب «جارنيك» ويداه فى جيبه وقد بدا عليه الضيق بينما لم يكن الليل قد حل بعد.

كانت حجرة الاستقبال واسعة ومبهجة. بعثرت التوأمان اللعب التى أحضرناها معنا هدية لـ «صوفى» على السجادة وانهمكتا فى اللعب. مر «جارنيك» وسط الأطفال وصينية المشروب فى يده ويتظاهر أنه يدوس بقدميه على اللعب ، صاحت التوأمان «وصوفى» ثم ضحكن. قالت «نينا» :

ـ أد ايه الهدايا جميلة ، متشكرة يا بنات.

ثم التفتت إلى «آرمن» الذى كان يقف على مقربة من النافذة وقالت :

ـ انت واقف كده ليه أد إيه طولت قوى يا ولد! وبقيت لطيف جدّا ، لازم ليك معجبات هيمانة بيك من بين بنات المدرسة ، صح؟

نظرت البنات إلى «آرمن» ووضعن أيديهن على أفواههن وضحكن ، نظر «آرمن» إليهن شذرًا ثم جلس على فوتيه بالقرب من النافذة. سحبت أمى ذيل فستانها فوق ركبتها وأغلقت شفتيها تمامًا ، وكانت «آليس» تطمئن على مكياجها فى المرآة ، وحثتنى رائحة بودرة الوجه «كتىّ» على العطس. التفتت «نينا» إلىّ وقالت :

ـ دلوقتى بقى افتح هديتك ، إيه اللفة الكبيرة دى! إنت كسفتينى يا «كلاريس» .

ووضعت اللفة على المنضدة المقابلة للمقاعد ومزقت الأوراق المغلفة لها. نظرت إلى جهاز الكاسيت الكبير ماركة «جروندیج» الموجود على الأرض فى أحد أطراف الغرفة. كانت بعض الأسطوانات الكبيرة مبعثرة على الأرض ، كان «ويجن» يغنى :

ـ يا عزولى يا عدوى....

لدينا فى المنزل جهاز يشبهه ، همست «آليس» فى أذنى :

ـ شايفة؟ الهانم اللى بتغير راحت واشترت كاسيت زى بتاعكم.

ركعت «نينا» بجوار المنضدة ومزقت غلاف اللفة ونظرت إلىّ وقالت:

ـ شفتى الكاسيت؟ ماكانش فيه وقت علشان أشترى له ترابيزة، «جارنيك» وعدنى انه هايسجل الشعر والأغانى اللى بتقولهم «صوفى»، أنا قلت له اتعلم من «آرتوش» دايمًا بيسجل للتوأم، احنا ماعندناش تذكار لطفولة تيجران غير شوية صور لازم تجيب عدسة مكبرة علشان تعرف ده مين فعلى الأقل لازم يكون عندنا تذكار لطفولة «صوفى».

قلت:

ـ أتمنى بس إنه مايعملش زى «أرتوش» ويسيب لك مهمة جمع الشرايط وتنظيف الجهاز.

ضحكت «نينا» وقالت:

ـ لا، هو فهم من اول يوم إن مراته مش بتاعة الحاجات دى، اللى أعرفه بس هو إنى أصدر الأوامر، وأنا قلت له لازم يكون الكاسيت بتاعنا زى كاسيت «كلاريس» و«آرتوش» بالظبط.

نظرت إلى «آليس» فإذا بها تسترق النظر إلىّ ثم أغلقت علبة البودرة بإحكام مصدرة صوتًا، وقال «لجارنيك» الذى كان يقدم إليها صينية المشروب:

ـ مش هاشرب، أنا عاملة رچيم، عندكم موسيقى إنجليزى؟

ـ قدم «جارنيك» الصينية لأمى ورد على «آليس»:

ـ بتحبى نات كينج كول؟ بنت خالتى جابت شريطه من طهران، وبعدين الليلة دى مافيش رچيم، إنتى كمان بدأت تقلدى ستات طهران؟ لازم الست يكون فيها شوية لحم.

وكرر جملة الأم:

ـ لو باكدب تقول مدام «وسكانيان» إنك بتكدب.

وقهقه من الضحك.

قال شخص ما:

ـ رجعت تتكلم تانى عن ستات طهران!

نظرنا جميعًا إلى باب الحجرة. كانت امرأة ذات قامة متوسطة ولا نحيفة وليست سمينة، ذات شعر أشقر ينسدل حتى كتفيها، عيناها عسليتان، ترتدى حذاءً ذا كعب، على بلوزتها البيضاء عديمة الأكمام نقط حمراء. وضع «جارنيك» الصينية فوق المنضدة وفتح يديه، وقال:

دى ڤيوليت، بنت خالتى الطهرانية.

تقدمت ابنة الخالة الطهرانية وسلمت على الجميع، وقبلت التوأمين اللتين كانتا تنظران إليها فى دهشة. قالت «آرمينه»:

ـ إنت حلوة قوى!

قالت آرسينه:

ـ بالظبط زى رابونزل!

تراجعت ڤيوليت إلى الوراء وضحكت ثم قالت:

أنا مااعرفش رابونزل، بس ياريت الناس كلها فى ذوقكم.

مزقت «نينا» اللفة وقالت:

ـ الناس كلهاعارفة إنك حلوة وجميلة، وشيك ورقيقة، اللى مايعرفش بس هو جوزك الغبى، بصى، شوفى الهدية اللى جابتها «كلاريس».

وأخرجت تمثالاً من الخزف من الصندوق، وقالت:

ياه أد إيه جميل!

مالت «ڤيوليت» على المنضدة ووجهها إلى «آليس» والأم وظهرها إلى «آرتوش» و«آرمن» ومدت يدها إلى التمثال. ثمة فتحة صغيرة خلف تنورتها. أدار «آرتوش» رأسه ناحية الشرفة، وتململ «آرمن» فوق مقعده. كانت آليس تحدق بنظرها على «ڤيوليت» وأمى تشرب المشروب فى عجالة. ذهب «جارنيك» و«آرتوش» و«ڤيوليت» مع الأطفال إلى الفناء الخلفى ليشاهدوا الأرانب التى اشتراها «جارنيك» فى ذات اليوم. سألت أمى «نينا» عن أحوال ابنها «تيجران»:

ـ هو بيبات فى المدينة الجامعية ولا مأجر أوضة؟

ـ تنقلت «نينا» فوق اللعب المبعثرة على الأرض، وجلست أمامنا وقالت:

ـ هو قعد فى المدينة الجامعية كام أسبوع وبعدين راح بيت خالة «جارنيك»، مامة «ڤيولت» أنا ماكنتش عايزاه يختلط مع الطلبة كتير، كلهم دماغهم فيها حاجة، ايه دخلنا بالسياسة؟ أحسن لنا كتير نخلينا فى حالنا.

مالت الأم وأخذت شيئًا من فوق السجادة لم يعلم ما هو من شدة صغر حجمه ووضعته فى منفضة السجائر، ثم قالت:

أيوه، إيه دخلنا بالبلد؟ أنا قلت له ـ الله يرحمه ـ الكلام ده ألف مرة، بس...

تثاءبت «آليس» وقالت:

يووه...، بدأت تانى.

سددت الأم ضربة على ساعد «آليس» السمين، وقالت:

ـ بدأت تانى! وحياة أبويا! هو أنا بالكدب؟

نظرت «آليس» إلىّ وضحكت، أشارت «صوفى» من خلف الشرفة إلى صغير الأرنب، ثم ثم أشارت إليها بيدها وقالت:

ـ مفيش كام شهر واتطلقت المسكينة ڤيوليت، ماأقول لكيش كان جوزها أد إيه مجنون، ماكانش بيديها الحق علشان تمشى لأول الشارع لوحدها، كان بيغير عليها ويفتعل المشاكل، يا ويلها لو حد بص عليها فى الشارع ولاّ فى عزومة. كان يقول لها: لازم يعرفك. الخلاصة، تعبت منه قوى، كمان ماوّفاش بأى وعد من وعوده اللى قالها قبل الجواز. كان بيقول: هااشترى بيت، هااشترى مجوهرات، هااخدك باريس ولندن. ومانفذش أى حاجة منها، كان هايجننها، كويس إنها اتطلقت منه، ومن كام يوم، بعد ما طلقها، كل يوم يفتعل موضوع جديد، ويتصل بالتليفون ويعترض طريق الغلبانة دى فى الشارع. من فترة اعترض طريقها بوقاحة فى شارع نادرى بالضبط قدام محل حلويات «بيراشكى»[1]. فكرنا تيجى عبدان كام شهر علشان تخلص من المجنون ده، إنتم ماتعرفوش أد إيه هى رقيقة وجميلة، ربنا يرزقها بجوز كويس.

(١) بيراشكى: نوع من الحلوى الإيرانية الخاصة بالأطفال تشبه الباتيه (المترجمة).

نظرت أمى إلى «نينا» بينما نظرت «آليس» إلى الأكواب الممتلئة حتى منتصفها. فكرت أن أقوم بإعداد البيراشكى للأولاد فى أحد هذه الأيام.

جمعت «نينا» الصندوق الذى يحوى التمثال الخزفى وورق الغلاف، ونظرت إلى باب الحجرة ثم مالت وأشارت لنا كى نتقدم ناحيتها وأخفضت صوتها وقالت:

لا ده يكون سر بيننا، «ڤيوليت» متعرفشى حاجة لغاية دلوقتى، بس...

ثن التفتت إلىّ وقالت:

ـ إنتى فاكرة الجار الهولندى اللى كلمتك عنه فى التليفون؟ يبقى كويس لو ڤيوليت أعجبته، انا عزمته النهاردة. ثم قامت وقالت وهى تضحك:

ـ هو أجّر الدور اللى فوق من البيت، بس كويس، احنا بنبص للأجانب على إنهم ماينفعوش، ده لو اتجوز «ڤيوليت» ورحلوا عن إيران يبقى هايل، العيشة فى إيران، ماتناسبش «ڤيوليت».

ثم وضت الصندوق الفارغ والورق تحت إبطها وقالت:

ـ هاآخدهم أرميهم بعيد.

ثم قالت لأمى وهى تخرج من الحجرة:

ـ حقيقى، لو قلتى بقى أنا عملت أيه على العشاء؟ رز باللوبيا، شفتى؟ أنا بقيت ربة بيت شاطرة، جه الدور على جوزى، مش كده؟

ثم ضحكت.

نظرت إلى «آليس» فوجدتها عابسة الوجه، قلت فى نفسى:

«دار الكلام تانى عن الجواز، الله يكون فى عون أمى النهاردة».

وما أن خرجت «نينا» حتى بدأت أمى فى همسها:

ـ أنا قلت ميت مرة إن الاختلاط بالست دى وجوزها مش كويس، يا حسرة على الأخلاق والأصل، دول بيقولوا قدام العيال أى حاجة، بتتكلم عن الجواز والطلاق زى ما يكون اشترت فستان ولما ماعجبهاش رجعته، إحنا جينا أساسًا من غير داعى، الذنب من الأول ذنب «كلاريس» اللى....

قفزت من مكانى وقلت :

ـ هاروح أساعد «نينا» فى تحضير السفرة.

وفى المطبخ سألتنى «نينا» :

ـ إنتى لوحدك؟

نظرت إلى الباب، وحينما تأكدت من عدم وجود أمى و«آليس» ضحكت وقالت فى هدوء :

ـ حقيقى، أنا جبت «فيوليت» معايا عبدان علشان هى....

ثم نظرت ثانية إلى الباب وقالت بصوت أكثر هدوءًا :

ـ باين إن «تيجران» بيبلع ريقه بالعافية قدام «فيوليت».

نظرت إلى «نينا فى دهشة، وقلت :

ـ أيه؟

ومر أمام عينى شكل «تيجران». كان نحيفًا قليل الكلام خجولاً، يضع على عينيه نظارة، دومًا يستذكر دروسه وكان ترتيبه الأول على أقرانه، لم يكن يذهب إلى السينما ولا إلى النادى، لم يكن له صديق، كان جل اهتمامه اللعب بالأدوات الكهربائية، كم من مرة قالت فيها أمى :

ـ مش غريب إن ولد بالأدب ده ييجى من أم وأب بالتسيب ده؟!

كانت «نينا» تقول :

لما «فيوليت» اتطلقت ورجعت لأمها كان «تيجران» فى منزل خالة «جارنيك»، وما فاتش كام يوم ولقيت الولد اتغير تمامًا، إما إنه بيسمع أغانى الحب، أو قاعد يبحلق فى «فيوليت» بالظبط زى الكلب اللى بيبحلق على صاحبه، ماتخليش خيالك يروح بعيد وتظنى إن «فيوليت» كانت بتغويه، لا، البنت دى أساسًا مش من النوعية دى، أنا خمنت بنفسى أنا مش حمارة، أنا بافهم، لا، الذنب مش ذنب «فيوليت»، والحلاوة كمان مش ذنب، وعلشان هى ظاهرها مش زى باقى الستات الناس اللى بيتكلموا عنها من وراها، علشان كده أنا قلت أوروبا تناسبها أكتر، هناك الشوارع

مليانة بالشقر اللى بشرتهم بيضا ، وأنا اتأكدت إن مهمة الهولندى قربت تخلص ، ودلوقتى تعالى نشوف نعمل ايه الليلة دى.

وأخرجت طبق السلاطة من الثلاجة وقالت :

ـ جايز نكون سبب فى عمل خير.

وضحكت من أعماق قلبها.

دخلت التوأمان مسرعتان إلى المطبخ وقالت « آرمينه » فى غضب :

ـ عمو « جارنيك » اشترى لصوفى....

ومطت « آرسينه » شفتيها :

اشترى « لصوفى » لعبة الهولاهوب

ثم قالتا معًا :

ـ عمو « جارنيك » قال إن الهولاهوب مش وحش للوسط.

ـ مش وحش خالص.

ـ كل الأطفال عندهم لعبة الهولاهوب.

ـ اشتريها لنا.

ـ وحياة ربنا اشتريها لنا.

صاح « جارنيك » من داخل حجرة الاستقبال ، وقال :

هااشتريها أنا ، تعالوا هنا دلوقتى ، الأرانب جت.

صاحت التوأمان :

ـ الله ! أد إيه هو لطيف !

ـ لطيف جدّا !

وخرجتا مسرعتان ، أخذت نينا سلة الفاكهة ، وقالت :

ـ أنا مش عارفة مين اللى دَخَّل الفكرة العبيطة دى فى دماغ الناس وهى إن لعبة الهولاهوب بتوجع الضهر ، بقالهم أربعة وعشرين ساعة بيلفوا بالهولاهوب ،

تصدقى، بقالهم يومين تلاتة بيلعبوا بيه وبعدين رموه فى ركن فى الحوش. هاتى أطباق التقديم وتعالى.

ثم مضت تجاه حجرة الاستقبال، كانت ڤيوليت تجلس على السجادة وتحتضن أحد صغار الأرانب، كان ذيل فستانها الأسود الضيق مرفوعا وتبدو ركبتاها البيضاوان دون جورب، كانت «صوفى والتوأمان» تجلسن حول صغار الأرنب وتقوم كل منهن فى دورها باحتضانها، كان «آرمن» يداعب أرنب «ڤيوليت»، والأم تنظر إلى أكواب المشروب الخاوية بتكبر، و«آليس» تعطى ظهرها تقريبًا إلى امها وتنظر على جدار الحجرة الخالى. كانت تحرك قدمها التى وضعتها إلى القدم الأخرى بشكل سريع، قلت فى نفسى:

ـ أمى و«آليس» اتخانقوا.

كان «جارنيك» يأخذ رأى «آرتوش» فى المكان الجديد للمكيف الذى يريد تركيبه، لقد قلت «لأرتوش» قبل مجيىء:

ـ ماتدخلش معاه فى أى مناقشة سياسية.

ـ وحينما عزمت على مساعدة «نينا» فى عداد سفرة العشاء دق الجرس، كان الهولندى طويل القامة شعره الناعم القصير الذهبى بلون التبن، ووجهه الذى يميل إلى اللون القرمزى ـ لا بد أن ذلك بسبب حمام الشمس ـ سلم علينا وعلى الأطفال واحدًا واحدًا بحرارة. وهو يقول:

ـ سعيدة، أنا «پوب هونسن»، أنا سعيد جدّا بتعرفى على حضراتكم، رفعت «ڤيوليت» وهى جالسة على الأرض ـ يدها قليلاً وهى خاوية من الأرانب، وقالت:

ـ شوف، أد إيه الأرنب اللى معايا جميل!

ولكى يسلم عليها كاد أن يركع على الأرض، فقال:

ـ أرنب جميل قوى قوى.

اكتفت «ڤيوليت» بالابتسام فقط ولم تندهش من طريقة الهولندى فى تلفظه بالفارسية ولم يغلب عليها الضحك. تذكرت حديث «نينا» وهى تقول:

ـ «بنت خالة جارنيك شبهك..

رأيت أنها تبالغ، فلم أر أدنى شبه بينى وبين هذه المرأة، لا فى الشكل الظاهرى ولا فى السلوك. ولما كنت انزعج لو كنت أشبهها قليلا سواء فى الشكل الظاهرى أو السلوك، كان «يوب هنسن» شخصية لطيفة بشوشة، طلب من «آرتوش» ألا يناديه بـ«مستر هونسون» وأن يتحدث معه بالفارسية بدلاً من الإنجليزية قائلاً:

ـ أنا أحب كثير الكلام بالفارسى.

حينما قدمت لأختى على سفرة العشاء وعاء الأرز باللوبيا ابتسمت هى وأمى للمرة الأولى منذ بداية الليلة، شكرتنى «آليس» وقالت:

ـ هاكل سلاطة بس.

رفع بوب حاجبيه الشقراويين، وقال:

ـ إنتى مابتحبيش الرز باللوبيا؟

ـ قالت «آليس»: بحبه، بس....

وضع «يوب» وعاء الأرز باللوبيا على المائدة وقدم إليها طبق السلطة، وقال:

ـ آاه لازم عاملة رچيم.

وسحب مقعده إلى الخلف ودقق النظر فى «آليس»، وقال:

ـ إنتى مش محتاجة أى رچيم، أنا شايف إنك حلوة قوى كده.

حينما عدنا إلى المنزل أخذ «آرتوش» فستانى الذى كنت قد ألقيته على السرير وجعل يقلبه يمينًا ويسارًا، ثم قال:

ـ أنا لو ماكنتش. شفته على جسمك الليلة كنت افتكرت إنه بتاع التوأمين.

ـ أخذت الفستان من يده وعلقته فى الدولاب، وقلت:

ـ ماتخبيهاش، قول إنى رفيعة قوى.

قال من خلفى:

ـ أنا شايف إنك حلوة قوى كده.

ثم ضحك وقال:

ـ كـان ممكـن نولـع عشرين لمبة ميت ڤـولت مـن الكهربـا اللـى خرجـت مـن عـين أختك لحظتها.

سحبت مفرش السرير ناحيتى، وقلت:

ـ ڤيوليت كان جسمها حلو، مش كده؟

سحب آرتوش المفرش ناحيته وقال:

كان حلو؟ مااخدتش بالى.

وبدأ يهمهم بنغمات أغنية «موناليزا» لفات كينج كول، قلت:

أنا متشكرة لإنك مادخلتش فى نقاش فى المواضيع السياسية مع «جارنيك».

تغير وجهه وقال:

كل اللى تأمرينى بيه هاقول لك عليه من عينى.

حاولت عدم الضحك، وفكرت:

«ليه الناس فاكرة إن «آرتوش» سىء الخلق؟!»

سألته:

ـ الخميس الجاى هايكون حفل أربعة وعشرين إبريل؟

أغمض عينيه وتثاءب وقال:

ـ م م م...

وهذا بالطبع يعنى «لا»، فأطفأت الأباچورة.

ـ ٢١ ـ

كانت قاعة الاجتماعات فى المدرسة ممتلئة وقد لصقواعلى الجدران أكاليل الشبيط الأبيض مع الأشرطة السوداء العريضة على مسافات محددة، همست أمى لـ«آليس» فى غضب:

ـ أنا قلت الوقت اتأخر، ده يوم عزا، لو مارحتيش للكوافير مش هاتنطبق السما على الأرض.

ـ أشرت لأمى على «نينا» التى كانت تجلس فى الصف الثانى وقد احتفظت لنا بمكان فيه. مررنا من بين المقاعد والحشود الموجودة بحذر وقلنا فيما يقرب من عشرين مرة «لامؤاخذة» إلى أن وصلنا إلى «نينا». كانت «آليس» بين الجلوس والقيام وتطوف برأسها فى القاعة ثم بدأت فى تقديم تقرير حول من أتى وماذا يرتدى. قدمت «نينا» لى برنامج الاحتفال، وسألت:

ـ اتأخرتم ليه؟

قالت أمى:

ـ الست «آليس» هانم كانت فى الكوافير.

وهمست ثانية فى غضب:

ـ يوم عزا وكوافير!

همست «نينا» فى أذنى:

ـ جايز يوم العزا يعدل حظها، بالله عليكى شفتى أيه؟

وضحكت ونظرت حولها ثم قالت:

ـ ده ماجاش غير شوية عواجيز وعجزة، إنتى سيبتى الأولاد مع «آرتوش»؟ (لم تسل لم لم يأت «آرتوش»؟ فالسبب فى عدم وجوده لم يكن يحتاج إلى تبرير) «جارنيك» كان مصر على وجود «صوفى».

وأغلظت من صوتها، وهى تقلد «جارنيك»:

ـ من دلوقتى لازم الأولاد تعرف أيه اللى حصل لأهلهم.

لكن نظرًا للجلبة التى أثارتها «صوفى» عدل والدها عن رأيه، ولم يحضر «ڤيوليت» معنا كى لا تبقى «صوفى» بمفردها

ـ هو حصل إيه؟

لما ماجتش كانت هاتزهق بسرعة، حقيقى، أنا ماكنتش هاآجى أنا كمان لو ما كانش «جارنيك» هو مقدم البرنامج، ها إيه الأخبار؟

وبينما كنت أبدأ بقولى «مفيش أخبار» حتى بدأت بإلقاء التحية والاستفسار عن الأحوال مع امرأة كانت تجلس فى الصف الأمامى لنا، كان زوجها هو المتحدث الأول فى الحفل. قرأت البرنامج:

ـ محاضرة روبرت ماداتيان بشأن مذبحة أربعة وعشرين إبريل.

ـ تقرير جمعية الكنيسة والمدرسة بشأن تشييد النصب التذكارى.

ـ استراحة.

ـ خواطر خاتون يرميان وهى شاهد عيان على تلك الأيام المريرة.

انطفأت المصابيح فى القاعة، وتقدم جارنيك نحو الميكرفون ورحب بالضيوف ثم تقدم المتحدث الأول، ما بدأ «مادايتان» محاضرته.

حتى تذكرت ٢٤ إبريل منذ أعوام ونقاش «آرتوش» و«مادايتان» الحاد، لو لم يكن «جارنيك» موجودًا يتناول أصل الموضوع ونهايته بالمزاح والضحك لتصاعد الأمر. كم قلت «لآرتوش» بعد ذلك العام:

ـ أيه العلاقة بين اليوم ده وبين الخلافات السياسية؟ أيه علاقته بالاتجاه اليسارى أو بالاتجاه اليمينى. اتقتل ناس كتير، ولو ماكنتش أرمنى لازم برضه تحزن عليهم وتشارك فى المراسم دى.

ـ وكان «آرتوش» يجيب علىّ فى كل مرة:

ـ أنا حزين بس مش هااشارك.

ـ كنت أنصت إلى المحاضرة دون أن أسمع شيئًا لقد كنا نسمع نفس الكلام ده فى كل عام:

ـ عدد الإحصائيات، بعض الشعارات وما شابه ذلك. نظرت «نينا» إلىّ عدة مرات وأشارت بعينيها إلى مدام «ماداتيان» ووضعت إصبعها على شفتيها ويعنى انها مضطرة لإلتزام الصمت لأن مدام «ماداتيان» تستاء كثيرا إذا ما تحدث شخص أثناء محاضرة زوجها.

ـ التفتت مدام «ماداتيان» عدة مرات ونظرت إلى الخلف. بالتأكيد نظرت إلى من لم يكونوا على علم بأنها محاضرة زوجها وعليهم أن يلزموا الصمت، كان الجميع يتهامسون ويقومون بالترويح على أنفسهم بورقة البرنامج، وأنا أيضًا كنت أقوم بذلك وأحاول ان أتذكر:

«هل قدمت للتوأمين مشروب الـ«هالى برانج» صباحًا أم لا وتذكرت أننى قدمته لهما لأنهما همستا بغضب:

ـ طب و«آرمن»؟

ـ احنا لإمتى لازم نشرب المشروب ده؟

لو كنا بنشربه علشان ميجىلناش برد، طب وآرمن؟

حرك السيد «ماداتيان» المذكرات التى فى يده بانفعال ثم أنهى محاضرته بعد عدة جمل طويلة، صفقت مع الجميع، وقام البعض ممن يجلسون على المقاعد حولنا بتهنئة مدام ماداتيان التى كانت تبتسم وكأنها هى التى ألقت المحاضرة وشكرتهم، وحينما وقعت عيناها علىّ أدارت رأسها.

كانت أمى تسلم على امرأة تجلس خلفنا بصفين، ومالت «آليس» من أمامها ناحيتى، وقالت:

ـ خمنى مين جت؟ مدام «نور اللهى»، موجودة فى آخر القاعة.

وبينما كنت ألتفت برأسى حتى جاء «جارنيك» إلى المنصة وبدأ فى قراءة تقرير تشييد النصب التذكارى. فى إحدى المرات التى استدعيت فيها إلى المدرسة بسبب شغب «آرمن» أطلعنى فازجن هايرابتيان» على مشروع بناء النصب التذكارى. كان

عبارة عن مستطيل كبير من الأحجار الرصاصية منحوت فى أحد أطرافه امرأة وطفل على يديها، وفى الطرف الآخر تاريخ المذبحة. قال «جارنيك» إن البناء على وشك الانتهاء وسوف يتم تثبيته فى فناء المدرسة أمام باب الكنيسة خلال العام القادم. ثم شكر الجميع على مساعداتهم المادية والمعنوية وأعلن الاستراحة لمدة خمس عشرة دقيقة.

قالت أمى انها ستظل فى القاعة كى تتحدث مع صديقتها فى الصف الخلفى والتى عادت مؤخرًا من جلفا وقالت «نينا» إنها ستذهب خلف المسرح لترى ما الذى يفعله «جارنيك» وأخذت «آليس» معها واتجهت أنا ناحية أحد أبواب القاعة الذى كان يفتح على فناء المدرسة. وأمام الباب نحيت نفسى جانبًا لأفسح الطريق لرجل كان يحمل فى يده بعض الساندويتشات وزجاجات البيبسى. وفى ركن الفناء ثمة جلبة حول المقصف، ألقيت تحية السلام على بعض المعارف ثم رأيت «مانيا» تتقدم نحوى، كانت كعادتها مضطربة ثائرة وياقة بلوزتها السوداء غير معتدلة، ألقيت عليها السلام وقمت بعدل ياقتها ثم قلت:

ـ أكاليل الورود والشرايط حلوة قوى، بالتأكيد دى فكرتك.

دفعت خصلة شعرها المنسدلة على جبهتها المبللة بالعرق خلفًا وقالت:

ـ إنتى شفتى الأربطة بتاعة الجماعة المنظمة للحفل؟

لقد رأيتها بالتأكيد، فليلة أمس أخذ «آرمن» الهاتف إلى حجرته وأغلق الباب وجعل يتحدث لمدة نصف ساعة ثم جاء إلى المطبخ وذكر لى ولأمى ـ وكنا ننظف الخضروات ـ أنه قرر أن يكون ضمن المجموعة المنظمة لحفل الغد، وأن «مانيا» قالت لابد من عقد أربطة سوداء. وبينما كنت أقول:

ـ بتطلب ده فى آخر لحظة؟ أجيب لك قماش أسود فى نص الليل منين؟

فإذا بالجدة تلبى طلب حفيدها، فداخل صناديق أمى العديدة أشياء ليست قليلة، ومن بينها قماش اسود.

قلت لـ «مانيا»:

ـ كل شئ رائع، تسلمى، بالتأكيد البرنامج الجاى هيكون حفل نهاية آخر السنة للأولاد.

ردت تحية السلام على شخص ما ثم التفتت ناحيتى وقالت :

ـ أيوه ، هانعمل حفل آخر السنة فى الحوش ، وبنجهز من دلوقتى مسرح فيه.

وأشارت إلى نهاية الفناء حيث كان ممتلئًا بالجص والعصى والمقاعد ، ثم وضعت يدها فوق كتفى ، ولم يكن هذا سهلاً مع قامتها القصيرة وكتفى العالى ، قالت :

ـ هانبدأ بروفات بكره أو بعد بكره.

ثم وضعت يدها على ساعدى وقالت :

ـ خطرت لى فى فكرة جديدة للتوأمين ، « فازجين » لقى شعر جميل لـ.... نسيت لمين ، اسم الشعر « الفصول الأربعة » فكرت إنه هايكون شىء جميل قوى لو التوأمين شاركوا فى قراءة الشعر ، « آرمينه » تقرأ « الربيع والخريف » ، و « آرسينه » تقرأ « الصيف والشتا » ، ولما ييجى دورهم هايروحوا الكواليس علشان يغيروا هدومهم ، والهدوم...

وأمام أحد أبواب القاعة وقع نظرى على « آرمن » حيث كان يتحدث مع « إميلى » واثنين من أصدقاء المدرسة ، كان يرتدى بنطلونًا كحلى اللون وقميصًا أبيض ويبدو كأنه شاب وليس صبيًا ، فكرت :

« هى « إميلى » جت مع أبوها؟ هى آليس ـ لاقدر الله ـ شافت « إميل سيمونيان » ؟ »

قلت :

ـ ولازم أخيط الهدوم.

رفعت يدها عن ساعدى ووضعتها على فمها وضحكت ثم قالت :

ـ أيوه ، علشان كده انا جايه لك ، الموضوع مش صعب ، أربع فساتين بسيطة طويلة ليها أكمام مفتوحة بألوان مختلفة ، فالربيع مثلاً باللون الوردى ، والصيف باللون الأخضر ، والخريف باللون البرتقالى والشتا باللون الأبيض.

وقع بصرى فى الجانب الآخر من الفناء على « إميل سيمونيان » ، كان يتحدث مع قس الكنيسة وزوجته ، قلت فى نفسى ثانية :

« يا ريت آليس ماتظهرش فى الحتة دى »

ثم تذكرت أنهما ـ لحسن الحظ ـ لا يعرفان بعضهما ، قلت لـ « مانيا » :

ـ مش بطال لو أخيط فوق الفساتين حاجات تحدد الفصول، فالزهور مثلاً للربيع وعيدان القمح للخريف.

سقطت توكة «إميلى» على الأرض، انحنى «آرمن» أسرع من الولدين الآخرين وأخذ التوكة، وفقدت «إميل سيمونيان» بين الجمع، قالت مانيا:

ــ دى فكرة مبتكرة جدا، حقيقى «فازجن» خلص ترجمة اللورد فونتيلروى الصغيرو.....

قطعت حديثها ونظرت خلفى، على من كانت تنظر بهذه الابتسامة الولهة، حينما استدرت فإذا بـ«إميل سيمونيان» الذى ألقى علىّ تحية السلام بعد أن نظر إلى «مانيا»، وظل كلاهما ينظر إلى منتظرًا، فقدمت كل منهما للآخر وسلما على بعضهما، عدلت «مانيا» ياقة بلوزتها ـ التى كنت قد قمت بعدلها ـ ثانية قلت:

ـ كنتى بتقولى إن الترجمة....

قالت وكأنها قد استيقظت توًا من النوم:

ــ إيه؟ آه! ترجمة الكتاب خلصت، هاديها للأولاد علشان يوصلوهالك، لو سمحتى اقريها بسرعة ورجعيها، بنفكر نطبعها قبل حفل آخر السنة.

قال إميل سيمونيان:

ـ أهنيكى على الحفل اللى عملتيه، بجد كان هايل.

احمَّر وجه «مانيا» وردت على أحد الأطفال المنظمين للحفل؛ حيث كان يناديها بقولها: «أنا جاية». ثم سلمت على «سيمونيان»، وقالت:

ـ أنا سعيدة بتعرفى عليك.

ثم انصرفت.

هل كان تصورى فى غير موضعه أم أن يديهما ظلتا لفترة طويلة معًا؟ نظرت حولى، من حسن الحظ أنه ما من أثر لـ«آليس» و لـ«أمى»، كان «إميل سيمونيان» يرتدى حلة بيضاء بخطوط زرقاء رفيعة جدّا ورابطة عنق سوداء، كان ينظر إلى الأشخاص من حولنا وهم يتحدثون ويدخنون ويتناولون الساندويتشات أو المشروبات.

قال إن والدته لم تأت وأنه جاء حتى لا تكون «إميلى» بمفردها، ولا شك كان فى ذلك بعض الفضول، قال:

ـ كنت عايز أتعرف على من فى عبدان.

ثم استدار ناحيتى وقال:

ـ لو كل الستات اللى هنا زيك وزى مدام «مانيا» ماكانش بقى فيه فى عبدان حاجة وحشة أبدًا.

وضحك على مزاحه ثم قال:

ـ لكن مفيش شك الحفلة كانت متعبة.

قال إنه يفكر فى الرجوع إلى المنزل ثم العودة مرة أخرى إلى الحفل من أجل «إميلى»، سعدت لأنه سينصرف وخشيت من عودته ورؤيته لـ «آليس»، فبادرت بقولى:

ـ احنا هانوصل «إميلى» شكرنى وودعنى وانصرف.

سرت بين الجمع لعلنى أعثر على السيدة «نور اللهى» لكننى لم أعثر عليها، عدت إلى القاعة، لعل الأمر التبس على «آليس»، فما الذى يدعوا مدام «نور اللهى»؟ أنها لم تكن أرمنية، ولم تكن مراسم الرابع والعشرين من أبريل بالمراسم الجذابة لها.بدأ الجمع فى العودة إلى القاعة رويدًا رويدا، كانت أمى تتحدث مع صديقتها التى تنتمى إلى جلفا وهى سعيدة، كانت «نينا» تعد لضيافة العشاء مع مدام «مادتيان»، وبينما كنت أهم بالجلوس قالت «آليس»:

ـ أد ايه الهدوم اللى عملها «شانيك» «وجانت» جميلة، كل الستات الفضليات لبسوا هدوم جديدة وأنا لابسة أسود.

كان «شانيك» و«جانت» من البزازين المشهورين فى عبدان، تقدم «جارنيك» أمام الميكرفون وانتظر حتى عم الصمت فى القاعة ثم قدم السيدة «خاتون بريميان» ـ كانت من أهالى مدينة وان وتقيم الآن فى طهران ـ بنبرة لم تكن تشبه حديثه العذب الباسم المعتاد. لقد كانت هذه السيدة ضيفة عزيزة علينا فى عبدان لعدة أيام، كما كانت

شاهد عيان على تلك الأيام المريرة، رفع يده خلف الكواليس ونظرنا جميعًا إلى حيث يشير. أحضر أحد الأولاد فى المجموعة التنظيمية مقعدًا ذا مساند ووضعه خلف الميكرفون، تقدمت امرأة مسنة ذات أقدام صغيرة إلى المنصة مستندة إلى ساعد ولد آخر من المجموعة التنظيمية كانت قصيرة، نحيلة، ترتدى فستانًا أسود يصل حتى عرقوب القدم مع شال أسود كبير يغطى شعرها الأبيض، جلست بمساعدة الولدين على المقعد وأخفض جارنيك الميكرفون لها، وضعت السيدة يدها النحيلة على رأس الولدين وهمست بشىء أظنه دعاء بالخير لهما. نظرنا إليها فى صمت، ونظرت إلينا بضع لحظات فى صمت ثم تحدثت بصوت منهك، كانت تتحدث باللهجة الأرمنية لمدينة «ڤان» حيث كانوا يقولون «كمى يك» بدلاً من «يك كمى» و «نمكين» بدلاً من «خوش»[1].

قالت أنها ترغب فى أن تتحدث عن الأيام السعيدة قبل أن تبدأ تلك الأيام العصيبة، قالت أنها تريد أن تعود بنا إلى الماضى، حيث منزلها فى مدينة «فان» الذى كان يحوى فى فنائه شجرتى رمان وبعض أشجار الزيتون، وكان يوجد فى ركن الفناء تنور تخبز فيه الأم خبز «اللواش»[2] كانوا يزرعون الورود فى حديقة صغيرة مما يجعلها فى ربيع دائم، تذكرت أباها الذى كان يعود إلى المنزل فى أوقات العصر من حانوت بيع القماش فى سوق «ڤان» حاملا أكياس الفاكهة، وأحيانًا كان يحضر معه المتبقى من أثواب القماش لخاتون وأختها وتقوم الأم بعمل عرائس قماشية لهما، كان الأخ الأكبر يرسم وجه العرائس بالفحم، فقد كان يرسم دائمًا على كل مايقع تحت يديه، وفى احد أيام الأحد كانت خاتون تذهب مع أخيها وأختها وأمها وأبيها إلى كنيسة المدينة التى كانت تقع فى شارع فسيح تحفه من الجانبين أشجار الصفصاف والحور الأبيض، كانت الطفلتان تسيران والعرائس القماشية فى حضنيهما ويداهما فى يد الأم وتقومان بعد الثمار القرمزية الواقعة بين أشجار الصفصاف والحور الأبيض، أحيانًا كانتا تقفان وتستفسران عن الأحوال مع الأب، كان يقول لهما: زبائن الحانوت الماضى يخشون الله وذوى ضمائر: وفى أيام الجمعة كان صوت آذان يرتفع من «مسجد المدينة»، وكان

(١) «يك كمى» تعنى قليلاً و «خوش» تعنى لطيفًا (المترجمة).

(٢) اللواش: نوع من الخبز الإيرانى يشبه الرقاق لكنه يؤكل طريًّا (المترجمة).

والدى يقول لجيراننا عند عودتهم من صلاة الجماعة «تقبل الله» كانت أمى ترسل حساء الزبادى الذى تعده وتصبه فى أوعية من الخزف وتزينه بأوراق أزهار الربيع إلى الجيران، وفى المقابل، كانو يرسلون إليها البقلاوة.

أخرجت مدام «مادنواتيان» منديلاً من حقيبتها السوداء اللامعة، لم يقم شخص فى القاعة بالترويح، صمتت «خاتون يرميان» بضع لحظات ثم طأطأت برأسها وطوت طرف الشال حول يديها، وقالت:

ـ وبعدين جت الأيام السودا، جه اليوم اللى رجع أبويا فيه للبيت بدرى عن أى يوم وإيده فاضية وكان مضطرب، قال لأمى: الأرمن قفلوا محلاتهم والعساكر ولعت فى المحلات اللى كانت مفتوحة وهجموا على إشولة الرز والقمح، قال أبى: «لازم نرحل»، ولطمت أمى على وجهها وهى تولول:

ـ «بيتنا اتخرب».

صمتت خاتون وأخذت نفسًا عميقًا ودقت بيدها عدة مرات على ركبتها وتحركت بجسدها النحيف يمينًا ويسارًا ثم هزت رأسها وقالت:

«واتخربت بيوتنا».

هممت بفتح حقيبتى فإذا بـ«آليس» تمدنى بعلبة المناديل الورقية الصغيرة، أخذت واحدًا وأعطيت العلبة «لـ«نينا»، كانت أمى تحرك رأسها وتهمس:

«آه من الدنيا اللى ملهاش أمان»!

كانت أصوات التنهيدات والأنفاس فقط هى التى تعم القاعة وصوت خاتون المنهك:

ـ كان فى بيتنا أربع أوض مفتوحة، كانت أمى بتعيط وهى بتملا البؤج والصناديق وتربطهم، وكان أبويا بيصرخ:

ـ «مفيش داعى يا ست إنتى سيبى الكراكيب دى، مفيش وقت اتحركى».

ـ وأمى بتصرخ:

«اصبر شوية، شوية صغيرة بس».

كنت واقفة مع أختى تحت أشجار الرمان مضطربين بنحضن العرايس القماش،

كان أخويا بيسب ويلعن وبيدوس على ورد الربيع برجله وبيتكلم عن الثأر، ركبنا عربية كارو وقعدنا فوق البؤج والصناديق ومشينا، كانت الشوارع مليانة بالعرابيات الكارو والكارتات والحصنة والحمير وكل اللى تقدر تشيل عليه ناس أو حاجات. كان زى يوم القيامة من كتر التراب والصراخ والعويل، ضاعت العرايس القماش وعيطت أنا وأختى، فى الأول على العرايس وبعدين على أبويا، وبعدين على أمى وبعدين على أخويا وبعدين عليا انا وهى.

مرت علبة المناديل الورقية من إيد إلى إيد حتى فرغت.

ليلاً فى غرفة الجلوس، وضعت قدماى على المنضدة أمام الفوتيه، وأسندت رأسى إلى الخلف، لففت شعرى حول إصبعى ونظرت إلى الصورة الموجودة أعلى التلفاز، كانت زرقاء اللون لكنيسة «اجى آذين» فى أرمنيا.

لا أتذكر ممن سمعت أنهم شيدوا كنيسة عبدان على نسق هذه الكنيسة فكرت:

ليه «مانيا» ارتبكت لما جه إميل؟ كان شىء جميل إن آليس ماشافتش إميل، ليهإميل قال لى إن مراسم الحفلة كانت متعبة وقال لمانيا إنها كانت رائعة؟

قلت وعينى على الصورة:

«مسكينة خاتون».

قال «آرتوش» من خلف الصحيفة:

ـ أيه.

قلت:

ـ مسكينة خاتون وأمها وأبوها وكل الناس دى، كان لازم تيجى.

قلب أوراق الصحيفة، كنت أنظر إلى «آجى آذين» وقلت:

ـ كل الناس دى، كل السنين اللى عاشوها مع بعض، أيه اللى حصل؟ أيه اللى جرى؟ كانت غلطة مين؟

كنت أبرم شعرى وأقول:

ـ إحنا ماعملناش حاجة غير إننا أعربنا عن الاحترام الجاف الخاوى وعملنا حفلة الذكرى، كان لازم تيجى.

قلب أوراق الصحيفة، فقلت:

ـ خمّن مين جه؟ «آليس» شافت مدام «نور اللهى»، جايز ماخدتش بالها.

طوى الصحيفة، وتحسس لحيته وضحك وقال:

ـ أخيرًا جت! دى سألتنى عن يوم الحفلة وميعادها، ولما عرفت إنى مش عارف راحت تسأل ناس غيرى من الأرمن، أطفى المصابيح ولا تطفيها إنتى؟

قلت:

ـ وليه ماكنتش عارف اليوم والميعاد؟ ليه مش مهم بالنسبة لك؟ ليه ماجيتش؟

وقف «آرتوش» وسحب يده إلى ذقنه ونظر إلى صورة «آجى آذين» ثم قال:

ـ إنتى تعرفى شطيط فين؟

وحينما لم أجب وضع يده فى جيب بنطلونه واتجه ناحية الشرفة ونظر للحظات على الفناء ثم عاد وضرب بمقدمة حذائه إحدى الأزهار بالسجادة، وقال:

ـ مش بعيدة، دى قريبة من منطقتنا، المسافة من عبدان لغاية هناك ٤كم.

ونظر ثانية إلى الفناء وقال:

ـ لو حبيتى آخذك تشوفيها، واعزمى «ماداتيان» ومراته و«نينا» و«جارنيك».

ثم عاد ونظر إلىّ وقال:

ـ هناك بيعيش الراجل ومراته وعياله والبقر والخرفان فى بيت واحد من البوص.

ثم أخرج يده من جيب بنطلونه وفتح محبس ساعته وقال:

ـ لازم نروح بالنهار علشان مفيش كهربا فى «شطيط»، وافتكر ناخد مية معانا علشان مفيهاش صرف مية.

وملأ ساعته وقال:

ـ لازم نخلى بالنا ومانسلمش على حد بالإيد ومانلاعبش الأولاد هناك علشان مانتصابش بالسل أو الربو.

ثم اتجه ناحية باب الغرفة، وقال:

ـ قولى لمدام «ماداتيان» ماتجيبش شيكولاته إنجليزية للأطفال، ماافتكرش إن

الأولاد فى «شطيط» شافوا الشيكولاته طول عمرهم، قولى «لجارنيك» كمان مايلبسش الجزمة الإيطالى ده الطين والقذارة هناك لحد الركب.

نظرت فى حيرة إلى «آجى آذنين»، عاد «آرتوش» من أمام الغرفة وتقدم ووقف أمامى، ثم نظر إلى وجهى، وقال:

كل يوم بتحصل كارثة، مش بس من خمسين سنة، ومش بعيد عن هنا اللى هو قلب عبدان اللى مليان بالأرمن والخضرة والحداثة والرقى.

ثم أغلق ساعته، وقال:

ـ وبالمناسبة، معاكى حق، مسكينة خاتون، مساكين الناس دى كلها ثم خرج من الغرفة.

ـ ٢٢ ـ

كنت أعد طعام الـ«تشمبور» للأطفال على وجبة العصر، وهو عبارة عن قطعة من الخبز الجاف عليها الجبن ولب الجوز المفروم، علا صوت كابح الأتوبيس من الشارع، مسحت يدى فى مريلة المطبخ وأنا أنتظر سماع صوت الجرى، ولما لم يوجد أثر توجهت إلى الدهليز وفتحت باب المنزل، كانتا قد وصلتا وسط الممر الضيق و«آرسينه» تبكى وهى منكسة الرأس، وبينما كانت آرمينه تحمل حقيبتيهما فى إحدى يديها، ويدها الأخرى على كتف أختها وتهمس فى أذنها، وما من أثر لآرمن.

جريت فى اضطراب نحوهما، وأنا أقول:

ـ إيه اللى حصل، وقعتى على الأرض، اتخانقتى مع حد؟ عييتى؟

اشتد بكاؤها وقالت بشكل متقطع وسط عويلها:

ـ هُوَّ أنا كان ذنبى ايه؟ أنا ماقلتش حاجة، الأولاد فى المدرسة هم اللى قالوا وهمّ اللى ضحكوا.

وغلبها السعال من شدة البكاء، قالت «آرمينه» مرة واحدة:

ـ آرسينه معاها حق، آرسينه معاها حق.

غسلت يدى آرسينه ووجهها وأجلستها فوق مقعد المطبخ، وجعلتها تتناول بعض رشفات الماء، وقلت:

ـ دلوقتى اتكلمى علشان أعرف ايه اللى حصل؟

نظرتا إلى بعضهم البعض، وطأطأت «آرسينه» رأسها وشبكت أصابعها، رفعت «آرمينه» ذقنها مرة واحدة وتراجعت عدة خطوات ووقفت وسط المطبخ ويدها على وسطها وقالت:

ـ احنا ساكتين لحد دلوقتى علشان خاطر آرمن وما قلناش حاجة وبدال ما يشكرنا ضرب آرسينه النهارده فى الأتوبيس قدام الولاد كلهم، ده وقته علشان نقول كل حاجة.

ذكرت أن «آرمن» أحب «إميلى» وأنها تقوم بمضايقته دومًا حيث تخرج وتضحك وتهرج مع الأولاد فى المدرسة أمامه، وأن أحد الأولاد كتب اليوم فى الأتوبيس «آرمن» يحب «إميلى» ، وإميلى بتحب مين؟ «فوق أحد المقاعد بالبنط العريض، وضحك تلاميذ المدرسة وتشاجر «آرمن» مع «آرمينه» و «آرسينه» وقال لهما:

ـ إنتوا للى كتبتوها.

ـ ثم صفع «آرسينه». أخذت «آرمينه» نفسًا عميقًا، وأكملت:

ـ وفى الليلة اللى فاتت، لما كنا فى بيت إميلى، ساعة لما كان آرمن بيكح، السبب إن....

صاحت «آرسينه»:

ـ ماتقوليش.

قالت «آرمينه»:

ـ ليه ماقولش؟ أنا هااقول كل حاجة، فى الليلة دى «آرمن» كح كتير قوى كده علشان إميلى طلبت منه واحنا بنلعب لعبة الأزايز إنه يشرب كوباية خل مرة واحدة، وصبت فيها صلصة حامية كتير من اللى كانت جدتها عملتها.

جلست على المقعد وقد تملكنى الجزع والفزع من تصور احتساء كوب الخل مع تلك الصلصة الحريفة. نظرت التوأمان إلىّ بشعرهما المجعد الذى كان ينسدل من تحت شرائطهما الملونة ووجنتاهما الممتلئة ذات اللون الوردى وهما تنتظران رد فعلى فى قلق.

«أيه اللى حصل؟ أنا كنت فين؟ إزاى ما أخدتش بالى؟» سحبت يدى على جبهتى المبللة بالعرق وسألت:

ـ آرمن فين دلوقتى؟

رفعتا أكتافهما معًا ونظرتا إلىّ فى غضب، نظرت إلى أزهار البازلاء التى كانت تهتز على أثر الرياح، كانت لحظة الغروب، والظلال تسقط على حافة الشرفة، ثمة نحلة تطن حول إحدى الزهار، ما تزال عين «آرسينه» حمراء وثمة شىءتبحث عنه داخل حقيبة المدرسة، أخرجت كراسة وكتابًا ووضعتهما أمامى ثم قالت:

ـ من مدام «مانيا».

كانا عبارة عن مسودة لترجمة كتاب «اللورد فونتيلروى الصغير» مع الأصل الإنجليزى له. طلبت منهما أن تجلسا وتتناولا وجبة العصر، وتوجهت إلى غرفة الجلوس، وجعلت أفكر فى «إميلى» وأنا أجلس على الفوتيه الأخضر بينما وقع بصرى على النوافذ العارية حيث قمت فى ذلك اليوم بغسل ستائرها،

«ممكن ده يحصل؟»

كان «آرتوش» يقول:

ـ أد ايه هى بنت جميلة ولطيفة!

أما أنا فكنت أقول:

ـ «أد إيه هى خجولة!»

وتذكرت ثانية كوب الخل والصلصة الحريفة، ولا أدرى لِمَ تذكرت يوم ولد «آرمن».

كانت ابنة عم «آرتوش» قد جاءت من تبريز مع زوجها وحلا ضيفين علينا، وكانت أمى و«آليس» معنا على مائدة الغذاء، كنت أروح وأجىء بين المطبخ وبين غرفة السفرة وأنا أسمع حديثهم:

ـ البرد ده ماحصلش قبل كده.

ـ ويمكن التلج ينزل.

ـ عبدان والتلج؟ ايه الكلام ده! إحنا مش فى تبريز.

ـ «كلاريس»، ماتمشيش كده، ده مش كويس.

ـ طيب! النهاردة الجناينى علق القوطة كلها على الخشب.

ـ علّق إيه؟

ـ لما القوطة بتطلع بيثبتوا براعمها من تحت بالخشب، وكمان بيربطوا أغصانها على الخشب.

ـ دول مابيزرعوش قوطة فى بيوت تبريز!

ـ همَّ بيزرعوا إيه فى تبريز علشان يزرعوا قوطة؟

فى المرة الأولى التى قمت فيها بزراعة الطماطم كان أول عمل أقوم به عندما أستيقظ من نومى هو التوجه إلى الفناء الخلفى كى أطل على الطماطم التى كانت لا تزال خضراء صغيرة للغاية.وعصرًا، توجهنا إلى «خرمشهر» وقمنا بتوصيل أخت «آرتوش» وزوجها إلى محطة القطار، وعند العودة، وبالقرب من عبدان، فاجأتنى آلام الوضع واتجهنا على الفور إلى المستشفى. ولما ولد «آرمن» كان الوقت فى منتصف الليل وقد بقيت مستيقظة حتى حل الصباح وأنا أرتجف على سرير مستشفى شركة النفط، اعتقدت أن الرجفة والبرودة كانتا بسبب الولادة. وصباحًا حينما أتت «آليس» وأمى إلى المستشفى كانتا ترتديان ثيابًا ثقيلة:

ـ كان الجو بارد قوى إمبارح بالليل.

ـ درجة الحرارة وصلت كم درجة تحت الصفر.

ـ البرد ده ماكانش له مثيل فى الخمسين سنة اللى فاتوا

ـ الورد والخضر كلها اللى فى البلد بقى لونها أسود.

قلت:

ـ القوطة...

احتضنت أمى «آرمن»، وقالت:

ـ كل القوطة والورود الخضراء فدا شعرة من شعر حفيدى.

ـ قبلت «آليس» رأس «آرمن» وضحكت ثم قالت:

ـ شعر إيه؟

وعندما عدت من المستشفى إلى المنزل، توجهت مباشرة إلى الفناء الخلفى. كانت جميع شتلات الطماطم قد أصيبت بالسواد، جلست على الأرض وجعلت أبكى قالت أمى:

ـ اتكسفى من نفسك، إنتى بتعيطى علشان شوية قوطة؟

احتضننى «آرتوش» وساعدنى على النهوض، قالت «آليس»:

ـ ده الاكتئاب اللى بيجى بعد الولادة.

قالت الأم :

ـ كلام ايه ده؟ دخلى الولد علشان مايجىلوش برد.

وداخل الحجرة التى كنا قد أعددناها لـ«آرمن» ، نظرت إلى الستائر التى قمت بتطريزها بنفسى ، وكذلك إلى الصور الملونة للفأر والقط والأرنب والتى قمنا بتعليقها على الحائط. أزاحت المفرش الذى حاكته من على سرير الطفل وقمت بتنويم «آرمن» ومسحت دموعى ثم قلت :

ـ حبيبى الصغير.

مسحت دموعى وأنا أتكئ على ظهر الفوتيه ونظرت إلى السماء الصافية عبر النافذة ، ثمة شخص قدم لطفلى الصغير كوبًا من الخل ، اضطرب قلبى ، فكرت ليته ما كبر حينما كان صغيرًا كان يفعل فقط ما كنت أريده ، ما الذى يأكله ، ما الذى لا يأكله ، أين يذهب ، أين لا يذهب ، والآن... الآن ثمة شخص جعل ابنى يشرب كوبًا من الخل دون أن أنتبه ، فكرت فى «إميلى» ثانية :

ـ «هى اتعلمت ده من مين»

كانت الكراسة لا تزال فى يدى ، فتحتها كان خط «فازجن» واضحًا ومقروءًا ، دومًا يكتب بحبر أسود ، فكرت :

«هااقراها بعدين» .

أغلقت الكراسة ووضعتها على رف الكتب وعدت إلى المطبخ. كانت «آرسينه» و «آرمينه» تتهامسان وما أنا شاهدتانى حتى قفزتا من مكانهما :

ـ «آرمن» جه دلوقتى وراح أوضته.

ـ احنا عملنا حاجة وحشة لما...

ـ لما قلنالك؟

ـ مش هاتتخانقى معاه؟

ـ مش هاتتخانقى معاه؟

طمأنتهما بأنهما لم تسيئا التصرف وأننى لن أتشاجر مع « أرمن « أو أنهره ، وطلبت منهما أن تذهبا للمذاكرة وحل التدريبات.

طرقتُ الباب، فقال من خلفه:

ـ مش مقفول.

كان ممددًا فوق السرير ينظر إلى السقف ويداه تحت رأسه، جلست بجواره، لقد قمت بتغيير ستائر الغرفة منذ أعوام، وأهديتُ مهد الطفل، أما المفرش الصغير فكان داخل إحدى الحقائب فى المخزن، فكرُت: «أنا عملت إيه فى الصور؟» ولم أتذكر. فمنذ عامين حلت على الحائط صور «آلن ديلون»، و«كيرك دوجلاس»، و«روبرت لنكستر»، و«كلوديا كاردينالى» و«برجيت باردو» محل صور الفأر والقط والأرنب.

نظرتُ إليه، وشعرت أننى أنظر إلى مخلوق غريب، فحتى صباح ذلك اليوم كان ابنى ذو الخمسة عشر عامًا لا يزال فى نظرى «حبيبى الصغير»، والآن ... نظرت إلى أهدابه، كانت تمامًا مثلما كانت فى طفولته طويلة ومسحوبة، وبجوار العين اليسرى لا يزال يوجد أثر الجدرى الكاذب الذى أصيب به وهو فى عامه الأول. ورغم هذا كله كان وكأننى أراه للمرة الأولى بعد خمسة عشر عامًا. وبينما كنت أفكر فيما أقوله حتى ساعدنى هو نفسه وقال وهو لا يزال ينظر إلى السقف:

ـ عارف أنى ما اتصرفتش كويس، والذنب ما كانش ذنب «آرسينه».

لو كان الوقت غير الوقت لكان صفع «آرسينه» وحده موضوعًا قابلاً للنقاش، بالتأكيد كنت سأنهره بشدة، لكننى الآن كنت أريد أن يتحدث عن أصل الموضوع، وأتحدث، ونتحدث، عن «إميلى»، وعن الحب وعن حبهما الذى كان مجرد وروده على لسانى شيئًا صعبًا.

لم أكن أعرف من أين أبدأ؟ وكيف أبدأ؟ نظرتُ إلى خريطة إيران المعلقة على الحائط أعلى السرير، ورأيت من على بعد إحدى البحيرات، مددت رأسى إلى الأمام قليلا كى أقرأ اسمها، وعلمتُ أنها بحيرة «بختجان». تذكرتُ لقائى مع مدام «نور اللهى»، وفكرت: «ليه أنا عارفة كل مدن أرمينيا اللى مش باينة على الخريطة ومش عارفة اسم بحيرات إيران؟».

حاولت أن أتذكر أى إحساس كان لدىّ تجاه «آرتوش» فى فترة خطوبتى، فهذه هى الفترة الوحيدة التى أستطيع أن أعدها جزءًا من فترة الحب فى حياتى.

لم أتذكر أشياءً كثيرة، فلم تكن الفترة طويلة من بداية التعارف حتى الخطوبة ومن الخطوبة حتى الزواج.

لقد تقابلت مع «آرتوش» بالقرب من منزلنا بعد أسبوع من حفل عيد ميلاد أحد أصدقاءنا المشتركين، وقبل أن أعرب عن سعادتى أبديت دهشتى، وأبدى «آرتوش» دهشته أيضًا، وقال:

ـ إيه الصدفة الجميلة دى؟

بعد ذلك، وفى اليوم الذى كنا نسير فيه فى شارع سعدى ونأكل حلوى بالمكسرات كنا قد أشتريناها من حلوانى «ميينيون» قال لى:

ـ معنى كده إنك ما فهمتيش إنى جيت متعمد؟

وأبديتُ دهشتى ثانية، وقلت:

ـ إزاى عرفت بيتنا؟

فقال بشكل جاد:

ـ بالتأكيد معرفة العنوان شئ صعب، ولكن ...

لا أدرى ماذا رأى فى نظرتى جعله لم يتوقف عن الاستمرار فى المزاح، فقال وهو يبتسم:

ـ طيب، أنا سألت.

ثم وضع يده على كتفى وقال:

ـ بتعجبنى براءتك.

فكرتُ وعينى على بحيرة «بختجان»: «هوّ أنا كنت بريئة ولاّ ساذجة؟»

سألنى «آرمن» ونظره ما زال معلقا بالسقف:

ـ أنتِ كنتى بتحبى بابا قبل الجواز؟

صعقتُ، فقد كانت الأسئلة المفاجئة والسلوك غير المتوقع وأى شئ لم أكن قد هيأت له نفسى مسبقًا مما يربكنى، وكان «آرمن» أستاذًا فى هذه الأمور.

ها هو ينظر إلىّ الآن بدلاً من السقف وينتظر ردى، نهضت من مكانى ومشيت

ووقفت بجوار الشرفة، تذكرتُ ذلك اليوم الذى مر عليه أعوام طوال حيث لم يكن من المقرر أن يسألنى مدرس مادة الجبر لكنه سألنى، ولم أستطع حل المعادلة المكتوبة على السبورة، كنت أشعر بنظرات زملائى فى الفصل من خلفى، كنت أرى مدرس الرياضيات بطرف عينى ينتظر الأجابة فى ضيق وهو ينقر بأصابعه على المكتب، كنت غارقة فى عرقى وقلبى يخفق بشدة، وأنا أقول فى نفسى:

« يارب، ساعدنى، وخلى الوقت ده يمر بسرعة».

والآن، لم يكن قلبى يخفق بشدة، ولم أكن غارقة فى عرقى، لكننى كنت أريد أن يمر الوقت سريعًا، قلتُ وعينى على شجرة النبق وظهرى إلى ابنى:

ـ أنا كمان زيك، ما كنتش باحب الرياضة.

لم يخرج آرمن من حجرته حتى الليل، وحينما ناديت عليه كى يتناول العشاء صاح من خلف الباب:

ـ أنا مش جعان.

تناولت التوأمان وجبة العشاء فى صمت، وقامتا بتفريش أسنانهما بالمسواك فى صمت، وارتديتا ملابس النوم ونامتا.

فى هذا اليوم، لم تطلبا حكاية، لم تتذرعا بالحجج المعتادة لتتأخرا فى النوم، وفى تلك الليلة لم يختف إيشى ولا رابونزل.

كان « آرتوش» جالسًا أمام التليفزيون وفى إحدى يديه كتاب خاص بتعليم الشطرنج ويده الأخرى على ذقنه، وكان الشطرنج فوق المائدة. جلستُ بجواره وشاهدت التليفزيون لعدة دقائق، كان يعرض فيلمًا وثائقيًّا عن نخيل نواحى الأهواز، قلت:

ـ ماما معاها حق، بعد كده لازم نراعى حدود الاختلاط مع عيلة سيمونيان.

ظلت يده ساكنة على ذقنه، وقال:

ـ إزاى؟

فتحدثت، واستمع إلى حكاية كوب الخل والصلصة الحريفة، وضحك حينما وصلت إلى ما كُتب داخل الأتوبيس وضرب « آرمن» لـ« آرسينه»، ثم عاد إلى الكتاب والشطرنج، وقال:

ـ ماتاخديش الموضوع جد، دُول عيال، بالمناسبة، « إميل » استأذن علشان ييجى بكره بعد الضهر، علشان يغير تربة الأصيص؟ علشان يزرع ورد؟ فيه حاجة كده أنا مش فاكرها كويس.

وما هى إلا لحظات حتى نسيت « آرمن » و « إميلى » وكوب الخل ومراعاة حدود الاختلاط مع أسرة « سيمونيان ». برمتُ الشعر حول إصبعى، وقلت:

ـ جميل جدًا، يعنى هوّ مانسيش.

حرك « آرتوش ». بيدق الشطرنج من مكانه، وقال:

ـ مانسيش إيه؟

وفى الفيلم، ظهر عربى يتسلق نخلة، قلت:

ـ هوّ قال من كام يوم إنه هاييجى يغير تربة زهور البسلة، وافتكرت ساعتها إنه بيجامل.

رفع آرتوش رأسه ونظر إلىّ للحظات، ثم قال:

ـ زهور البسلة؟

قلت:

ـ زهور البسلة اللى موجودة على شباك المطبخ.

قال:

ـ المطبخ؟

أخذت نفسًا عميقًا واتكأت على المسند وركزت ببصرى على التليفزيون. كان العربى يتسلق النخلة بسرعة، قلت:

ـ احنا لينا بيت، وللبيت ده مطبخ، وللمطبخ ده شباك حاطين على الحافة بتاعته أصيص من سنين، وأنا باازرع وردة البسلة فى الأصيص ده مرة كل سنة، والتربة بتاعتة بتتغير مرتين كل سنة ...

كان العربى قد بلغ أعلى النخلة، لف آرتوش قطعة الشطرنج فى يده، وقال:

ـ آاه!

ثم ابتسم فى سخرية وقال :

ـ خد أجازة علشان يغير تربة الأصيص؟ صحيح ده ...

إنه لم يأخذ أجازة من أجل الأصيص فقط ، فقد كان يريد زرع الأزهار فى فنائهم أيضًا.

وتذكرتُ ثانية كوب الخل والصلصة الحريفة ، وقلت :

ـ بس أظن من الأحسن إننا نقلل اختلاطنا مع عيلة « سيمونيان » .

أغلق كتاب الشطرنج وقال وأصابعه فى الكتاب :

ـ هاتعملى تانى من القشة جبل؟ دُول عيال؟ بيتخانقوا ، ويتصالحوا ، وبعدين يتخانقوا ، وإيه علاقة اختلاطنا أو عدم اختلاطنا بالحاجات دى؟

قلت فى نفسى :

« سبب قلقك هو افتقاد شريكك فى لعبة الشطرنج » .

ثم قلت بصوت عالٍ :

ـ معاك حق ، من إمتى وأنا ماباضخمش الأمور؟ كل مرة اتكلم معاك فيها عن حاجة أضخم اللى حصل.

نظر إلى السقف للحظات ثم إلى التليفزيون ثم وقف وألقى بكتاب الشطرنج على المائدة وخرج من الغرفة. تدحرج بيدق الشطرنج الأسود واستقر تحت الفوتيه.

ابتسمت السيدة « دوراندیش » مذيعة التلفاز ، وقالت :

ـ نتمنى لكم ليلة سعيدة.

وكتمت الغضب بداخلى.

ـ ٢٣ ـ

لم تكن آليس من شدة الانفعال تستطيع أن تتحدث بشكل صحيح.

قالت :

« اتصل ، تصدقى؟ اتصل بالمستشفى. عزمنى على العشاء فى النادى » .

كانت تضحك ، وينتابها الفُوَاق. وتلف حولنا أنا وأمى ومائدة المطبخ.

قامت أمى وفتحت باب الثلاجة ، وصبت الماء فى الكوب وناولته لآليس.

وقالت : « يا ساتر يارب ، دى اتجننت » .

وأخيرًا ، هدأت أختى. لم تذق الحلوى ، ولم تشرب القهوة ، وحكت لنا اتصال يوب هانسن بتفاصيله الهامة وغير الهامة. ثم قامت ووضعت حقيبتها تحت إبطها وسارت ناحية الباب. اصطدمت قدمها بالمقعد ، وبالمائدة ، وأوشكت رأسها أن ترتطم بالجدار إلى أن وجدت الباب أخيرًا ، وقالت متلاحقة الأنفاس :

« أخذت ميعاد من الكوافير، لازم أكون فى النادى ثمانية مساءً » . وذهبت وهى لا تزال تعانى من الفواق.

حملقنا أنا وأمى فى وسط المائدة ، حملقت أمى فى السكرية ، وأنا فى الملاحة.

ثم قالت أمى

ـ « تفتكرى أيه الموضوع » .

غلبنى الضحك من منظر أمى الخائف القَلِق. كانت أمى تخشى أى حادث يقع ، وتنزعج من كل أمر يَجِدْ ، وكانت دائمًا قلقة لأن آليس لم تتزوج حتى ذلك الوقت ؛ فإذا ما ظهر فى حياتها رجل استولى عليها الرعب.

كنت أنا نفسى مندهشة من سلوك الرجل الهولندى ليلة أن دُعينا عند نينا ، ولما أبداه من اهتمام بـ « آليس » . وازدادت دهشتى الآن حين دعاها ولم تمض غير بضعة

أيام. لكننى كنت مسرورة ؛ أولاً لأن أختى ستنصرف بلا شك عن تلك الخطة العجيبة التى وضعتها لـ إميل سيمونيان ، وثانيًا لأننى قلت لنفسى « من يدرى؟ ربما ....

قالت لى أمى وكأنها كانت تقرأ أفكارى :

« مستحيل ، نينا كانت بتقول إن الراجل التاف ده عجبته الست اللى جاية من طهران ، هى اسمها أيه؟ بنت خالة جارنيك طيب اتصاله بـ « آتشو » ده معناه أيه؟ » بما أن أختى لم تكن موجودة راحت أمى تدعوها باسمها فى طفولتها وهى مرتاحة الخاطر ودون أن تخشى إثارة المشكلات والجلبة. قمت من مكانى ، وفتحت ضلفة الشباك لأروى مزهرية ورود البازلاء حاولت أن أفسر لأمى هذا الأمر العجيب نسبيًا بأسباب كانت ضعيفة وغير مقبولة بالنسبة لى أنا نفسى.

جلست أمى واضعة يدها على صدرها فى هدوء وانتظام وقالت فقط :

« مستحيل ، مش ممكن ، شوفى بقى أيه الخطة اللى رسمها الراجل التافه ده » .

تذكرت الليلة الماضية « قال إميل إنه قادم ليغير تربة إصيص الورد » .

سررت للحظة ، ثم تذكرت الحذاء الأسود الذى لا يزال موجودًا بالتأكيد تحت فوتية حجرة الجلوس. انتظرت أمى أن يعود مغتاظًا فلم يعد. فكرت أن يؤجل روى الإصيص حتى يتم تغيير الطين به.

وضعت رشاشة الماء على الرف واستدرت ناحية أمى :

« ربما يكون معجب بـ آليس فعلاً ، وفيه أيه أحسن من كده؟ » نظرت إلى ساعة الحائط.

مش أحسن تكونى فى البيت؟ وخللى بالك علشان ما تتزوقش كتير زى عوايدها ، أنا لازم أجهز وجبة العصر للأولاد ، دول خلاص قربوا يرجعوا من المدرسة » .

قلت لنفسى « سأكون مستريحة أكثر لو لم تكن أمى موجودة ؛ لأنى أريد أن أتحدث مع إميل وآرمن » .

كانت أمى مشغولة البال بـ « آليس » والرجل الهولندى إلى حد أنها لم تقل شيئًا عن مجئ الأولاد من المدرسة وذهاب آليس ، كانت لا تزال قلقة ، رددت عدة مرات « يا مريم المقدسة ، عديها على خير » ، وذهبت ووقفت وسط المطبخ عدة لحظات.

كان الجانبان الموجودان فىَّ يتجادلان. وانتهى الأمر بأن قال أحدهما للآخر:

«الترتيب مش ذنب».

ذهبت إلى حجرة النوم، ومشطت شعرى ووضعت أحمر الشفاه على شفتى ثم غسلت يدىَّ ودهنتهما بالكريم ونظرت إلى ساعتى. ليتنى كنت أعرف فى أى ساعة سيأتى. وفكرت فيما كان ينبغى أن أنجز من أعمال.

كوى ملابسه التوأمان، وترتيب أدراج حجرة آرمن، وجمع الأمتعة المغسولة من الفناء الخلفى. وبدلاً من أن أفعل هذا كله ذهبت وجلست على الفوتيه الأخضر فى حجرة الجلوس وفتحت مذكرة اللورد فونتلروى الصغيرة.

فى القرن التاسع عشر، تزوجت امرأة أمريكية برجل إنجليزى وارث للقب اللورد. إن ترجمة ڤازجن سلسة وبسيطة كالعادة.

هل تعرف مدام سيمونيان أن ابنها آت إلى بيتنا؟ ولم لا؟

يغضب قلب اللورد الكبير لأن ابنه تزوج بفتاة أمريكية فيحرم الابن من لقب اللورد. بالتأكيد ستعجب هذه القصة التوأمين.

لم أكن أضع أحمر الشفاه فى البيت أبدًا. الجملة طويلة جدّا. لنقسمها إلى جملتين. أين قلمى الرصاص؟ لقد أخذه الأولاد من جديد حتمًا.

لا يبقى أى شئ فى هذا البيت فى مكانه أبدًا. ينجب ابن اللورد والفتاة الأمريكية ولدًا. (بتعملى من القشة جبل) يتحدث لساعات طويلة حول الأمور التى ليس لنا بها أى شأن، ولا يكترث لأمورنا نحن ويذهب.

أى شئ أهم من الأولاد؟ يموت ابن اللورد. هذا الجد كم هو إنسان أنانى. كم هى مسكينة هذه المرأة الأمريكية. وآرتوش أنانى، أنانى جدًا.

دق جرس الباب فانتفضت من مكانى، وقبل أن أصل إلى الدهليز مسحت أحمر الشفاه بمنديل ورقى.

كان يرتدى بنطلونًا بنيًا وقميصًا أبيض بأكمام قصيرة. وضع أصيص تربة صغير فى الفناء تحت شرفة المطبخ. وبمجرد أن جئت لأرفع الإصيص قال لى:

ـ ما «تشيلهوش، وما تلمسيش التراب كمان، ناولينى الفاس الصُغَيَّر».

لماذا تذكرت شاهنده؟

كنا قد اشترينا حقيبتى سفر من سوق الكويتيين. كنت أسير خلف آرتوش وأنا أحمل حقيبة فى كل يد متجهين إلى السيارة التى كنا نركبها بجوار متجر شاهنده. خرج شاهنده من المتجر وحَيَّانا، ونظر إلى الحقائب ثم إلىَّ، ثم قال لـ آرتوش وهو يبتسم « يا باشمهندس، إنت لقيت شيال جميل ».

فى المساء قال آرتوش « شاهنده راجل بيحب الهزار، إنت اتضايقتى من كلامه؟

غيَّر إميل تربة الإصيص ووقف، ثم قال « كويس، إحنا خلصنا الشغل ».

قلت له « شغل حضرتك خلص. أنا كنت باتفرج بس ».

مسح جبهته المبللة بالعرق بظهر يده ونظر إلى وقال:

ـ « حضرتك لأ، شغلك بس ».

ثم ابتسم « روى الإصيص باميه عليكِ أنتِ، هو الصابون المعطر لسه موجود؟ ».

رويت الإصيص، بدأ الجانبان يتصارعان فى داخلى من جديد. ولم يكن الأول يعطى للثانى أى فرصة ... إنتى ليه مستعجلة كده؟ ليه ما بتلفيش حوالين حنفية الميه وانت بتتطوحى زى عوايدك؟

ليه بترميه على الأرض؟ وليه بتبصى فى الساعة تانى؟ وليه افتكرتى إن آرتوش قال إنه ها ييجى متأخر النهاردة؟ وليه مش فاكرة السبب الى هايخليه يرجع متأخر؟

قاطع الثانى كلام الأول.

« عاوزه أتكلم عن إميلى وآرمن قبل رجوع الأولاد، هو ده السبب ».

أعددت القهوة وأصررت على أن نجلس فى حجرة الجلوس. كنت قد غسلت الستائر وكويتها وعلقتها صباح اليوم. وفكرت أن أتحدث بعد تناول القهوة.

كانت المذكرات التى ترجمها قازجين وكتاب اللورد فونتيلروى الإنجليزى الصغير على المائدة. أخذ الكتاب وتصفحه، ثم نظر إلى المذكرات وقال لى:

« إنتى اللى ترجمتيه؟ ».

وضعت فناجين القهوة على المائدة، وما أن بدأت فى التوضيح حتى قال:

«إفتكرت هو ده الكتاب الى كانت مدام مانيا بتتكلم عنه؟» فأجبته نعم، وسألت نفسى أهو الكتاب الذى بقى فى ذاكرته أم أنها مدام مانيا؟. إتجه ناحية دولاب الكتب وانحنى يقرأ الأسماء:

«إنتى عندك كل اعمال ساردو تقريبا ما عدا كتاب واحد أو كتابين».

لا أعرف كيف بدأت، ولكننى بدأت، بدأت أتحدث عن ساردو وعن أى واحد من كتبه الذى يعجبنى، وأيها الذى لا يعجبنى، وعن سبب إعجابى أو عدم إعجابى، وتحدثت كذلك عن السيد داواتيان فى ساردو ، السيد داوتيان هو صاحب مكتبة آراكس لبيع الكتب، ومكتبة آراكس توجد فى طهران عند تقاطع قوام السلطنة. وأنا أحب هذا المكتبة جدًا. وحين أذهب إلى طهران تكون هى أول مكان أمر عليه، وأبقى فيه لساعات طويلة، وكنت قد اتفقت مع السيد داوتيان على أن يرسل لى الكتب من طهران، إننى لم اقرأ كل كتب ساردو وبالطبع، تحدثت وتحدثت وتحدثت.

حين ظهر الأولاد على باب الحجرة سألت نفسى كيف لم أسمع صوت أتوبيس المدرسة؟

كان إميل ينظر إلى فقط طوال الوقت وهو يضع كوعه على مسند الفوتيه، ويده تحت ذقنه.

ـ ٢٤ ـ

كنت أغسل الباذنجان حين دخلت آليس وأمى.

راحت أمى ترطن بدلاً من أن تسلم علىَّ، وجلست على المقعد، وعينها معلقة بالسقف.

وبدأت آليس قبل أن تجلس تقص ما حدث فى الليلة السابقة:

«أولاً عشرين درجة فى الذوق واللياقة، ده بمجرد ما دخلت المطعم قام من على الترابيزة وحيانى».

أوشكت أن أسأل لماذا لم يأت إليك؟ ولكنى ابتلعت كلامى وسألتها «تشربى قهوة؟» هزت رأسها بانفعال بما يفيد أنها لن تشرب قهوة، وواصلت حديثها متلاحقة الأنفاس.

«اتكلم عن كل شىء. عن أمه اللى عايشه مع خالته قرب مدينة صغيرة جنوب هولندا فى بيت قريب من الغابة، تمام زى الأكواخ المصورة على كروت التهنئة.

بدأت فى إعداد القهوة لنفسى ولأمى التى كانت تنظر إلى آليس بعصبية.

أعادت آليس المقعد إلى الخلف ووقفت واتجهت ناحية الثلاجة. وواصلت حديثها قائلة «وَرَانى صورة للبيت وكام صورة لأمه وخالته.» فتحت باب الثلاجة وأخذت زجاجة ماء «خالته المسكينة مشلولة وتتحرك على كرسى متحرك.» ملأت الكوب بالماء «يوب قال إن احنا اللى عايشين فى عبدان لازم نشرب مية كتير». شربت كوبين من الماء «خالة يوب زى الملايكة بالضبط من جمال أخلاقها وحنانها». وشربت الماء مرة ثانية. «وأمه زى خالته تمام، كأنها جوهرة، من حنانها وجمال أخلاقها».

وشربت بقية الماء.

«المسكينة بتراعى أختها من سنين طويلة، وبعدين ابتدت هى كمان تشتكى من بعض الألم فى ضهرها.» وضعت الكوب الخالى على الرف».

«يوب قال إن أمه وخالته مابيزوروش حد، وهُما بس نفسهم يوب يتجوز وياخد مراته معاه هناك، ويعيشوا كلهم مع بعض فى البيت الجميل ده».

رفعت كنكة القهوة من على النار، وأطفأت الموقد، وصببت لنفسى ولأمى القهوة.

كانت آليس تروح وتجىء ونظراتها تتجه إلى كل مكان إلا أنا وأمى.

«مفيش حد خالص حوالين البيت لمسافة كيلومترات، والصبح بدرى ممكن تشوفى الغزلان من الشباك ده مش حلم؟ وبالليل ممكن تسمعى أصوات الثعالب».

قالت أمى «يا مريم المقدسة».

غسلتُ الكوب الخالى ووضعته فى الصفاية وجلست خلف المائدة. وجلست آليس كذلك. «أد ايه هو راجل لطيف، شديد الإحساس، أد إيه هو يتحب، أد إيه هو حنون. سأل عن كل شىء، فين اتعلمت التمريض، باشتغل من امتى».

وضحكت «.... فى البداية كان فاكر إنى ممرضة عادية، وفهم بعد كده إنى مشرفة على أوضة العمليات، أظن انه اندهش جدًاوأعجب بى. «سألنى إمتى اتعينتى وباقبض مرتب كام، ولو استقلت هااخد كام من الشركة الخلاصة أنه سأل عن كل شىء لو مكانش عنده رأى معين كان هايسأل ليه؟ مش كده؟ إنتى إيه رأيك؟»

وبدلاً من أن أجيب على سؤالها ناولتها الحلوى.

قالت أمى «أختك شايفة اللى أنا شايفاه وهو إنك حمارة».

أعادت آليس الحلوى ووقفت وكأن أمى لم تتكلم، وكأننى أنا لم اكن صامتة، ثم قالت: «عزمنى يوم الخميس وهو أجازة عندى علشان نروح قلعة عبد الله علشان لازم يفتش على مشروع هناك، ماأعرفش هو أيه فى وسط الصحراء بالظبط».

المفروض إنى أجهز ساندويتشات ناكلها هناك فى الصحرا، يوب بيعشق الصحرا والخلا والشمس».

نطقت كلما الصحرا والخلا والشمس تمامًا كما لو كانت كلمات قطعة شعر فى العشق. ورفعت يديها إلى أعلى قليلاً، واتجهت ببصرها إلى النافذة وفجأة صاحت أمى: «إنتى ليه مابتفهميش؟»

دُهلت آليس «إنتى اللى مش فاهمة حاجة. هو بنفسه قال إنه حبنى من المرة الأولى اللى وقعت عينه علىّ فيها».

بدأت أمى فى الصياح والصراخ، نظرت إلى الحلوى التى فى يدى، ألم أكن أنا من لا أحب حلوى العسل؟ ألقيتها فى منفضة السجائر وقمت من مكانى بدأت فى تقشير الباذنجان. لماذا كانت أختى حمقاء إلى هذه الدرجة؟ لماذا كانت أمى تكرر الكلام الذى قالته مائة مرة بمناسبة ودون مناسبة؟ لماذا كانت حالتى سيئة إلى هذه الدرجة؟ حين جرحت إصبعى صرخت ولم يكن ذلك بسبب الألم بشكل كبير.

انتفضت أمى من مكانها وسألت «ايه اللى حصل».

غسلت الدم تحت صنبور حوض غسيل الأطباق وقلت «ماحصلش حاجة». بدأت أمى وآليس فى النقاش من جديد. وسألت نفسى:

«ماذا حدث؟» وأجبت نفسى: كوب الخل والصلصة الحراقة، وليلة إمبارح الوحشة مع آرتوش حماقة آليس. نصاحة الرجل الهولندى، زعيق أمى وصراخها و ـ يا ترى إميل سيمونيان قال ايه؟ أد ايه فضلت اتكلم بشكل متصل؟ نص ساعة؟ ساعة؟ وذبت خجلاً.

كانت أمى تقول: «كل ده بسبب نينا. قلت لها ميت مرة احنا مش لازم نختلط بالناس دول».

قالت آليس «ماتزعقيش من غير سبب. إيه دخل نينا فى الموضوع ده؟»

كان إميل قد قال عند رحيله «أشكرك على القهوة وكل الأحاديث الجذابة دى».

كان يسخر منى بالتأكيد، وكنت أستحق هذا.

ألقت امى الملاحة على الأرض وقالت «يعنى انتى مش فاهمة إن الراجل ده بيدور على شغالة من غير أجرة؟»

ضربت آليس سكين الفاكهة على المائدة بشدة وقالت «أنتم اللى مش فاهمين».

وضعت الباذنجان فى المصفاة، وكان جانبا الصراع يجولان فى ذهنى.

«مادمت موجودة فلا تظهرى الفضل «نثرت الملح على الباذنجان. وساعدنى الجانب الحنون «إنها لم تظهر الفضل، لقد تحدثت عن الأشياء التى تحبها.» دخل الملح

فى الجرح فالتهب إصبعى مصصت مكان الجرح ونظرت إلى زهور البازلاء. وسألنى جانبى القاسى «منذ متى ونحن نتحدث عن هذه الأشياء التى نحبها؟» وراح جانبى الثانى يبحث عن رد.

عدت مع صوت أمى: «إنتى سرحانة فى إيه يا كلاريس؟ ماتقولى حاجة؟»

التفتتُ ناحية أمى وإصبعى لا زال فى فمى. دخلت التوأمان «خلصت واجبات المدرسة».

أخرجت إصبعى من فمى واتجهت ناحية الباب وصرخت فيهما «اخرجوا» جعلت البنتان تحملقان فىَّ أولاً، ثم نظرتا إلى أمى التى كانت هى أيضًا ثائرة. ثم نظرتا إلى آليس التى كانت تقشر التفاح فى برود ثم حملقتا فىَّ مرة ثانية. مضت فترة طويلة لم تسمعا فيها كلمة «لا». استدارت البنتان

«يا ترى ممكن إننا ـ إميلى...».

قاطعتهما قائلة «اخرجوا».

عادت أمى ناحية آليس «يعنى فى مرة واحدة شافك فيها....»

قالت آليس «مرتين»

قالت أمى «وبعدين كذا مرة ـ الله يرحمه ـ لو كان عايش..»

أغمضت عينىَّ ووضعت يدى على جبهتى، هل كان يجب أن أقول لـ «آليس» معك حق؟

كانت البنتان لا تزالان فى الدهليز حين دق الجرس.

ـ «أهلاً خالتى نينا»

ـ أهلا خالتى «ڤيوليت».

ـ إيه الفستان الجميل ده اللى إنتى لابساه يا صوفى.

ـ «أهلاً وسهلاً بكم».

أهلاً وسهلاً بكم؟ جعلتنى الهيئة التى بدت عليها أمى اظن أنها سوف تتشاجر الآن.

وضعت آليس التفاحة فى الطبق. «نينا؟ هايل!».

علا صوت نينا من الدهليز «فين صاحبة البيت؟».

وصلت إلى الدهليز، وأصررت بشدة على أن نذهب إلى حجرة الجلوس، فقالت نينا «لا»، اشتقت لكوخ فى هنزل وجرتل «ودخلت إلى المطبخ «الله، الله، ومدام سكانيان وآليس كمان هنا، أهلاً، أهلاً».

اتجهت آليس ناحية نينا وڤيوليت فاتحة ذراعيها واحتضنتهما وقبلتهما. لم ترد أمى تحية نينا. نظرت ڤيوليت حولها وقالت «أد ايه المطبخ ده جميل».

قالت آليس لـ«نينا» كنت لسة دلوقتى حالاً باقول لـ«كلاريس» إن نينا وحشتنى جدًا». نظرت أمى شزرًا إلىَّ وإلى نينا وڤيوليت وإلى الباب وجدار المطبخ. وحين سألت «ياترى فيه كراسى تكفى الجميع؟».

دق جرس الباب من جديد، وعلا صوت آرمينه وآرسينه قادمًا من الدهليز:

«أهلاً عمو إميل».

ـ أهلاً مدام سيمونيان.

ـ «كنا جايين ليكى يا إميلى».

ـ «كلهم فى المطبخ».

ـ لم أجد فرصة للتفكير ولا للحركة، كانت أمى وابنى واقفين عند باب المطبخ.

ساد الصمت عدة لحظات إلا من صوت ڤيوليت التى كانت تترنم بلحن هامس. كانت قد فتحت ضلفة الشرفة وراحت تشم ورود البازلاء وهى تعطى ظهرها لنا.

ـ كانت أختى هى أول شخص قطع هذا الصمت؛ حيث اتجهت ناحية مدام سيمونيان مرحبة بها ومدت يدها.

ـ نهاركم سعيد، انا آليس وسكانيان أخت كلاريس»

كانت التوأمان واقفتان مع صوفى وإميلى خلف آل سيمونيان، وهما تضحكان وقبل أن تتلاقى نظراتى ونظراتهما خرجتا. لو كان الوضع عاديًّا لأضحكتنى نبرة الترحيب غير العادية لآليس وحجمها الضخم بجوار حجم مدام سيمونيان ثم جعلت

آليس تصافح إميل وهى تقول «اتشرفنا كنت مشتاقة لزيارة جنابكم، ووالدتكم المحترمة. كلاريس حكت لنا كتير عنكم» متى حكيت أنا؟ ولماذا تتحدث آليس بشكل رسمى هكذا؟ ولماذا اجتمعت المدينة كلها اليوم فى مطبخى؟

قال صوت: «إيه الزهور اللى ريحتها جميلة دى!»

عدنا جميعًا ناحية النافذة، كانت ڤيوليت ببلوزتها الحمراء وتنورتها الكلوش البيضاء وقرطها المستدير كالحلقة تتكىء على إطار الشرفة، شعرها يبدو تحت وهج النور الذى يسطع من النافذة أفتح لونًا.

بعد أن قدمت الجميع لبعضهم بعضًا، دعوتهم لنذهب إلى حجرة الجلوس، قالت مدام سيمونيان إنهم كانوا ذاهبين إلى سوق الكويتيين، وأنهم مروا علينا لأن إميل كان يريد أن يعطينى شيئًا. ثم أومأت برأسها لـ«نينا» واستدارت ناحية أمى التى كانت تسأل عن شىء ما.

كانت آليس ترحب بإميل وأمه بنظرات عينها خلسة حتى لا يراها أحد وضعت يدها حول خصر نينا وسارا معا ناحية حجرة الجلوس بينما كانت تقول لـ«آليس» تقول:

«أنا سعيدة جدًا إنى شفتك. كنت ناوية أتصل بيكى الليلة».

وكانت أمى تقول لـ«مدام سيمونيان»:

الله يرحمه أبوهم كان صاحب المرحوم أبوكى، وكان معزوم كمان فى حفل زفافك. أنا طبعًا ماكنتش موجودة عشان كنت صغيرة ولكن...».

دعوتهما ثانية لنذهب إلى حجرة الجلوس، قالت مدام سيمونيان شيئًا بصوت خفيض وعادت ناحية ابنها وكذلك فعلت أنا. تابعت نظراتنا نظرة إميل حتى وصل إلى الشرفة. كانت ڤيوليت تدير وردة باذلاء بيضاء فى يدها وهى تبتسم.

قالت أمى: خسارة إنكم بعتم البيت الكبير الجميل ده، دا أنا كنت امبارح باقول لـ«كلاريس»

قالت مدام سيمنيان:

ـ إميل.

عادت تكرر ما قالته قبل قليل :

ـ امبارح أنا كنت باقول لـ« كلاريس » .

ـ عندئذ صاحت مدام سيمونيان بصوت أعلى « إميل » ! « فعاد وخرج من المطبخ. جريت وراء إميل الذى جرى وراء أمه تقريبًا. وفى الممر الضيق عاد ومد يده ناحيتى باللفة التى كانت فيها وقال « إمبارح فتحت صندوق الكتب.... » .

صاحت مدام سيمونيان « إميلى ! » .

مددت يدى وأخذت اللفة ورفعت رأسى ونظرت إليه لم يكن هناك أحد فى الفناء ، وكان الباب المعدنى نصف مفتوح. عدت إلى المطبخ.

أخذت أمى تمسح الرف ، وكانت من عادة أمى أن تعمل بشكل سريع ولكنها فى الأوقات التى تكون فيها عصبية ـ مثلما هى الآن ـ فإن حركاتها تشبه الأفلام القديمة سريعة ومتقطعة. كانت ڤيوليت تحملق فى أمى ، وحين رأتنى قالت « دى بتشتغل بسرعة شديدة جدًا ، صحيح إن جارتكم ست لطيفة وظريفة ولكن يبدو أنها اتضايقت من حاجة ، مش كده؟ » .

استدارت أمى ناحية ڤيوليت « أيوة اتضايقت لما سألتها باعت بيت بالجمال ده ليه ، واتعصبت لما فهمت إنى عارفة كل حاجة عن حياتها ، وإنها ماتقدرش تتباهى بنفسها قدامى بالكذب ، اتضايقت لما قلت إنى كنت طفلة لما هىَّ اتجوزت. وأنا ماكذبتش « أدارت ظهرها لنا وهجمت على الرف من جديد. ظلت ڤيوليت فاغرة فمها لعدة لحظات وهى تنظر إلى يد امى وهى تدور بسرعة على الرف ثم أزاحت خصلة الشعر التى انسدلت على وجهها وقالت « آه عشان كده اتضايقت »

أخذت المنشفة من يد أمى ، وحملتها على الذهاب إلى حجرة الجلوس برفقة ڤيوليت حين صرت وحيدة وضعت كلتا يدى على رأسى للحظات وتنفست الصعداء ، ثم وضعت كنكة القهوة على الموقد. لم أكن فى حالة طيبة ، فقد كنت منفعلة وعصبية وحزينة. هل بسبب آليس؟ أم بسبب أمى؟. أم بسبب نينا التى جاءت فجأة؟ أم بسببى أنا نفسى؟ ما الذى دعانى أن أجرى خلف إميل وأمه؟ بدات القهوة تفور وتعلو من جوانب الكنكة ، وكلما كانت الدائرة التى فى وسط القهوة تصغر كانت أنفاسى

تتسارع. وفى نفس اللحظة التى كان يجب أن أطفىء فيها الشعلة سمعت صوتين يقولان معًا فى نفس واحد».

«ماااا ماااا ممكن تسمحى لنا إننا...».

رجعت وصرخت «لا مش ممكن أسمح لكم...».

التفتت مع فوران القهوة، ونظرت إلى كنكة القهوة نصف الفارغة وإلى الموقد الذى تقذَّر وأغمضت عينى.

سمعت صوت آرمينه آتيًّا من الدهليز.

«هى عصبية عشان القهوة فارت» وآرسينه تقول:

ـ لا، من البداية كانت عصبية، وبعدين فارت القهوة.

غسلت كنكة القهوة تحت صنبور حوض غسيل الأطباق، ومن جديد وضعت البن، والسكر، والماء.

حين دخلت حجرة الجلوس حاملة بين يدى صينية القهوة كانت آليس تقول لـ«نينا» تعب ايه، لأ مفيش تعب خالص، انا هااتصل دلوقتى بـ«جارنيك». ثم رأتنى وقالت:

«اتفقنا إننا هانتعشى مع بعض». ممكن تتصلى بـ جارنيك؟

لا أعرف ماذا رأت فى نظرتى جعلها تعدل عن قولها وتقول «أقول لك هااتصل أنا بنفسى» ذهبت إلى الدهليز.

وضعت فناجين القهوة على المائدة وجلست بجوار نينا مباشرة وحاولت أن أسمع ماذا تقول. كانت أمى جالسة على حافة أحد مقاعد السفرة وشفتاها مضمومتان ونظراتها تحملق فى السجادة.

عادت آليس إلى الحجرة وهى تقول:

«جارنيك قال إنه عنده نزلة برد، وخايف إننا ناخد منه العدوى. وقال كمان إن نينا وڤيوليت مش لازم يقلقوا عليه وبيقول استمتعوا بوقتكم، ده راجل رقيق فعلاً»

ثم استدارت إلىّ قائلة:

«وسعى شوية، عاوزة أتكلم مع نينا».

بمجرد أن قمت علا من الدهليز صوت صياح وصراخ، ثم صوت إغلاق باب بشكل قوى وكسر زجاج، تلاه صراخ صوفى وهى تبكى: «إيدى، آه إيدى»

جرينا جميعًا إلى الدهليز. كانت الشراعة الزجاجية لباب حجرة آرمن مكسورة وقطع الزجاج متناثرة على أرضية الدهليز.كانت صوفى تمسك معصمها بيدها وهى تصرخ، والتوأمان تصيحان «إيد صوفى إتجرحت».

تقطعت أنفاسى وقلت فى نفسى «ربنا يستر ما يكونش شريان البنت اتقطع؟».

أمسكت نينا بساعدى بإحكام وقالت «ياحضرة المسيح! شفت المصيبة اللى حطت على راسى هااعمل إيه أنا دلوقتى؟»

كانت صوفى منحنية لا تترك معصمها أبدًا وتصرخ بشكل متصل، والتوأمان تضمان بعضهما بعضًا وتبكيان. وكانت أمى تلطم خدها وتقول «الله يلعن الشيطان» تقدمت آليس بسرعة لا تلائم هيكلها الضخم وأمسكت بيد صوفى وصاحت «سيبيها عشان أشوف حصل إيه»

صمت الجميع لحظة ورفعت آليس معصم صوفى بحيث رأينا جميعًا الخدش البسيط الذى ألَّم به.

انحنت آليس وحملقت فى وجه صوفى وقالت: أول امبارح جابوا فار مصاب بالإصابة دى نفسها للمستشفى، عارفة حصل له إيه؟

نظرت صوفى إلى آليس بعينين دامعتين؛ فقالت «آليس»:

ـ «مات» وانخرطت فى الضحك.

تركت نينا ساعدى وذهبت واحتضنت صوفى وهى تقول «الحمد لله».

وتوقفت أمى عن لطم خدها وقالت «الحمد لله».

وقلت أنا فى نفسى الحمد لله».

احتضنت التوأمان صوفى التى كانت مضمومة الشفاة وقالت «آاااخ»!

جاءت آليس ناحية نينا وقالت «كلاريس هاتطهر الجرح دلوقتى، تعالوا نحكى بقية الموضوع». ووضعت يدها تحت ذراع نينا وحين رأت صوفى أمها ذاهبة عاودت البكاء من جديد.

ذهبت إلى الحمام وفتحت دولاب الأدوية وأخذت منه زجاجة الديتول والقطن وعدت إلى الدهليز. كانت صوفى ما تزال تبكى، فاحتضنتها نينا مرة أخرى، وجعلت التوأمان تصرخان أمام باب حجرة آرمن المغلق وتقولان «دى غلطتك أنت».

وكان آرمن يصرخ من خلف الباب «وأنا ايه دخلى أنا»، وأمى تصرخ فى الأولاد:

ـ «اسكتوا».

وقعت عيناى على ڤيوليت التى كانت تسوى شعرها أمام المرآة الموضوعة فى الدهليزوقد أمسكت بين أسنانها بمشبك شعر ذى فص. أين كانت طوال هذا الوقت؟

صرخت فىَّ آليس: «خلصى إنتى بتتلكعى كده ليه»! واختطفت القطن والديتول من يدى.

انفتح باب البيت ودخل آرتوش وإميل.

بدأ آرتوش بقوله «قلنا نلعب فى البداية دور شطرنج....كأنما قرأ إميل أفكارى فقال أمى رجع لها الصداع و.... مارحناش السوق.

ثم نظر كلاهما إلى الزجاج المتناثر على الأرض. عندما رأت صوفى متفرجين جدد عادت إلى البكاء. وراحت آليس تطهر مكان الخدش بسرعة والجميع؛ نينا وأمى والتوأمان جميعهم راحوا يحكون فى وقت واحد ما جرى.

وقع بصرى على ڤيوليت التى ابتسمت فوقع مشبك الشعر من بين أسنانها على الأرض، فوضعت يدها على فمها وقالت «أوه!»، ثم انحنت والتقطت المشبك. رأيت قميصها الأسود الداخلى من تحت الثوب فقلت فى نفسى «أى بشرة بيضاء؟».

كنت أزيل بقع القهوة من على الموقد وأنا أفكر ماذا أعد على العشاء لكل هؤلاء الناس، ولماذا يتحتم علىَّ أن أعد العشاء لكل هؤلاء الناس، وبأى حق تدعو آليس ضيوفًا لها فى بيتى، وما الذى أصاب آرمن، ولماذا تثير التوأمان كل هذه الضجة والضوضاء ونينا لماذا تضحك إلى هذه الدرجة.

وفى هذه اللحظة صاح فى آرتوش قائلا «إحنا عندنا عشا إيه».

قذفت المنشفة فى الحوض وقلت له: «ولا حاجة، روح هات أكل من عند آنكس».

فى البداية تعجب ثم بدا لى أنه فرح، وقال: «أكل آنكس مش بطال».

ثم يبدو تذكر أنه لا يحب الطعام الحار فقال «هااجيب سمك وشوية بطاطس مقلية، هو إحنا عددنا كام؟ اعدنا دلوقتى» وخرج من المطبخ.

كان الأولاد يحبون السمك والبطاطس المقليةالتى يعدها مطعم آنكس، وقد طهوتها لهم عدة مرات ولكنهم فى كل مرة كانوا يمطون شفاههم فى امتعاض ويقولون «مش لذيذة زى اللى بيعملها مطعم آنكس».

دارت شورلت بعد عدة دقائق من الدلال، ودخلت أمى المطبخ.

«أكيد الباش مهندس راح يجيب أكل من بره، مش كده، أكيد هايجيب لنا شاورمة أو سمبوسة من اللى واقف عليها الدبان مش كده؟

دخلت ڤيوليت المطبخ وهى ترتب ثيابها وقالت: «قالوا إنهم هايجيبوا أكل من آنيكس. رحت مع نينا وجارنيك امبارح آنيكس، وأكلنا أرز بالكارى وكان لذيذ جدّا».

نظرت أمى إلى ڤيوليت من قمة شعرها ـ الذى كان يبدو وكأنه غير منظم عن عمد ـ إلى كعب حذائها وكأنها تريد أن تأخذ مقاس جسدها بدقة وقالت:

ليس آنيكس بل آنكس، وأكله لذيذ بالنسبة للى مابيكلوش أكل بيتى». زفرت وتنهدت بشكل أكثر إحكاما أو أعلى صوتًا من المرتين السابقتين، وخرجت من المطبخ. ضحكت ڤيوليت وقالت. «لغتى الإنجليزية فضيحة» ثم قالت» هاتعملى السلطة؟ هل أساعدك؟»

لو حدث هذا فى وقت آخر لقلت بلا تردد: «ماتتعبيش نفسك، هااعملها أنا».

ولكن هذا لم يكن وقتًا آخر لذا فقد وضعت البصل على المائدة وقلت لها: قشرى البصل»

ـ ٢٥ ـ

بدأ يومى بشكل سىء .

بمجرد أن سألنى آرتوش «ماشفتيش نضارتى؟» قلت له : « مش مكتوب على جبينى «ظابط الحاجات الضايعة» .

لم يكن عندى خبز من أجل الشطائر التى أعدها للأولاد ليأكلوها فى الفسحة المدرسية ؛ فأعطيتهم نقودًا ليشتروا بسكويت. لمعت عيون التوأمين فقلت» :

«شيبسى وحلوى لأ ، بسكويت بس الحلوى والشيبسى بعد الغدا» وحاولت أن أتذكر ماذا تعطى المدرسة من طعام فى هذا اليوم ، وهل يحبه الأولاد أو لا» .

لم أتذكر برنامج الطعام ، وتذكرت بدلاً منه كلام نينا ، فلو أننى قلت مثلاً : «المدرسة تقدم نوعًا من الطعام والأولاد لا يحبونه» .

فإنها على الفور تقطب جبينها وتقول : «يعنى إيه أحب ده وماأحبش ده ، الطفل لازم يتعود إنه ياكل كل حاجة تتحط قدامه على الترابيزة» .

عدلت ذيل مريلة آرسينه وفكرت أنه ربما كان الحق مع نينا. وضع آرمن النقود فى جيبه وخرج من البيت دون وداع. كان قد تشاجر أمس عدة مرات مع التوأمين ، ولم يتكلم معى ولا مع أبيه ولم يأكل شيئًا تقريبًا. لم يكن مزاجى يسمح بأن أتذكر أن أقول له :

«ماتخرجش من المدرسة عشان تشترى عيش لواش» .

كان الأولاد فى المدرسة الثانوية يقولون «شيل الأكل من البيت عمايل العيال الصغيرين» . وحتى يثبتوا أنهم ليسوا أطفالاً كانوا يكلفون واحدًا كل يوم يخرج من المدرسة ويشترى خبز اللواش من المخبز.

ويشهد الله أننى ذهبت إلى مكتب مدير المدرسة عدة مرات من أجل تصرف آرمن هذا ، وقد وعدنى بألا يفعل ، ولكنه عاد وفعل.

ذهبت إلى الفناء وأنا أمسك بيدى التوأمين، وفى الممر الضيق سألت:

«إيه اللى جرى له؟» وأشرت إلى آرمن الذى كان يفتح الباب المعدنى وظهره لنا. كانت التوأمان تنظران لبعضهما بعضًا، ثم نظراتا إلىَّ، ثم هزتا أكتافهما بما يعنى «لا نعرف» فقلت «عشان إميلى ماجتش امبارح؟»، وهذه المرة حاولتا ألا تضحكا دون أن تنظرا لبعضهما.

أقل أتوبيس المدرسة الطفلتين وسار فى طريقه، وراح صوته يبتعد شيئا فشيئا أغلقت الباب المعدنى. وعبرت الممر الضيق ودخلت البيت وحين هممت بأن أغلق الباب وأتنفس نفسًا عميقًا لأننى «هافضل لوحدى لحد العصر».

سمعت صوت تشغيل شورلت الخفيض.

كان عدم استجابة «شورلت» للتحرك على الفور يعد جزءً من البرنامج اليومى لآرتوش. كان آرتوش يرفع غطاء السيارة الأمامى وينظر حائرًا إلى أحشائها القديمة، ثم يتحرك بالمفكات هنا وهناك حتى أنى لم كن اعرف ماذا يفعل، وكنت على يقين من أنه هو نفسه لا يعلم.

رحت أسأل: دارت؟ و«آرتوش» يجيب: «هوم» ظللت أحملق معه حائرة للحظات فى موتور السيارة وأنا أفكر «إنها تمامًا كالمريض الذى يشرف على الموت بينما يبقونه على قيد الحياة بالدواء والأجهزة». ورحت أقول له: «أطلب لك تاكسى ولا أكلم الأسطى سعيد؟ لو كان قد اتأخر لقال: «تاكسى» كالجراح الذى يقول للممرضة «مقص».

ولو لم يكن فى عجلة فى أمره، والسيارة أيضًا لا ترضيه لذهب متلكئًا حتى ورشة التصليح وقال: اتصلى بالأسطى سعيد «كالجراح حين يقول إدى له كيس دم.

والأسطى سعيد صاحب ورشة التصليح القريبة من سينما «خورشيد» وكان فى كل مرة يرى فيها آرتوش وشورلت يضحك ويضع يديه المتسختين على شعره الأكرت الأسود ويقول: «هى شارلوت الغالية خربت تانى؟».

وكان الأسطى سعيد فى كل مرة يقترب فيها من شورلت يقول لى بعيدًا عن أذنى آرتوش: لامؤاخذة يا مدام، حضرتك لو كنتى زى الستات التانيين يبقى لازم تتخانقى للباش مهندس وتخوفيه عشان لازم يشترى عربية جديدة».

وحين كنت أقول أصل الباش مهندس متعود على العربية دى «كان الأسطى سعيد يهز رأسه ويقول بغيظ :

«بصراحة أنا مش هازهق من الكلام معاكى ومع الباش مهندس، موظفين شركة البترول مراكزهم كويسة، وحالتهم حلوة والمرتب بيزيد لما الدرجة تعلا، وأول حاجة بيعملوها إنهم بيغيروا البيت والعربية، ولكن انتم....» كنت أحمل له الشراب أوالشاى وأقول له : «ايه علاقة الدرجة والمرتب بالبيت والعربية؟ «فكان يشرب الشاى أو الشراب ويقول لى هو مفيش علاقة؟ ».وبدلاً من الذهاب والوقوف بجوار السيارة والاشتراك فى المراسم الدائمة استندت إلى جدار الممر وأغمضت عينى وقلت بصوت عال : «يارب خليها تدور.» كنت أريد أن أكون وحدى، كنت أريد أن أكون وحدى بأقصى سرعة. كانت رأسى تؤلمنى، وكنت أشعر بالضيق. فتحت عينى على صوت تشغيل السيارة، ولكن بمجرد أن غادر آرتوش المرآب وخرج إلى الطريق، ولم يكد صوت السيارة يبتعد حتى قلت :

ـ «أشكرك يا إلهى».

ذهبت إلى المطبخ، وجلست خلف المائدة وصحت فى نفسىشفت هببت إيه؟ أخرجت منديلاً ورقيًا من علبة المناديل ووضعته على عينى وتذكرت أبى، كنت أتذكره فى الأوقات التى أشعر فيها بالسعادة ؛ فمثلاً عندما تنمو فروع النباتات التى أضعها فى الماء، أو عندما أجد الطعام الذى أطهوه لأول مرة لذيذًا، أوعندما يحصل آرمن على درجات كبيرة. بدأت فى تمزيق المناديل إلى قصاصات وأنا أفكر لماذا أتذكر أبى دائمًا فى السعادة وفى الحزن؟.

رفعت رأسى ونظرت إلى الصورتين اللتين كنت قد ألصقتهما على باب الثلاجة كانت التوأمان قد أهديتانى إحداهما فى عيد الأم فى العام الماضى وكانت عبارة عن قلب وورود كبيرة وملونة، وقد كتبتا فى وسطها «نحبك..» ، والثانية كانت من رسوم آرمن، منذ أربعة أو خمسة أعوام.

كان قد رسم فيها بألوان الماء الصفراء صورة لامرأة وفى يديها اللتين لا تشبهان يدى امرأة دائرة خضراء تشبه رأسًا لها عينين. وعندما سألته : «وماذا رسمت؟ »

قال: «أمى وهى تحتضن آرمن» نظرت إلى اللوحة ويدى موضوعة تحت ذقنى وقلت لنفسى:

ـ «لم أعد أحتضنك هكذا فى أى وقت».

وقعت عيناى على الرف ورأيت اللفة؛ اللفة التى كان إميل سيمونيان قد أعطاها لى يوم أمس عندما كنا نجرى أنا وهو فى الفناء وراء أمه.

كيف لم أتذكرها حتى الآن؟ أخذت اللفة وذهبت إلى حجرة الجلوس. لم يكن عجبا أننى نسيتها وسط الفوضى التى كانت حادثة فى بيتى أمس.

جلست على مقعد جلدى وفتحتها، كان بها كتاب من كتب ساردو التى قلت له أننى لم أقرأها، وقد كتب على صفحته الأولى: «إلى كلاريس التى أستطيع أن أستمع لحديثها أيام وأيام.»

أغلقت الكتاب. لم تكن الحجرة باردة جدًا، ولكنى شعرت بالبرد فتحت الكتاب مرة ثانية وقرأت الجملة، ومررت بإصبعى على الكلام المكتوب وفكرت، أى خط رقيق ومنظم ومنمق. كان خطى بالأرمنية منتظمًا. وكنت أكتب حروفه غير متشابكة. وحروف الـ O التى كنت أكتبها كانت تشبه المستطيلات الصغير. أما خط إميل فكانت به انحناءات متساوية وحروفه متصلة وناعمة. تبدد الحزن والضيق تدريجيًا، كالماء الذى يغلى ثم يتبخر.

شعرت أنى صرت خفيفة وأن حالتى تحسنت قلت لنفسى: «هل هذا يعنى أن كلامى كان جذابًا بالنسبة له؟ أو يعنى أنه لم يمل؟»

تذكرت يده التى كانت موضوعة تحت ذقنه، وساعته التى كان لها رباط جلدى أبيض. كانت هناك ضفدعتان فى الفناء تتناوبان النقيق.

نظرت إلى النافذة وفكرت «ربما كانت الضفدعتان تحبان بعضهما، وهما تتبادلان الأحاديث».

قلبت الكتاب وقرأت المكتوب على غلافه الخارجى، كان موجزًا للقصة التى تحكى حكاية عن شاب يعشق فتاة، وأمنيته الوحيدة الوصول إليها. ثم ينشغل بالأمور

السياسية ويبقى متردداً بين عشقه والمسئوليات الاجتماعية حسب قوله. رجعت إلى الصفحة الأولى وقرأت جملة إميل مرة ثانية. وتصفحته حتى وصلت إلى الفصل الأول وبدأت فى القراءة. كان بطل القصة ما يزال متردداً والفتاة تتوسل لإقناعه بكل طريقة أن يتصل بها. نظرت إلى ساعتى ولم أصدق. متى كانت آخر مرة قرأت فيها كتاباً كل هذه المدة الطويلة بلا توقف ومرة واحدة .

ـ ٢٦ ـ

كما يقول «جارنيك» ، كان موتور «نينا» يعمل دائمًا وصوتها كالجرس. أنا بس اللى لسة حيرانه ، ياترى الحكاية دلوقت بقت جد فعلاً ، ولا آليس هى اللى بيتهيأ لها مرة ثانية ، دى ڤيوليت أول ما سمعت الحكاية قالت إنه من الأول كان واضح إن يوب معجب بآليس ، أمّال إحنا كنا فين؟ قال وأنا اللى كنت عاوزه أرتب معاها الموضوع علشان ڤيوليت. بس مش بطال ، «آليس أهم» . وقهقهت من كثرة الضحك ، ثم انخفضت نبرة صوتها وجعلت تهمس. سمعتها تقول عدة مرات «إميل سيمونيان» وبمجرد أن قلت «بتقولى ايه؟» قالت بصوت عال «ولا حاجة ، تيجى النهاردة العصر نروح السوق؟ صوفى مصرة تشترى برنيطة فخمة» .

ودون أن تعطينى الفرصة لأقول إنى سآتى ، او لن آتى ؛ قالت :

ـ «يبقى سلام لحد العصر ، ڤيوليت بتسلم عليكى ، مع السلامة لحد ما نتقابل العصر» .

أما أن آليس سوف تحكى للجميع مضووعًا ليس محققًا حدوثه بعد فهذا أمر عادى ولكن ما الذى قالته نينا عن إميل؟ لماذا همست؟ ولماذا قالت :

ـ «هابقى أقول لك بعدين؟» .

ذهبت إلى الفناء الخلفى.

مررت بالخضروات التى كنت قد زرعتها بنفسى ، وقطفت بعض حبات الطماطم رفعت رأسى ونظرت إلى شجرة النبق ، كان بين أغصانها عش عصافير. حلق عصفور سمين ومكتنز ودخل أحد العشين وفى منقاره شىء. ومن داخل العش خرج صوت زقزقة ضعيف. فهمت أنه «أحضر الطعام لصغاره.» كان الهواء ساخنًا والصمت يسود المكان. عدت إلى الداخل وأنا أغنى بصوت خفيض.

أعددت وجبة العصر التى سأقدمها للأولاد ساندويتش «جبن فى الفرن» حسب

تعبيرهم. وضعت رقائق الجبن على قطع الخبز، ثم وضعت الخبز فى الفرن. وانتظرت تحميص الخبز وذوبان الجبن، وسألت نفسى كم مرة أعددت وجبة العصر؟ وكم مرة أعددت الغداء؟ والعشاء؟ علا أزيز الباب المعدنى، وصوت عدوهم على الممر الضيق.

قالت صوفى:

ـ ماما قالت لى آجى عندكم، وهى كمان هاتيجى دلوقتى.

قلت لهم أن يغسلوا أيديهم ووجوههم ويتناولوا وجبة العصر ويستعدوا لدرس البيانو.

قالت آرمينه:

ـ «كويس إن صوفى هاتروح معانا درس البيانو».

وقالت آرسينه:

ـ «كويس قوى إن صوفى هاتروح معانا درس البيانو».

التفتت الاثنتان إلى صوفى، وقالت آرمينه:

ـ «من كلام ميس جودى بالفارسى... وأكملت آرسينه الجملة: هاتموتى من الضحك».

ضحكت قائلة: «آرمن» الأكل، فصرخ من خلف باب الحجرة «مش جعان».

ضحكت البنات بصوت هامس، وبمجرد أن نظرت لهن قالت آرمينه «وحياة ربنا مانعرف، لكن.....» واستمرت آرسينه ولكننا سمعنا أنه اتصالح مع إميلى». قالت صوفى:

أكيد السبب إنه مش جعان وضحكت البنات الثلاث.

وذهبت أنا إلى التليفون الذى كان يدق.

قالت مدام سيمونيان إن إميلى عندها درس بيانو، وأنها سمعت أن التوأمين أيضًا عندهما درس بيانو، وأن إميلى ستذهب إلى الدرس معهما لأن إميل طرأ له عمل ما وسيأتى متأخرًا إلى البيت، وهى تعانى من آلام فى الظهر ولاتستطيع أن تصطحب إميلى إلى الدرس. ولم تقل «لو سمحت، ولا لو ماكانش فيه إزعاج»، ولا حتى سلام أو وداع مؤدب.

لم أكن قد وضعت سماعة التليفون مكانها بعد حين سمعت آرمن وقد وثب من

حجرتـه ليقـول «أروح أجيـب إميلـى؟» ، وحـين ارتفـع حاجبـاى دهشـة تلعـثم وقال «المسألة.... إن إميلى قالت واحنا فى الأتوبيس إن عندها درس بيانو، والمسألة إنى.. قررت أتعلم البيانو من جديد» نسيت غيظى من سوء أدب مدام سيمونيان وضحكت على منظر آرمن. وفى نفس الوقت فتحت نينا باب البيت وهى تقول «أوه! أوه، استويت من الحر». مر أرمن من بيننا دون أن يقول شيئًا وخرج من الباب. وعاد قبل أن يصل إلى الفناء وصاح «إحنا هانستنى على المحطة». نظرت نينا إلىَّ «أيه اللى حصل؟» نظرت إلى السقف وقلت «بيحب»! كنت أنتظر أن يغشى عليها من الضحك، ولكنها هزت رأسها فقط وقالت: «يظهر إنهم حاطين حاجة فى المية الأيام دى» صحت فى الأولاد ووجهى إلى المطبخ: « ياللا يا ولاد».

كانت إميلى تلبس بلوزة بيضاء وبنطلونًا أسود، وقد ألصقت بصدرها النوت الموسيقية. كانت متكئة على عامود الإشارة فى المحطة وقد طأطأت رأسها. وراحت تدفع بمقدمة حذائها حجرا صغيرا إلى الأمام، وقد انسدل شعرها الناعم الطويل على وجهها.كان آرمن يروح ويجىء أمام إميلى وهو يهز يديه ويتحدث. وبمجرد وصولنا صمت. رفعت إميلى رأسها بسرعة وحيتنا. كان الشعر ينسدل على جانبى وجهها.

قالت نينا: « طفلة حلوة قوى.» قلت فى نفسى: طفلة؟« نظرت إميلى إلىَّ عدة لحظات. لماذا شعرت أنها قرأت أفكارى؟ رفعت نصف شعرها لأعلى ووضعته خلف أذنها وابتسمت؛ ابتسامة تشبه ابتسامة التوأمين عندما تريدان شيئًا.

وصل الأتوبيس، وحين ركبت حيانى السائق، تعجبت لرؤيته.«أهلاً يا أسطى عبدى. إنت مش كنت بتشتغل على خط «المصفاة؟» ابتسم وقال «هانعمل أيه يا هانم؟ إترقينا. إنتى عاملة ايه؟ إزيك؟ عاملة أيه مع التعب اللى احنا مسببينه ليكى؟ أجبت تعب ايه؟ ياترى الولد اتحسن» قال الأولاد واحدًا واحدًا «ياس»[1]، ومروا من أمام السائق. ضحك الأسطى عبدى وقال «أول امبارح ركب معايا راكب من طهران، وسمع ركاب شركة البترول بيقولوا حاجة وبعدوا من غير ما يدفعوا ثمن التذكرة، فقال «ماس» بدل «ياس».

(١) يقصد بها هنا أن الراكب تابع لهيئة أو مصلحة أو شركة ما، ومؤدى هذا أنه لن يدفع قيمة التذكرة (المترجمة).

ضحكنا، وضغط الأسطى عبدى زر إغلاق الباب، والتفت إلىَّ وقال: «الحمد لله، الولد اتحسن جدًا، وجبناه البيت، أخت حضرتك عملت لنا خدمة كبيرة، كتر خيركم» لكزتنى نينا فى ظهرى وقالت:

«سيبيه يمشى»

لم يكن فى الأتوبيس ركاب كثيرون، ذهبت التوأمان وصوفى إلى داخل الأتوبيس وجلست آرمن وإميلى على مقعد خلف السائق، دفعتنى نينا دفعًا إلى مقعد آخر بعيد عن الأولاد كنت أقول لها «ابنه كان عيان وقلت لـ آليس فى المستشفى...» قاطعتنى نينا قائلة: «كويس قوى، كويس قوى، دلوقت بتصاحبى السواقين والجناينية، وأنابيب الشركة، مش هاتقدرى تهتمى بكل الناس، هو الحال انقلب؟».

ألقت نظرة على الخلف، وقربت رأسها من أذنى «كلمينى عن جارك الجديد هو مش اسمه سيمونيان؟ هى مراته ميتة؟».

نظرت إليها عدة لحظات. لماذا لم أفهم مقصدها بشكل أسرع؟ لقد فهمت الآن لماذا أصبحت فجأة ضيقة الصدر؟ لماذا كان الجو حارًا إلى هذه الدرجة لماذا لم نصل؟

وفى الطريق إلى المحطة التى يقع بها بيت الآنسة جودى فى الناحية الجنوبية قلت ماكنت أعرفه عن سكان «G 4». وقفت قبل أن نصل إلى المحطة، ضربت جرس النزول وقلت لنينا فلنذهب ونشترى «برنيطة» لـ صوفى ونرجع حتى ينتهى درس الأولاد. نظرت إلىَّ نينا بدهشة وقالت: «البرنيطة؟» أشرت للأولاد لكى ينزلوا، وقلت لنينا التى كانت ما تزال جالسة، وقلت

«ياللا، وصلنا، مش قلت إنك عاوزة تشترى برنيطة فاخرة لـ صوفى».

قامت من مكانها: «أنا عندى حاجات كتير أهم من شرا البرنيطة، أما أشوف، إنتى مش معزومة عند ليلة الخميس» وبمجرد أن قلت «لا» قالت لى: «طيب، يبقى هايكون عندك عزومة».

ودعت السائق، نزل الجميع خلف بعضهم فقلت لنفسى: «برنيطة فى الحر ده؟ أنا حمارة زى ما أمى بتقول».

ـ ٢٧ ـ

وقف الأتوبيس فى محطة منزلنا، وترجلنا. نظرت إلى إميلى التى كانت قادمة إلى منزلنا مع الأولاد. وقبل أن أتكلم قالت لى «جدتى قالت لى أفضل فى بيتكم شوية» قلت فى نفسى «الجدة تصدر أوامر للجميع».

دخلت المطبخ فرأيت أمى وآليس، وكانتا قد وصلتا إلى البيت أسرع منا. كنت قد قلت لأمى مرات عديدة أننى تركت مفتاح البيت الاحتياطى للأوقات التى نكون مسافرون فيها». حتى إذا ما حدث حادث ما تستطيعان أن تفتحا الباب، ولكن بلا جدوى. كان من عادة أمى وآليس أن تقوما بزيارات مفاجئة لنا، فإن لم يكن هناك أحد بالبيت وضعتا المفتاح فى داخل الباب ودخلتا. كانت آليس جالسة خلف المائدة تطلى أظافرها، وكانت أمى واقفة على كرسى تزيل التراب عن أصص الورد الموضوعة أعلى الدواليب. بمجرد دخولى البيت قالت دون أن ترد تحيتى «آه منك ومن الزبالة اللى انتى حاطاها فى كل حتة فى البيت إنتى زيه ـ الله يرحمه ـ بالظبط». قلت لها «ومين اللى قال لك إطلعى فوق كده، آشخن نظفت الدواليب كلها الأسبوع اللى فات». نزلت أمى من على الكرسى وقالت «تنظيف آشخن ده ينفعها هى» وسلمت على نينا سلامًا حارًا. وعندما انتهى ترحيبها بـ نينا سمعنا صوت شورلت آرتوش.

قبلت نينا وآليس بعضهما، وأخبرتها نينا بعزومة ليلة الخميس.

صفقت التوأمان وصوفى وتقافزن لأعلى وأسفل «هييه! عزومة» وذهبن ناحية إميلى وهن يتقافزن. قالت آرمينه: «انتى كمان لا زم تيجى» نظر آرمن إلى إميلى فطأطأت رأسها وقالت «لو سمحت جدتى» قالت نينا: «ماتخافيش، جدتك وأبوكى معزومين» كانت آليس تضع أحمر الشفاه بغير مرآة، ثم قالت «يوب بيحب أكلنا جدّا» وقالت أمى:

«كلاريس هاتعمله فسنجان[1]» إذن لقد انتهى الضيق من الرجل الهولندى.

---

(١) طعام إيرانى يصنع من عين الجمل واللحم وحبات اللوبيا الجافة (المترجمة).

قالت آرسينه لـ آرمينه : « دلوقتى بقى قلدى ميس جودى ، بسرعة ، قلدى ميس جودى » . وقفت آرمينه على أطراف أصابعها ووجهت إصبع السبابة ناحية آرمن « ياترى بقى المرة دى قررت تتعلم البيانو بجد ، ولا برضه مش واخدها جد؟

أجابت آرسينه بدلاً من آرمن فقالت « المرة دى بجد » . رفعت آرمينه حاجبيها لأعلى وزمت شفتيها

« طيب يبقى » استى هنا مع إميلى فى الـ « ليفنج روم » لحد ما أنده لك » .

وضعت صوفى يدها على بطنها وقالت وهى تضحك « قالتها كده بالضبط » . قرصت نينا آرمينه فى خدها قالت يا شيطانة » وقالت أمى :

تسلم إيدك ولسانك » . وانحنت آليس من شدة الضحك وفى يدها أحمر الشفاه وطلاء الأظافر. ونظرت إميلى إلى آرمن خلسة فقال « هه هه هه » .

دخل آرتوش وقفزت التوأمان إلى حضنه وقالتا : عندنا عزومة يوم الخميس صوفى وإميلى وكلهم... » .

كنت أحاول أن أتحدث فى المسافة من فصل البيانو إلى البيت ، أردت أن أقول « لا » ولم تعطنى نينا الفرصة . والآن بمجرد أن فتحت فمى ، وضعت يدها على كتفى وقالت لى « هاساعدك ، مش لازم تعملى كل حاجة بنفسك » . ثم ألصقت يدها بظهرى ودفعتنى ناحية باب المطبخ وقالت :

روحى بس اعزمى الجيران وسيبى الباقى على.

قبَّل آرتوش التوأمين وقال

« كويس يبقى هانلعب أنا وإميل الشطرنج.

خرجت من المطبخ وقلت لنفسى « ياريتنى رميت الجزمة السودة فى سلة الزبالة » .

لم أعرف هل أغلقت باب البيت ورائى أم لا. عبرت الممر الضيق وفتحت الباب المعدنى ، وبدلاً من الذهاب إلى الناحية الأخرى من الشارع سرت بجانب نهر الميدان فى اتجاه الميدان الواقع فى وسط الضاحية. كنت عصبية بسبب نينا التى أجبرتنى على أن أقيم عزومة فى بيتى وكأنها كانت تريد ـ كما قالت هى ـ أن تجمع ڤيوليت وإميل معًا. كنت عصبية بسبب آليس التى تفكر فى نفسها فقط ، وبسبب أمى التى كانت تفكر فى

آليس، وبسبب الأطفال الذين كانو سعداء، وبسبب آرتوش الذى كان يفكر فى الشطرنج فقط. لماذا لم يفكر فىَّ أحد؟ لماذا لم يسألنى أحد ماذا تريدين؟».

سألنى الجانب الحنون من وجدانى «ماذا تريدين؟» فأجبته «أريد أن أبقى وحدى عدة ساعات، أريد أن أتحدث مع أحد عن الأشياء التى أحبها فاجأنى جانبى المنتقد متى تبقين وحيدك أم تتحدثين مع أحد؟».

مررت بجوار شجرة أكاليپتوس[1]، مدت يدى ونزعت إحدى ورقاتها وضغطت عليها وشممت رائحتها. سرت عدة خطوات وألقيت بالورقة المدهوسة فى مجرى الماء. «أريد أن أعرف أى قرار سيتخذه بطل قصة ساردو فى النهاية. قلت ذلك وقفزت إلى الخلف فأوشكت أن أطأ بقدمى الضفدعة الميتة التى كانت ملقاة على الأرض وسط الرصيف وكأن عجلة عريضة مرت من فوقها. قلت بغيظ «اللعنة على هذه المدينة بكل ضفادعها وأبراصها وثعابينها الحية والميتة».

سرت عصبية ومكدرة المزاج ومغتاظة حتى وصلت إلى الميدان، كانت الشمس قد غابت لكن الجو كان ما يزال حارًا وكانت رائحة الطين الراكد فى قاع النهر العريض تفوح. جلست على واحد من المقاعد الحجرية الملتفة حول الميدان وخلفى صف من الأشجار الضخمة وأغصان أشجار «خرزهرة»[2] بورودها البيضاء والوردية. وتحت مصدر الماء وسط الميدان كانت هناك قطة هزيلة تجرى وراء شىء ما، ربما كان ضفدعة أو برصًا.

هبت ريح حارة، وسقطت علىَّ من شجرة بذرة تشبه حبات اللوبيا، وبدت لى كأنها دودة أو جرادة فألقيتها على الأرض بسرعة، وأصابتنى رعشة.

وشردت أفكر فى أننى منذ أن جئت إلى «عبدان» وحياتى عبارة عن حرب دائمة مع أنواع الحشرات والزواحف التى كنت أنفر منها منذ طفولتى، وما أزال كذلك. واعترتنى حالة دائمة من الغثيان من أنواع الروائح؛ رائحة النفط المنبعثة من المصفاة، رائحة الطين الراكد فى الأنهار، ورائحة السمك والجمبرى المملح التى تختلط بالعطور

(١) أكاليپتوس: شجرة موطنها الأصلى أستراليا، وهى سريعة النمو ومنها أنواع مختلفة، وأوراقها عطرية ولها ثمار صغيرة، ويستخرج منها عطور طيبة يصنع منها الدواء (المترجمة).

(٢) خرزهرة: أشجار زينة سامة، لها ورود ملونة، وهى شجرة كثيرة الفروع والأوراق.

العربية فى سوق الكويتيين، تصيبنى بالغثيان فى كل مرة أذهب فيها إلى السوق. وفوق كل هذه الأشياء وأكثر منها جميعًا الحر والرطوبة، لماذا جئت إلى هذه المدينة؟ لماذا لم أبق فى طهران؟.

وتذكرت بيتنا فى طهران، كم كان فناؤه الصغير جميلاً!. وتذكرت حارتنا بأشجار الصفصاف الباسقة. وتذكرت فصول الصيف حين كنا نحن أو أحد الجيران نروى الأشجار فتفوح رائحة التراب المبتل.

وتذكرت أوقات الصبح فى الشتاء حينما كنت أعرف وأنا ما زلت فى فراشى أن الثلج سقط.

ففى هذه الأوقات التى كان الثلج يسقط فيها صباحًا كان النور المنبعث من نافذة الحجرة يختلف عن النور الذى يأتى فى الأيام التى لا ثلج فيها.

تذكرت الذهاب إلى المدرسة فى الشتاء بالقبعة والقفاز والكوفية الصوفية التى كانت تنسجها أمى. كان لخشخشة الثلج تحت الأحذية ذات الرقبة الطويلة صوت جميل. منذ متى لم أر الثلج يسقط؟ كم عامًا مضت لم أرتد فيها معطفًا شتويًّا ولم أضع فى يدى قفازًا؟ ولم أجلس لأستمد الدفء من المدفأة ولم أنفث البخار من فمى فى الحارة؟

طردت البعوضة التى كانت تطير حول أنفى. لماذا جئت من البداية؟ لماذا لم أبق فى طهران؟ لأن آرتوش عمل فى شركة النفط، لأن آليس وُظفت فى مستشفى شركة النفط، لأن أمى جاءت مع آليس إلى عبدان.

هل جاءت أمى إلى عبدان لتكون مع آليس، أو لتكون قريبة منى؟

متى كان هناك من يعمل شيئًا من أجلى أنا فقط؟ وأنا نفسى ماذا فعلت لنفسى فقط طوال ثمانية وثلاثين سنة؟

كان الجو آخذ فى الإظلام فلا آت ولا ذاهب. ومن بين أغصان الصفصاف المحيط بأفنية البيوت كنت أرى المصابيح تضاء واحدًا بعد الآخر فى المنازل.

أدرت رأسى ناحية شارعنا، كان علىَّ أن أعود، كان قلبى ينقبض حين أتذكر ما كان ينبغى علىَّ أن أقوم به من أعمال؛ إعداد العشاء، التخطيط لعزومة الخميس. النقاش مع آرمن الذى سيصر بالتأكيد على أن أشترى له قبل يوم الخميس البنطلون الذى يطلبه منذ

فترة طويلة. والأهم من كل هذا دعوة مدام سيمونيان. قلت فى نفسى: « تلك المرأة التافهة الأنانية بالطبع سوف تتصور أن الجميع خدم عندها « . ليتنى ـ بدلاً من كل هذه الأعمال التى لا أحب أن أعملها – أجلس هادئة مستريحة فى الفوتيه الأخضر المريح وأعرف ماذا سيختار بطل قصة ساردو، عشقه، أم التزاماته؟.

من انحناءة الشارع بدا ظل، فقمت فزعة من مكانى، كان الجو مظلمًا فلم أكن أرى جيدًا، إنه بالتأكيد واحد من الأولاد، لقد قلقوا حتمًا.

سرت بضع خطوات، وبعدها تقريبًا جريت، ثم وقفت، ووقفت مدام سيمونيان أيضًا. كانت تلبس بلوزة ذات ياقة بيضاء محكمة، وبنطلونًا أسود، كانت تمامًا تشبه حفيدتها فى عصر اليوم نفسه، وكانت قامتها تبدو أقصر من المعتاد حيث كانت تلبس حذاء بكعب عريض.

بقيت للحظات بلا حركة ثم سارت فى الطريق الذى كانت تسير فيه، وقالت دون أن تنظر إلىَّ « يبقى إنتى كمان بتحبى المشى » .

لم تكن تسأل، تحيرت ماذا أفعل، هل أمشى معها أو لا، فوقفت واستدارت ناحيتى ثم قالت:

كنت راجعة البيت ولم تكن تسأل هذه أيضًا. ثم قالت:

« ممكن نتمشى مع بعض شوية؟ » كانت تسأل هذه المرة، كان سؤالها ممزوجًا برجاء عميق.

سرت بجوارها، وخجلت مما كنت قد حدثت به نفسى وهو أنها « امرأة تافهة وأنانية » . كان صوتها على نحو ما مزق قلبى. سرنا صامتتين حتى الميدان، واتجهت جارتى إلى المقعد الحجرى الذى كنت أجلس عليه منذ عدة دقائق، وقالت لى: ممكن نقعد هنا شوية؟ أنا تعبت » .

جلست بهدوء شديد. كان المقعد عاليًّا بالنسبة لها، ولكنها لم تقفز، ولم تثب، سحبت نفسها بهدوء وجلست، قلت فى نفسى إنها تمرنت على أن تفعل هذا عمرًا، تمرنت عمرًا من أجل الجلوس فقط.

كان الجو قد صار مظلمًا ثقيلاً، والريح لا تهب – كنت أسمع من النهر صوت نقيق الضفادع وهدير الماء آتيا من النهر عندما كان أحدها يقفز فوقه. شممت يدى فرأيت أن رائحة الأكالبيتوس ما زالت تفوح منها.

دار حول الميدان راكب دراجة يتصل بها صندوق كبير، كان هذا هو « حاجى » أو كما يقول الأولاد « بتاع العيش » ، الشيخ الذى يبيع خبز « اللواش » فى مساكن شركة النفط فى الصباح وفى العصر.

كان بالتأكيد عائدًا إلى بيته ، إلى احمد آباد ، إلى الحارة الضيقة المليئة بالتراب والغبار التى يقع فيها بيته ، سيمشى على قدميه ساعة أو ربما أكثر.

منذ عدة سنوات حين غرق ابنه على الشاطئ ، ذهبت لرؤية زوجته حيث كان حاجى يقول إنها « دى هاتموت من الحزن » .

حين عرفت أمى وآليس أننى ذهبت لرؤية زوجة حاجى اتهمتانى بالجنون.

وقال آرتوش إننى أحسنت صنعًا. وقبل ذكرى أربعين الولد أحرقت زوجة حاجى نفسها وماتت. وبعد شهرين تزوج حاجى زوجة أخرى فسألتنى أمى وآليس « مش هاتاخدى معاك هدية وتروحى تباركى لـ حاجى؟ « وضحكتا » .

أما آرتوش فقد هز رأسه فقط ، ولم أعد أشترى الخبز من حاجى.

قالت مدام سيمونيان : « أيه المدينة الميتة دى ! » .

رأيت أن الوقت مناسب لأدعوها لعزومة يوم الخميس ، فقلت : « الجماعة اللى كانوا ساكنين قبلكم فى (G 4) ـ اللى شفتيهم عندنا امبارح ـ المفروض ... » .

لم تتركنى أكمل كلامى ، واستدارت ناحيتى وقالت بطريقة متزنة جدّا « شفتهم ، وأكيد عاوزين يعزموا ابنى ، وما دام عاوزين يعزموه يبقى لازم يعزمونى أنا وإميلى ، وطبعا مفيش شك عزموكى إنتى كمان ، مش كده؟ ، أو ربما شيلوكى إنتى العزومة كمان » .

وضحكت بسخرية.

أخذت نفسًا. وهبت ريح ساخنة ، وسقطت على الأرض بعض ورود بيضاء من الأشجار خلفنا. نظرت إلى الأشجار الضخمة التى تحيط بالميدان فى الضوء الخافت للمصابيح ذات القواعد المعدنية. وسألت نفسى : « كيف عرفت؟ »

وضعت يدها على ركبتى وقالت « كلاريس ، أنا معجبة بيكى » .

كانت هذه هى أول مرة تحدثنى فيها من قلبها « إنتى مختلفة عن الستات التانيين ، وبتاخدى بالك من حاجات غيرك ما بياخدش باله منها » .

« والحاجات اللى بتهمك ما بتهمش الستات التانيين ، أنت تشبهينى بالظبط ، يمكن فى شبابى » .

مسألة أن أكون كمدام سيمونيان تمامًا هى آخر مسألة يمكن أن تخطر على بالى ، وهى آخر أمنية من الممكن أن أتمناها.

لماذا يعتقد الجميع فى الفترة الأخيرة أننى أشبه شخصًا ما؟ نينا تقول إننى أشبه ڤيوليت والآن ...

رفعت يدها عن ركبتى « المدينة دى مش عاجبانى ، من سنين وأنا مش عاجبانى أى مدينة ، ولكن باتحمل عشان إميل وإميلى » . وسكتت.

لا حظت أنها لا تتحدث بشكل رسمى.

كانت تحملق فى مصدر الماء. طول عمرى باتحمل ، من ساعة ما عرفت نفسى ، فى الأول علشان بابا ، وبعدين علشان جوزى ، ودلوقت علشان ابنى وحفيدتى « عمرى ما عملت اللى كان نفسى اعمله » .

كانت كأنها تحدث نفسها. حملقت فى مصدر الماء الذى كان ينظر إلينا من فوق الأعمدة المعدنية كغول ضخم من ارتفاع كبير جدًا.

مرة ثانية ابتسمت بسخرية « إنتى مندهشة ، إنتى كمان زى الباقيين فاكرة إنى عملت كل اللى كان نفسى فيه ، وعندى كل اللى كنت باتمناه ، مش كده؟

سحبت نفسها من على المقعد الحجرى ، ووقفت ، وقالت لى :

« يللا بينا ، عاوزه أفرجك بقية الصور وسارت » .

لم أفكر فى عشاء الأولاد ، ولا فى نينا ، ولا أمى ، ولا آليس ، لم أكن أريد منهم أحدًا. كنت أريد أن أفعل ما أحب. كنت أريد أن أرى الصور.

كان باب ـ G4 ـ المعدنى مفتوحًا ، قطعنا الفناء ، كانت الحديقة الواقعة فى الناحية اليمنى مليئة بالعشب الشيطانى. وكان تراب الحديقة الواقعة فى الناحية اليسرى قد فد حُرث حديثًا. سألت نفسى : « هل اقتلع الأعشاب بنفسه؟ هل حرث الأرض بنفسه؟ »

كان البيت مظلمًا وصامتًا. اتجهت مدام سيمونيان ناحية غرف النوم ووقفت بجوار

تمثال فيل خرطومه مكسور، ومسحت بيدها على رأس الفيل: « هذا جانِش إله السعادة والثروة عند الهنود« ومسحت على الخرطوم المكسور وقالت: « شايفة، حتى المسكين ده فاض بيه منى».

فتحت باب حجرة نومها وقالت« إميلى عندكم، وإميل راح يجيبها وأكيد فضل هناك، هى الست الشقرا كمان هناك؟ اقعدى على السرير».

جلست على السرير وقلت« لأ، مش هناك».

أخرجت ألبومًا ثقيلاً من تحت السرير، كان غلاف الألبوم من الجلد الأحمر بنقوش محفورة باللون الذهبى وفصوص من الفيروز. لم أكن قد رأيت له شبيهًا حتى ذلك اليوم.

فتحته وهمست« فيه منه كتير، أكيد تقدرى تلاقيه». وصمتت للحظات.

نظرت إلى الحجرة الخافتة النور القليلة الأثاث التى كانت تبدو وكأن صاحبها قد جاء للتو ولم تتح له الفرصة بعد لكى يرتبها، أو أنه ربما جمع كل شئ ليرحل فى الغد.

أعطتنى مدام سيمونيان صورة، كانت لشاب يرتدى حلة بيضاء ويقف على سلم عريض، وإحدى قدميه موضوعة على درجة أعلى، كان السلم حجريّا وعلى الدرابزين أصص مليئة بالورود. كان الشاب يبتسم للكاميرا وكأن لون عينية مضئ.

قالت مدام سيمونيان:

« ده مدخل بيتنا فى اصفهان، البيت اللى أمك قالت لى خسارة إنى بعته». وابتسمت ابتسامة لاذعة.

« كنت باكره كل حاجة فيه، من الجنينة الكبيرة للإوض اللى سقفها عالى للممرات اللى أرضيتها خشب، لحد الموبيليا الغالية حتة حتة، بابا دايمًا كان يسألنى عاوزة أيه أكتر من كده؟».

« سنين طويلة ماكنتش عارفة فيها أنا عاوزة إية، ولما عرفت وطلبت رفض وقال لى لأ».

أدارت إلىَّ صورة أخرى، كانت الصورة للشاب نفسه يجلس خلف مكتب ملئ بالكتب والأوراق، ينظر إلى الكاميرا وفى إحدى يديه قلم، ويده الأخرى تحت ذقنه، وشعره ملتصق برأسه ويلبس حلة وصديرى مُقلم.

كنت أفكر أننى رأيت حلة وبنطلونًا يشبهان هذا، كان السيد داواتيان يلبسهما، حين أعطتنى جارتى الصورة الثالثة التى كانت هذه المرة لشاب يلبس قميصا أبيض ياقته مفتوحة وواسع كالقمصان الروسية. وشعره منسدل حتى كتفه، وله لحية صغيرة رقيقة. كان واقفًا بجوار كرسى عالى الظهر واضعًا يده فى خصره، وهو ينظر إلى الكاميرا محملقًا كالصور السابقة.

كانت هناك شابة تجلس على الكرسى وقد جمعت شعرها أعلى رأسها وكانت تلبس ثوبًا ياقته مقفلة ولونه غامق، وفى رقبتها عدة فروع من اللؤلؤ بعضها قصير وبعضها طويل. لم تكن بقية جسد الفتاة من ركبتها إلى الأرض ظاهرة فى الصورة، وكان لون عينى الرجل فاتحًا بالتأكيد.

كانت الفتاة التى فى الصورة ـ هى منذ خمسين أو ستين عامًا ـ أغمضت عينيها وقالت« بابا قال لى إن الشعرا ماينفعوش فى الدنيا، وقال إنه عاوز يتجوزنى علشان ثروتى، وإن محدش بيحب بنت قصيرة، لكن بابا وجوزى كانوا عشاق، كل واحد فيهم كان بيحب ثروة الثانى، بابا قال إنى لو ماتجوزتوش ...»

فتحت عينيها، وانحنت وأخذت الصورة من يدى.« أخذنا الصورة دى فى استوديو تونى هوانس فى جلفا من غير إذن بابا، تونى وعدنا إنه مش هايقول لبابا، وماقال لوش، كان راجل طيب«. ثم حملقت فى الصورة وضغطت شفتيها ببعض فزادت التجاعيد حول فمها. كان صوت الضفادع ينبعث من الفناء. أردت أن أسأل» وحصل إيه بعد كده؟ فنظرت إلىَّ وابتسمت وقالت: « وحصل أيه بعد كده؟» فتحت الألبوم وتصفحته وأشارت إلى صفحة. كانت الصوة لها هى والشاب وهما جالسين على مقعد معدنى وقد أعطيا ظهريهما لبرج إيفل. فى الصورة التالية كانت هى والشاب يركبان عربة صغيرة تسع لشخصين ويجرها رجل أسود اللون يربط خصره بنطاق من قماش. والصورة التالية كانت أيضًا لها مع الشاب خلف مائدة فى مقهى على الرصيف فى شارع مزدحم.

كنت أستمع إلى حديثها وأنا أنظر إلى الصور« جه ورايا فى كل مكان، الهند، انجلترا، فرنسا، وبعدين الهند تانى، ولما مات جوزى افتكرت ؛إنى بقيت حرة، وفكرت اننا ممكن نتجوز، وان انا أسعد ست فى الدنيا».

مسحت على الصور بيدها، ثم تصفحت الورق بهدوء حتى وصلت إلى الصفحة الأخيرة وبها صورة كبيرة جدًا، صورة لقبر فى منطقة بها أشجار ضخمة، والميرا سيمونيان واقفة إلى جوار القبر تلبس ملابس وقبعة وشالاً أسود، ويدها فى يد فتى يلبس حلة وربطة عنق سوداء. وجاء صوت مدام سيمونيان وكأنه آت من بعيد« هو كمان راح بعد شهور، كنا فى پاريس، ودفنته فى پرلاشز».

صمتت واتكأت على مسند السرير ونظرت إلى السقف، وأحسست أنها ليست فى الحجرة، ربما كانت قريبة من برج إيفل أو فى حارة من حارات بومباى، أو فى مقهى فى انجلترا، وربما أيضًا كانت فى مقابر پرلاشز بأشجارها الضخمة.

أغلقت الألبوم وأخذت الصورة التى كانا قد التقطاها فى الاستوديو.

كانت نظرة الفتاة التى فى الصورة باردة، وكان الشاب يبدو عصبيًّا، وعيناه خضراوين أو ربما زرقاوين، سألتها«هل كانت عيناه زرقاوين؟» مسحت جبهتها بيدها، ثم أخذت الصورة من يدى ووضعتها مع باقى الصور فى الألبوم وقامت من مكانها.

سرنا معًا حتى باب الفناء دون أن نتكلم، كان الباب المعدنى مفتوحًا، وقفت وأمسكت ساعدى وقالت: «سامحينى، أنا كنت مهمومة، تصبحى على خير« وبمجرد أن تحركت نادتنى فعدت، وبجوار الباب المعدنى لم أكن أرى وجهها فى الظلام، قالت وكأن صوتها آت من مكان بعيد جدًا« كانت عينيه خضرا، زى عينين ابنه».

بقيت وحيدة فى الشارع. وكان لون اشجار الصفصاف والأشجار الضخمة يميل إلى السواد، وكانت الخفافيش تلف حول المصابيح ورائحة الغاز تنبعث من المصفاة.

فتحت باب البيت ودخلت. كان المكان كله صامتًا، انحنيت والتقطت التوكة التى كانت واقعة على الأرض بجوار مائدة التليفون، هل هى لـ «آرمينه» أو لـ «آرسينه»؟ لم أعرف، كيف يمكن تمييز توكة واحدة من اثنتين تبريان أقلامهما بالطريقة نفسها، وحتى المكان الذى يقضمان منه الأقلام الرصاص واحدًا.

تحت مائدة التليفون كان هناك دبوس فى رأسه فص يبرق، لمن هذا الدبوس؟ لم يكن تحديد هذا الأمر صعبًا. إنه للسيدة الشقراء.

ذهبت إلى المطبخ وتساءلت متى جاء إميل ليصحب إميلى؟ ومتى عاد إلى البيت؟

كيف لم أنتبه إلى ذلك؟ متى رحلت نينا وصوفى؟ ماذا تناول الأولاد على العشاء؟ كم من الوقت بقيت خارج البيت؟ نظرت إلى زهور البازلاء على حافة الشرفة. كانت رأسى لا زالت تدور من الأحاديث والصور. كانت المائدة ملأى بالأطباق والأكواب المتبقية، ربطت المريلة وبدأت فى غسل الأطباق، جاء صوت وقع أقدام من خلفى، واصلت الغسيل. قال آرتوش « إنتى كنتى عند مدام سيمونيان؟ ».

أفرغت الطبق من بقية الأومليت بالطماطم فى سلة القمامة.

كيف عرف؟ أجاب على ما دار بخاطرى « إميل جه علشانك ».

لم أكن أرى، ولكننى كنت أستطيع أن أتصوره، كان متكئًا على اطار الباب وهويداعب لحيته الصغيرة، ويده الأخرى كانت فى جيب بنطلونه بالتأكيد كان يفعل هذا.

فى الأوقات التى كان يشعر فيها أنى مهمومة ويريد أن يعرف أصل الموضوع. لم يكن يسألنى أبدًا: لماذا أنت مهمومة؟ ربما لم يكن همى متعلقًا به أصلاً. كالليلة، لكنه لم يكن يسأل أبدًا، مسحت مسحوق غسيل الأطباق فى الطبق وقلت فى نفسى: جاء إميل يبحث عنى ولم يفعل زوجى. سحب كرسى على الأرض. « أمك وآليس اتخانقوا مع بعض لسبب أنا مااعرفوش ومشيوا على طول ونينا عملت الأومليت للأولاد، وأخذتهم وصلتهم، والعربية ماعرفش ايه اللى جرى لها تانى، دارت بالعافية ».

أخذت الطبق من تحت صنبور الماء وقرأت المكتوب على اسطوانة المسحوق:

مسحوق غسيل الأطباق « نورمن »، مناسب لغسل الأوانى، والموازييك، الحوض والحمام. وتحت المكتوب كانت توجد صورة ضاحكة لنورمن ويزدم بقبعة كبيرة. أوشكت أن أقول:

« لا تشغل بالك، أنا لست متضايقة منك ولست متضايقة أصلاً »، فقال « آرمن ما أكلش خالص وإيشى مختفية، وآرسينه عيطت علشانها ».

« فككت المريلة ».

كان آرتوش يحرك شيئًا على المائدة إلى الأمام وإلى الخلف، كانت السكرية، وربما الملاحة. كنت أعرف أنه يبحث عن الجملة التالية، ومن المحتمل أن يسأل هاتطبخى أيه بكرة؟ » وحين سأل:

ـ «مدام سيمونيان عاملة ايه؟ كويسة؟ ضحكت، ثم نظرت إليه وقلت بحساب: إيشى تقريبًا بتضيع كل ليلة، وآرمن مابياكلش الأيام دى عشان بيحب وأنا مش كويسة، لكن انت مالكش علاقة بالموضوع، مدام سيمونيان كانت بخير وده أكيد موضوع مش مهم بالنسبة لك.

نظر إلى السكرية للحظات ثم نظر إلىَّ، أرجع الكرسى، ووقف، وخرج من المطبخ. كانت السكرية مقلوبة على المائدة، انتابنى الغيظ. عدت ناحية الحوض. كان نورمن ويزدم ما زال يضحك.

ـ ٢٨ ـ

خرج آرمن وآرتوش من البيت معًا دون ان يودعنى أحد منهما. فى الدهليز أحكمت أربطة أغطية رأسى التوأمين وودعتهما. وضعت آرمينه طعام فسحة المدرسة فى الحقيبة وأغلقت السوستة، وسألتنى «مش هاتيجى معانا لحد الباب» قبلت وجنتها وهززت رأسى بما يفيد أننى لن أفعل. فسألتنى آرسينه: «هو انتى تعبانة؟» قبلت وجنتها وأومأت برأسى أى نعم. أزاحت آرمينه الستار الخلفى للباب وقالت: «الدنيا مغيمة تانى» نظرت إلى الفناء. كانت التوأمان تخشيان عبور الفناء عندما يكون الضباب كثيفًا جدًا.

لم أظهر لهما أننى أعلم أنهما خائفتين؛ أمسكت بأيديهما ورحنا نعبر الفناء ونحن نغنى «نحن نطير بين السحاب».

سويت الستار الخلفى للباب «طيروا بقى أنتم الاثنين بين السحاب، اتفقنا؟» نظرتا لبعضهما، ثم إلى، وكأن نظراتهما حزينة ليس فيها بريقها المعتاد. نظرت إليهما من جانب من الستار الخلفى حتى سارتا إلى وسط الطريق الضيق وهما تمسكان بيدى بعضهما، ثم اختفيا وسط الضباب. لم يكن الباب المعدنى مرئيًّا، وكذلك اختفى فى الضباب شجر الصفصاف والأغصان وجزء من الخميلة التى كانت تشبه رسمًا بألوان الماء.

سألت نفسى لماذا لم أذهب مع البنتين إلى محطة الأتوبيس ككل يوم؟ لماذا تركتهما تنزعجان؟ أى ذنب جنته البنتان؟ وما شأنهما إذا كنت أنا عصبية ومهمومة؟ قال الجانب الحنون بداخلى: «أنت أيضًا إنسانة، ومن حقك أن تتعبى. أنت أيضًا....» ودق جرس التليفون. كانت السيدة نور اللهى، وقالت هااعدى عليكى النهارده الصبح لو كان عندك وقت. كانت هذه أيضًا تنقصنى فى وسط كل هذه الأحداث. رحت أبحث عن عذر فقلت لها «هو انتى مش فى الشغل؟ فأجابت:

«أخذت إذن من رئيسى، وهو راجل طيب، انتى عارفاه، مش كده؟» وضحكت على مزحتها. قلت فى نفسى: «الحمد لله إن رئيسك راجل طيب مع شخص واحد

على الأقل». لم ينطق رئيسها بكلمة واحدة حتى بعد قلب السكرية. رحت أبحث عن عذر آخر فقلت:

ـ «كنت عاوزة أنزل البلد النهاردة ....» فقالت كويس جدًا، انا كمان كنت عاوزة اشترى شوية حاجات، يبقى نتقابل الساعة عشرة فى «ميلك بار»، وحين حاولت أن أبحث عن عذر آخر شكرتنى بثلاث جمل طويلة وودعتنى بكلمة واحدة ووضعت السماعة».

كان عندى وقت طويل جدّا حتى الساعة العاشرة. كان هذا هو يوم تغيير الملاءات، فذهبت إلى حجرة آرمن، وحاولت ألا أرى الفوضى التى فى حجرته، الحذاء والجوارب والكتب والمجلات واسطوانات الجرامافون وأكواب اللبن الفارغة التى كان مستحيلاً بالنسبة له أن يعيدها إلى المطبخ. التقطت البيجامات المكرمشة، وعدة كتب، وكتيبًا صغيرًا تحت السرير، وسحبت الملاءة من على المرتبة فاهتزت وسقطت على الأرض ورقة، ظننت أنها ورقة الامتحان الشهرى وأنه أخفاها لأن درجاته قليلة. كلعب التوأمين التى كان يخفيها دائمًا فى أماكن تبدو لهما عجيبة، كنت أعثر على هذه الأوراق كثيرًا خلف غطاء التكييف، وفوق دولاب الأدوية الموجود فى الحمام، وتحت السجاد فى الحجرات. فتحت الورقة وفهمت أنها رسالة من أول كلمة قرأتها فقلت لنفسى إنه لا يجب ان أقرأها، وأن قراءة رسائل تخص الآخرين حتى وإن كان ابنى عمل قبيح وأنه لا يجب...، ولا يجب.... وقرأت. ومن الشطب والتكرار والحذف والإضافة كان واضحًا أنها المسودة الأصلية لرسالة ما.

عزيزتى إميلى أجمل الجميلات ـ لن انساك حتى آخر يوم فى حياتى وأنا مستعد أن أذهب معك إلى آخر الدنيا ـ إذا أمرت ـ أن أخلصك من يد جدتك المستبدة وأبيك القاسى. وأن أنجو أنا أيضًا من أختى الحمقاوين وأمى التى تعرف فقط.. أن تنتقد، وان تطهو الطعام وتزرع الورد وتحفرالأرض وأبى الذى يحب ـ فقط ـ أن يلعب الشطرنج ويقرأ الصحيفة. الموت لكل الآباء والأمهات والجدات».

جلست على السرير وفى يدى الرسالة، ونظرت إلى شجرة النبق من النافذة وشعرت أنهم قد وضعوا أمامى فجآة مرآة ـ من المكان الذى لم أتوقعه أبدًا ـ وها أنا

أنظر إلى نفسى فى هذه المرآة فأرى نفسى التى لا تشبه أبدًا ما كنت أظن نفسى عليه.

وضعت الرسالة تحت المرتبة وغيرت الملاءة وكيس الوسادة، ورتبت السرير وخرجت من الحجرة.

رأيت الساعة التى كانت قد تجاوزت التاسعة من خلف دموعى بصعوبة.

كم كنت أريد ألا أخرج، كم كنت أريد ألا أرى أحدًا قط ناهيك عن مدام نور اللهى. كم كنت أتمنى أن لو أنى عدت طفلة فألقى بيدى على عنق أبى وأبكى بكاءًا حارًا.

ـ ٢٩ ـ

لم يكن فى الأتوبيس راكب سواى. كان السائق يترنم بلحن عربى بصوت خفيض، خمنت من «يا حبيبى» ويا «روحى» التى يغنيها من سويداء فؤاده أنه عاشق ولاشك.

مررنا من أمام سينما «تاج» ـ وكأنه كان بالأمس القريب ـ كنت أترك التوأمين اللتين كانتا لا تزالان صغيرتين عند أمى كل جمعة ثم أحضر آرمن إلى سينما «تاج». كنت أعد له فى البيت ساندويتشات السجق بالبقدونس والبصل المقطع قطعًا صغيرة حيث كان يحبها جدًا. وكان أيضًا مغرمًا بمشروب الـ ـ كندادراى ـ البرتقال وكان لا بد أن يذهب ليشتريها من مقصف السينما بنفسه.

كنا نشاهد الفيلم معًا، ونأكل الساندويتشات ونضحك، وعند العودة كان يحكى لى الفيلم من أوله إلى آخره مرتين وثلاثة ويده فى يدى.

وقف الأتوبيس أمام متجر «النجم الأزرق»، شردت أسأل نفسى منذ متى لم أمسك بيده. منذ متى لم نذهب معًا إلى السينما؟

قبل النزول من الأتوبيس قلت للسائق «الأغنية كانت جميلة» فضحك. كان شابًا وله ثلاث أسنان ذهبية.

وقفت خلف زجاج «النجم الأزرق» وسألت نفسى: «ماذا تريد مدام نور اللهى؟» «هل يكرهنى ابنى حقًا؟»، لماذا «لم يسع آرتوش إلى الصلح معى؟. كان ملصقًا على واجهة المحل الزجاجية من الأركان الأربعة إعلان من الورق المقوى مكتوب عليه: شاهدوا غسالة الملابس ايزى ـ صناعة أمريكية ـ داخل المتجر.

كان آرتوش قد سألنى عدة مرات «ليه مابتشتريش غسالة ملابس؟ فقالت أمى «الهدوم لازم تتغسل بالإيد». وقالت آليس «دى غالية جدًا» وقال آرتوش «لازم تشتريها».

دخلت «ميلك بار» وصعدت السلم الحلزونى، كانت بعض الموائد المجاورة للواجهة الزجاجية مليئة بالزبائن من الشبان والشابات، والنساء والرجال الذين لا يبدون شبابًا, كنت متعبة، كانت آليس حين تتحدث عن ميلك بار تغمزبعينها وحاجبها وتقول:

ـ «دى الصبح بتبقى مكان للراندیڤوهات...»

قلت للنادل إننى انتظر سيدة من صديقاتى، وأكدت على كلمة «سيدة» وجلست على واحدة من الموائد التى تتسع لشخصين وعينى معلقة بالدرج أنتظر أن تأتى مدام نور اللهى بسرعة فتقول ما تريد وتذهب. شردت أفكر فى رسالة آرمن، وفى آرتوش والسكرية المقلوبة، لماذا لا يفهم أحد ما أقول. لم تحدث أبدًا كل هذه الأحداث وراء بعضها وفكرت كم كانت حياتى مستقرة وهادئة قبل مجىء إميلى وجدتها إلى ـ (G4) ـ هاجمنى جانبى الناقد قائلاً: «إميلى وجدتها فقط هما اللتين دمرتا استقرار حياتك؟»

كانت رؤية الشينيون العالى والشريط المنقط الذى بدا من أعلى الدرج حجة لى لكى أتهرب من الرد.

سألتنى مدام نور اللهى بمجرد جلوسها «مالك؟» صعقت، هل كان باديًّا علىَّ إلى هذا الحد أن حالتى سيئة؟.

شرحت لها أننى مشغولة هذه الأيام وأن عندى ضيوف دائمًا، ومشغولة بالأولاد، وأن الجو حار، والرطوبة تصيبنى بالعصبية. وأن الأولاد يكبرون ومشكلاتهم تكبر معهم، وأن محاولة فهم المشكلات وحلهاتتعب الإنسان، وأننى أشعر أحيانًا أننى لست أمًا صالحة، وأن من حولى يزيدون من أعبائى بدلاً من أن يساعدونى، وأننى تعبت... ثم انخرطت فى البكاء. ومن خجلى كنت أريد أن أختبىء تحت المائدة. لماذا ابكى فى مكان غريب؟ ولماذا أقول ـ الأشياء التى لم أقلها لأحد أبدًا ـ لأمرأة رأيتها عدة مرات فقط والعلاقة بيننا ليست حميمة إلى هذه الدرجة؟

أخرجت مدام نور اللهى من حقيبتها منديلاً ورقيًّا وأعطته لى، مسحت عينىَّ بالمنديل وقلت لها «أنا آسفة، أنا مش عارفة إيه اللى حصل؟» وضعت يدها فوق يدى، ولم تتكلم حتى رفعت رأسى ونظرت إليها ثم قالت:

ـ شعرك جميل جدًا، يا ريت شعرى كان ناعم كده.

وربتت على يدى عدة مرات. ثم سحبت يدها وقالت :

ـ «بيمدحوا قوى فى آيس كريم القهوة اللى بيتقدم هنا»

بينما كانت هى تطلب آيس كريم القهوة من النادل أدرت أنا رأسى إلى الواجهة الزجاجية. فرأيت واحدة من النخل الموجود على الناحية الأخرى من الميدان وقد جفت فتذكرت أننى حين كنت طفلة كانت أمى تقول «ياريت كان شعرك مجعد شوية زى شعر آليس»

وحين ذهب النادل عدنا للحديث ؛ قالت مدام نور اللهى :

ـ «إنتوا يا ستات الأرمن متقدمين عنا جدًا ، إحنا يادوب لسه بادئين نكافح علشان ناخد حاجات عندكوا إنتوا من فترة ، إحنا لسه على أول الطريق ، ربما كان علىَّ أن أقول لها :

ـ «الحكاية مش زى ما إنتى فاكرة»

ولكننى أومأت برأسى فقط.

طلبت منى أن أحدثها عن طريقة إدارة المدرسة ، وعن هيئة أمناء مجتمع الأرمن. قلت لها إن الأرمن بنوا المدرسة بأنفسهم ، وأننى لا أتذكر من الذى سمعت منه. وأن المجموعة الأولى من الأرمن الذين تم توظيفهم فى شركة البترول الإنجليزية الإيرانية كانوا يذهبون كل يوم بعد ساعات العمل إلى المدرسة ، وأنهم شيدوا مبنى المدرسة فى الواقع بأيديهم. ثم سألتنى مدام نور اللهى «وإزاى سموا المدرسة باسم (ادب)؟ ولم أكن أعرف الجواب.

تحدثت عن طريقة دفع الرسوم الشهرية ، شهرية التلاميذ يتم تحديدها عن طريق دخل الوالدين ؛ فكلما زاد دخل الأسرة زادت شهرية التلاميذ ، وعلى العكس ؛ فالأسر القليلة الدخل لا تدفع شهرية ، بل وتحصل أحيانًا على مساعدات مادية.

ولم أقل لها إن الأسر التى تتمتع بأحوال مادية طيبة كانت تفاصل أحيانًا لتخفيض الشهرية. حدثتها عن الضرائب السنوية التى حددتها هيئة الأمناء ، والتى يجب أن يدفعها كل شخص حسب دخله السنوى.

ولم أقل لها إنه يوجد أيضًا من لا يتورعون عن التهرب من دفع الضرائب. حدثتها

عن السوق الخيرى الذى يقام مرتين أو ثلاث مرات فى العام وتبيع فيه النساء الحلوى المصنوعة فى البيت والمنسوجات والأشغال اليدوية، وأن إيرادات البيع تذهب لمساعدة الأسر الفقيرة. ولم أقل لها إن هذه الأسواق أيضًا مراكز للغيبة والغمز واللمز والتباهى، والحديث عن السيارات ورحلات أوروبا ومناصب الأزواج. كانت تصغى إلى حديثى بدقة. شكرت النادل الذى كان قد أحضر آيس كريم القهوة ثم سألتنى «إنتى تعرفى مدام إيماخاچا طوريان؟» فأجبتها بالنفى. وحين قالت:

ـ «دى بتعمل تورت حلوة جدًا»

تذكرت، فأمى التى لم يكن يعجبها إعداد الحلويات من قبل أحد أبدًا ـ كانت تقول:

ـ «تورت، التورت من إيد إيما وبس!»

قالت مدام نور اللهى:

ـ «وقت ما كنا فى طهران كانت هى بتعمل فى جمعية فرح الخيرية طريقة عمل حلويات...، إيه نسيت اسمها.... نازك؟[1]

فقلت لها «نازوك» قالت «أيوه، أيوه». كانت بتعمل نازوك حلوة جدّا»

ثم تحدثت عن جمعيتها، وعن كفاح النساء للحصول على حق الانتخاب، وعن فصول محو الأمية. وعن كيف أن المرأة الإيرانية ما زالت جاهلة بحقها وحقوقها. الآن وهى تتحدث ببساطة لم تكن تستخدم كلمات متحذلقة. كان كلامها ينفذ إلى القلب. سألتنى فيم أفكر، وضحكت.

ـ «لو ماتكلمتش بالفصحى وأنا باقول الخطبة الناس هاتفتكر حاجة من اتنين؛ إما إنى ماباعرفش، أو إنى باقول كلام مش مهم»

وأكلنا آيس كريم القهوة، كان لذيذًا!

اتجه شاب وشابة ناحية جهاز إذاعة الموسيقى الذى كنت قد سمعت أن «ميلك بار» قد استورده من أوروبا مؤخرًا. كنت أعرف اسمه «چوك بوكس» ولكنى لم أكن قد رأيته حتى ذلك اليوم. بدأ الشابان يتجادلان حول اختيار الاسطوانة، ولكنه لم يكن نقاشًا جادًا. كان الشاب نحيفًا وطويلاً

(١) نازوك: نوع من الحلوى الهشة.

وكانت البنت تلبس ثوبًا بلون النارنج يشبه الجوال، كان الثوب منسدلاً وحول أكمامه وذيله شريط أخضر اللون.

كانت مدام نور اللهى هى الأخرى تنظر:

ـ «لما بااشوف الشباب مبسوطين وبيضحكوا باحس بالسعادة. إحنا بنهلك نفسنا علشانهم. لما بافتكر فى شبابى...»

اختار الشابان اسطوانة فى نهاية الأمر، اسطوانة من تلك الألحان التى كان آرمن يضعها دائمًا ويرقص على أنغامها رقصة التويست. لم أفهم أبدًا معنى العبارة التى كان المغنى يكررها مرات ومرات. أكلت آيس كريم القهوة وفجأة فهمت« Hitthe rood jack» لماذا لم تعجبنى هذه الأغنية من قبل؟ إنها جميلة.

هزت مدام نور اللهى آيس كريم القهوة:

ـ «الحاجات دى مش جديدة على الأرمن، دى جديدة علينا إحنا، ماما وبابا مثلا كانوا متحضرين ومتعلمين لكنهم أصروا إن أنا أتجوز ابن عمى. أنا عارفة إن العادة دى مش موجودة عند الأرمن ولكنها موجودة بيننا، والجواز فى الأسرة مش دايمًا وحش وزى أجدادنا ما بيقولوا بناخد عليه ثواب كمان. سمعت بالتأكيد عن زواج بنت العم من ابن عمها مكتوب فى السماء مش كده؟ كنت قد سمعت.

من جديد حاولت أن أقول إن الأمر ليس كما تفكر، وإن نساء الأرمن أيضًا لديهن مشكلاتهن، ولكن مدام نور اللهى لم تترك لى الفرصة.

تحسست بيدها الفيونكة على الشينيون، ربما لتتأكد من إحكامها وهى تواصل حديثها:

ـ «وأنا كمان كنت مصرة».

وضحكت من أعماق قلبها، وظهرت على خديها المكتنزتين غمزتان.

ـ «الحقيقة أنى كنت باحب ابن عمى اللى كان جه بيتنا كذا مرة. المهم انى أنا وابن عمى اتفقنا وألحينا كتير على أهلنا لحد ما قبلوا»

نظرت إليها وأنا أضع يدى تحت ذقنى وسألتها:

ـ «واتجوزتى ابن عمك؟ لفت أصابعها حول الكوب كحلقة، ونظرت إلى الخارج، وهزت رأسها، ثم زالت الابتسامة من على شفتيها ومن نظراتها وقالت:

ـ «من عشرين سنة تقريبًا» أردت أن أسألها سؤالا ولم تواتنى الجرأة وفى النهاية سألتها «ولسة.....؟» رفعت ما تبقى من الآيس كريم فى قاع الكوب إلى فمها، وحين علا صوت هورت أنزلت الكوب، ومسحت شفتيها بمنديل ورقى، وضحكت وقالت:

ـ أزعق فى الأولاد وأقول لهم ما يعملوش كده وبعدين أعمله أنا، ولسه أيه أنا راضية عن جوازى ولا لأ؟.

هززت رأسى، وسحبت مدام نور اللهى نفسًا طويلاً وقالت:

ـ «شايفة الفستان ده؟» وأمسكت بإصبعيها ياقة الثوب «شفت موديله فى مجلة» كانت ياقة الثوب إنجليزية، به ستة أزرار تصل إلى الخصر. «لفّيت طهران كلها لحد ما لقيت القماش بتاعه» كان قماش الثوب من الكتان الأبيض المنقط بنقط صفراء كبيرة.

ـ «عملت عليه بروفة عشر مرات، ودفعت فلوس كتيرللترزى لحد ما خلص» إتكأت على ظهر الكرسى ونظرت إلىّ وكنت فى انتظار نظرتها. صبرت حتى حمل النادل الأكواب الفارغة وذهب، ثم تقدمت إلى الأمام واتكأت على المائدة بكوعها وقالت: «بعد ما لبسته بقى حاجة عادية، وطبعًا لسة باحبه، وباخلى بالى علشان مفيش حاجة تبقعه، وبعد كل مرة ألبسه فيها أنظره وأعلقه فى الدولاب علشان ما يتكرمش لكن...» فتحت حقيبتها وأخرجت علبة سجائر وسألتنى:

ـ «بتدخنى..؟».

أخذت سيجارة وقلت: «أحيانًا.»

أشعلت الكبريت وقالت: «أنا كمان أحيانًا».

نظرت إلى علبة السجائر، كانت فضية، وعلى وجها نقشت بالحفر ورود ذات سيقان عالية. قلت: «أد إيه العلبة دى حلوة مثلت بيدها طريقة هز السيجار فى اليد فأفهمت النادل أن يحضر منفضة السجائر. ثم نظرت إلى علبة السجائر وابتسمت «دى هدية» قلت لها «كنتى بتتكلمى عن الفستان».

مسحت بيدها على العلبة الفضية وكأنها تدللها، وسحبت نفسًا من السيجارة

«فى العيد لما كنت فى طهران لقيت الحزام ده بصعوبة فى محل ـ جنرال مود» وأرجعت الكرسى إلى الوراء قليلاً وأرتنى الحزام «منقط زى نقط الفستان بالظبط، مش كده؟»

كان الحزام بنفس لون النقط تمامًا، بقفل ذهبى كبير جدًا.

سحبت المقعد للأمام ونظرت إلى ساعتها وقالت :ـ

المهم إن الإنسان لازم يحافظ على الحاجات اللى بيملكها، دى الساعة بقت حداشر، ولازم أكون عند الدكتور الساعة حداشر ونص، وأنا عاوزة أسأل ألف سؤال».

وضعت يدها على حقيبتها الصفراء الكبيرة، وأخرجت ورقة «أنا كتبتها كلها» وبدأت فى القراءة: قوانين الزواج والطلاق عند الأرمن، حق رعاية الأبناء بعد الطلاق، حقوق المرأة فى تاريخ أرمينيا، نسبة التعليم بين النساء. قطعت كلامها وقلت لها إننى لا أستطيع أن أعطيها الإجابات الدقيقة وأنه من الأفضل أن تتحدث مع أعضاء لجنة الكنيسة والمدرسة.

هزت رأسها وسجلت بعض أسماء الأشخاص وقالت إنها تريد أن تدعو كل نساء الأرمن لكى يشاركن فى جلسات جمعيتها وقالت:

ـ «مشكلات الستات كلها زى بعضها، مافيش فيها مسلم وأرمنى».

ثم قالت:

ـ «الستات لازم يتحدوا مع بعض ويحلوا مشاكلهم، لازم يعلموا بعض، ويتعلموا من بعض. كانت تتحدث وكأنها تخطب.

لم تتركنى أدفع الحساب رغم إصرارى الشديد وقالت لى:

ـ «إنتى ضيفة جمعيتنا».

كنا نودع بعضنا فى الشارع حين تذكرت شيئًا فسألتها:

ـ «إنتى حضرتى مراسم أربعة وعشرين أبريل؟» فقالت إنها شاركت ثم سألتنى بدهشة «ليه؟» ثم قالت بدهشة «وليه لأ؟ المصيبة مصيبة، مفيش فيها مسلمين وأرمن «وهذه المرة لم تكن تتحدث وكأنها تخطب.

ـ ٣١ ـ

بعد البرودة والظلام فى «ميلك بار» كانت حرارة الشارع ونوره لطيفة، أحسست أن حالتى تحسنت، أحسست أنى صرت أخف. مررت من أمام سينما «ركس» كان هناك صف طويل أمام الشباك، وكان الواقفون فى الصف كلهم رجال، وأغلبهم عربًا. لماذا لم يكونوا فى أعمالهم فى هذا الوقت من الصباح؟

كان البرنامج القادم للسينما فيلم «توم عقله الإصبع» نظرت إلى صورة الفيلم، كان توم «عقلة الإصبع» جالسًا على كرسيه، وهو عبارة عن اسطوانة خلف مائدته، وهى فنجان مقلوب، ويشرب الماء فى كوبه وهو «كوستبان»[1] صغير كان هناك رجل عربى يبيع الجمبرى المجفف أمام السنيما، سددت أنفى ومررت بسرعة، وقلت لنفسى، فلنأت لنشاهد الفيلم مادامت التوأمان لم تتخذ أبعد قرارًا كالذى اتخذه آرمن.

اشتريت البنطلون الذى كان آرمن قد طلبه منذ مدة طويلة بشرط أن استبدله لو لم يكن مقاسه مناسبًا. خرجت من المحل وليست بداخلى رغبة فى أن أعود إلى البيت. كنت أريد أن أتمشى وأفكر، وربما أتمشى دون أن أفكر.

بدأت فى المشى وأنا أفكر أنه طالما أن البقاء فى البيت والاختلاط بأفراد محدودين والانشغال بمسائل متكررة جعلنى عصبية علىَّ إذن أن أفعل شيئًا لنفسى، مثل مدام نور اللهى. مررت من أمام حلوانى «نجرو» وتذكرت عزومة ليلة الخميس فعدت ودخلت واشتريت حلوى جافة ونُقلاً. خرجت من محل الحلوانى وفى يدى علب النقل والحلوى واللفة التى بها البنطلون فوجدت أمامىوجهًا لوجه إميل سيمونيان الذى كان آتيًّا نحوى.

هل كان متعجلاً حقًا أم أن إحساسى كان فى غير موضعه؟ بينما كنت أتساءل فى داخلى لماذا هو ليس فى عمله فى هذا الوقت من النهار قال: «الحقيقة إنى كنت تعبان

(١) غطاء للإصبع يستخدمه الخياطون لحماية أصابعهم من وخز الإبر (المترجمة).

ماكانش لى مزاج أشتغل فأخذت أجازة مرضية وجيت السوق علشان أشترى جوانتى جناينى وفاس صغير»

عدت لأفكر أن السوق فى الناحية الأخرى فإذا به يقول: «لو ماكنتش مستعجلة ممكن تيجى معايا، أنا مش عارف أدور عليهم فين»

لماذا كان متعجلاً إلى هذا الحد؟ كأن أحدًا قال له: «ربما تقابلك لم أعرف أى جانب بداخلى كان.

قلت له:

ــ «علشان نلاقى الحاجات دى يبقى لازم نروح محل جمعية البساتين أخذ المشتروات من يدى وسألنى «فين؟»

ركبنا تاكسى، وقلت للسائق: «ميدان ألفى».

أمام متجر جمعية البساتين كان هناك بائع على عربة يد بجوار الرصيف يبيع الزيتون والخيار المملح مع ورق العنب. فكرت أن أشترى الزيتون والخيار المملح لليلة الخميس، واشتريت، وخرج إميل من المتجر ومعه الفأس والقفاز وعدة شتلات من البذور. وقال لى:ـ

«اشتريت بذور وردة البسلة»

ثم نظر إلى ما يبيعه البائع المتجول وقال: «أنا باحب المحشى، ومن مدة طويلة ماأكلتوش» .فاشتريت ورق العنب

ركبنا أتوبيس خط «بوارده» وظللنا نتحدث طوال الطريق، ولا أعرف كم مرة قلنا:

ـ «رائع، وأنا أيضًا كذلك»

عند باب البيت ناولنى اللفائف وقال: «صدقينى أنا مش بااجاملك، أنا عمرى ما اتكلمت مع أى حد فترة طويلة كده»

حين انتهيت من إعداد خلطة المحشى كان الليل قد حل، قلت لآرتوش:

ـ «ممكن تاخد الأولاد ياكلوا عند «فيش آند شيبس» «قفزت التوأمان فرحًا، وظن آرتوش بالتأكيد أننى أسعى للصلح.

وضعت خلطة المحشى فى الثلاجة وقلت إن عندى عمل طوال الليل من أجل ليلة الخميس، وتلكأت فى إغلاق باب الثلاجة كى لا تلتقى نظرتى بنظرة أحد.

خرجت البنتان وهما تضعان أيديهما على فميهما كى لا أرى على شفاهما لون «كول ايد» الأحمر، فقلت لهما وأنا خلفهما «أحمر شفايف حلو قوى».

فرفعتا أيديهما وضحكتا. عندما أغلقت الباب قلت لهما:

إتأخروا فى الرجوع، اتأخروا....» نظر إلىَّ أربعتهم مندهشين وهم يمرون بالممر الضيق.

وقفت أمام نافذة حجرة الجلوس، كان مصباح حجرة الجلوس فى (G4) مضاءً. تساءلت ماذا يفعل؟ ربما يتحدث مع أمه، أو يقرأ كتابًا، وربما...».

سحبت الستارة بسرعة وذهبت إلى المطبخ، ووضعت سلة ورق العنب على المائدة وأخرجت خلطة المحشى من الثلاجة.

بمجرد أن لففت أول إصبع محشى ووضعته فى الوعاء بدأ صراع الجانبين اللذين بداخلى:

«حمقاء جدًا».

ـ «ماذا؟ أين هى المشكلة فى العلاقات بين شخصين؟

ـ «لا توجد مشكلة ، ولكن...».

ـ «هل لأنهما امرأة ورجل لا يجب أن يتحدثا معًا؟».

ـ «يتحدثان فقط».

ـ «بالطبع يتحدثان فقط».

ـ ....

«هو الشخص الوحيد الذى يفهم كلامى».

ـ «إذن فحين أتحدث مع نفسى فأنا مجنونة».

ـ .....

ـ «تعبت لأن كل ما أعمله هو من أجل الآخرين».

ـ .....

ـ «هذا هو ردى. ابنى يعتقد أنى أعترض وانتقد فقط. وزوجى ليس مستعدًا لأن يتكلم معى ولا كلمة واحدة. أمى وأختى تسخران منى فقط. ونينا مثلاً ونحن صديقتان تعرف فقط كيف تلقى بالأعباء على مثل الآن. تمامًا حيث يجب أن أعد الطعام لأناس لا أطيقهم أصلاً»

ـ لا تطيقين أى منهم؟

ـ .....

ـ «لماذا تعدين المحشى؟».

ـ .....

ـ «من أجل من تعدينه؟».

ـ .....

ـ «حمقاء جدّا».

وضعت آخر إصبع محشى فى الإناء، وحملقت فى ورود البازلاء الموضوعة على حافة الشرفة.

ليلة الخميس تسابق الضيوف فى المجئ مبكرًا.

كانت التوأمان وصوفى جالسات على الأرجوحة التى فى الفناء، وكلما ارتفعت إلى أعلى كان الثلاثة يمددن أيديهن ناحية أشجار الصفصاف وهن تضحكن وتتصايحن وتحاولن الإمساك بفروعها الرقيقة الخضراء. كانت شجرة الصفصاف المجاورة للأرجوحة، وكل شجرة صفصاف أخرى تذكرنى دائمًا بشعر باروناى هوانس تومانيان الذى طالما قرأته فى طفولتى وقلما حفظته.

كنت أنظر إلى النافذة والصفصافة وأنا أقطع الخيار والطماطم، ورحت أغنى بصوت عال جدّا الجزء الذى كنت أحبه كثيرًا:

عزفت الطبول

وظهرت الأميرة الجميلة، والملك ذو الشعر الأبيض.

البنت كهلال القمر اللطيف، والأب كالسحاب الكثيف

السحاب والقمر يضع كلاهما رأسه على كتف الآخر ...

سمعت صوت أنفاس وخشخشة ملابس؛ فالتفت، كانت التوأمان وصوفى واقفات عند باب المطبخ.

قالت صوفى: «أيه الشعر الجميل ده يا خالتى».

وقالت آرمينه: « غنيه من الأول».

وقالت آرسينه: «غنيه».

ضحكت: «مش حافظاه من الأول».

قالت آرمينه: «طب، خلاص احكى لنا حكايته «.

وقالت آرسينه: «احكى».

ألقيت قشر الخيار فى سلة القمامة وقلت:

«قريتها لكم من الكتاب ميت مرة».

فقالت آرسينه: «طب احكيها لصوفى».

وقالت آرمينه: «هى أكيد ما تعرفش الحكاية».

وسألتا صوفى: «تعرفيها؟» .

فهزت صوفى رأسها بالنفى.

وضعت زيت الزيتون وعصير الليمون على المائدة وبدأت فى إعداد تتبيلة السلاطة وأنا أحكى القصة: «فوق جبل عال كان عايش ملك له ابنة جميلة، وكبرت البنت وكان لازم تتجوز، وجه من كل الدنيا أمرا كتير يخطبوا البنت، فأعطى الملك للبنت تفاحة ذهبية وقال لها إرمى التفاحة دى ناحية الأمير اللى تختاريه علشان يبقى جوزك».

جلست البنات حول المائدة وهن ينظرن إلىَّ وأيديهن تحت ذقونهن ينتظرن بقية القصة. ولأول مرة فكرت كم هو شئ لطيف أن تختار البنت زوجًا وليس العكس. مسحت يدى التى كانت قد اتسخت بزيت الزيتون فى المريلة وقلت « قال الأمرا أنهم

مستعدين علشان يجيبوا لبنت الملك كل اللى هى عايزاه، دهب وجواهر، وحتى نجوم السماء والقمر».

قالت صوفى «أد أيه بنت الملك محظوظة، لو كنت مكانها كنت طلبت القمر وكل الجواهر والشيكولاته اللى فى الدنيا « فقالت التوأمان معًا « هُس ...».

خلطت تتبيلة السلاطة: «قالت الأميرة بأيه يفيدنى الدهب والجواهر والقمر ونجوم السماء؟ أنا عاوزة حاجة واحدة بس من شريك حياتى، عاوزة نار الحب الحقيقى».

نظرت البنتان إلى صوفى وهى تنظر إلىَّ بفم مفتوح.

وضعت الملح والفلفل على التتبيلة. « أول ما الخُطّاب سمعوا كلمة النار جريوا على آخر سرعة يدوروا على النار من غير ما يستنوا يسمعوا بقية كلامها وهُمّا فاكرين إن الأميرة عاوزة نار بجد، وفضلت الأميرة مستنية».

ضربت على يد آرمينه التى كانت تلتقط الخس من طبق السلطة، ورحت أكمل القصة: « وانتظرت الأميرة سنين وسنين لحد ما نزلت راسها فى النهاية من شدة الحزن والألم وقعدت تبكى لحد ما عملت من دموعها بحيرة وغرق قصر الملك فى الميه».

رحن ينظرن إلىَّ ورءوسهن مائلة، وضعت طبق السلاطة على الرف.

«كل شجرة صفصاف تشوفوها هى بنت الملك اللى بتبكى مطأطئة الرأس، والأمراء هم الخفافيش اللى لسه بيلفوا حوالين المصابيح فى الليل علشان يجيبوا النار للأميرة»

اصطدم عصفور بستار النافذة فزقزق وطار.

قالت آرمينه: «مسكينة شجرة الصفصاف».

وقالت آرسينه: «مساكين الخفافيش».

وكانت صوفى ما تزال تنظر إلىَّ وفمها مفتوح.

ـ ٣٢ ـ

كانت آليس جالسة إلى جوار يوب، وكانت تضحك بشكل متقطع وتطرف بجفونها المطلية بظل الجفون بسرعة، كانت «تشبه رابونزل» حين تثنيها البنات ويفردنها. كانت أمى تجيل بصرها بين آليس ويوب وهى جالسة على المقعد المواجه لهما وكأنها تشاهد مباراة بينج بونج.

كان آرتوش وإميل يلعبان الشطرنج، وكانت إميلى جالسة بجوار أبيها وهى تنظر إلى السجادة واضعة يديها تحت ذقنها وركبتيها مضمومتين.

وكان آرمن واقفًا عند رأس آرتوش لابسًا بنطلونه الجديد، وفى الناحية الأخرى من الحجرة كانت ڤيوليت تتصفح ألبوم صور عُرسى أنا وآرتوش، وكانت هى التى طلبت بإصرار أن تشاهده.

أما جارنيك ونينا فكانا أحيانًا يتحدثان مع آليس ويوب، وأحيانًا مع أمى، وأغلب الوقت كانا يتحدثان سويًا، وكل عدة دقائق كانا يجدان عذرًا للضحك.

سألت ڤيوليت: «ليه مش بتبروزى صورة من صور الفرح وتعلقيها على الحيط؟»

جعلت أبحث عن رد، فإذا بـ إميلى تضع يديها على وجنتيها وتقول:

«ياه، وردة جزمتى مش موجودة!».

نظر الجميع إلى حذاء إميلى، كانت هناك وردة بيضاء فى واحدة من فردتى الحذاء الأزرق، أما الفردة الأخرى فلم تكن بها وردة.

تقدم آرمن وقال:ـ «أكيد وقعت هنا، يللا ندور عليها».

نظرت إميلى إلى أبيها وأدارت رأسها، فابتسم إميل وقال لها: «روحى دورى عليها يمكن تلاقيها».

قامت إميلى من مكانها بهدوء ومسحت على تنورتها السوداء الضيقة وخرجت مع آرمن من الحجرة.

جاءت ڤيوليت وفى يدها الألبوم وجلست مكان إميلى، وقال آرتوش لـ «إميل» «كش ملك! أنت النهاردة مش مركز خالص»، وأغلقت ڤيوليت الألبوم.

ذهبت إلى المطبخ بحجة إحضار شئ للشراب. كنت واثقة أن إميلى عندما جاءت كانت فردتا الحذاء بهما وردتين. كنت واثقة لأننى بمجرد أن رأيت الحذاء قلت فى نفسى: «إنه بالضبط الحذاء نفسه الذى اشتريته منذ أسابيع».

هل أشتريت حذاء أطفال، أم أن الفتاة هى التى اشترت حذاءً حريمى؟

كنت أروح وأجئ بين المطبخ وحجرة الجلوس. متى تنتهى هذه العزومة الإجبارية؟ قلت لنفسى إنه عندما يرحل الجميع وأغسل الأطباق وأرتب المكان سوف أجلس فى الفوتيه الأخضر المريح وأقرأ قصة ساردو لكى أعرف ما الذى سيفعله بطل القصة فى النهاية؟ تذكرت الصباح حين ذهبت لأدعو مدام سيمونيان مرة ثانية لكى تأتى الليلة. هذه المرة لم يجبرنى أحد، كنت أنا أرغب فى هذا.

حين فتحت الباب ظننت أنها مريضة؛ كان لونها شاحبًا وعيناها غائرتين.

كانت ترتدى ثوبًا أبيض طويلاً وفضفاضًا. ذهبنا إلى حجرة الجلوس، وأجابتنى حين سألتها عن أحوالها قائلة: «امبارح نمت نوم مزعج جدّا». وبمجرد أن فتحت سيرة العزومة قالت لى «لا» باحكام جعلنى لا أجرؤ على أن أصر.

لم تكن العزومة أمرًا يعنينى كثيرًا، كنت أريد أن أتحدث، عن الرجل ذى العينين الخضراوين، عن إميل، عن زوجته، كفيلم شاهدت مناظر سوف تعرض منه، فرغبت فى أن تراه كله.

ولكن جارتى يبدو أنها لم تكن راغبة فى الحديث أصلاً، وظلت تحملق فى السجادة المفروشة على أرضية الحجرة وهى صامته إلى أن وقفت وودعتها فلم تصر على أن أبقى، كان سلوكها باردًا كأنها ليست هى نفس المرأة التى حكت لى أكثر أحداث حياتها خصوصية منذ عدة ليال.

وضعت الأطعمة التى كنت قد طهوتها للعشاء على الموقد لكى تسخن، «بلوخورشت فسنجان»[1] «محشى ورق عنب» و «أيكرا»[2] أمام الطعام الذى كنت

(١) بلوخورشت فسنجان: أرز مع الفسنجان (المترجمة).
(٢) أيكرا: طعام آرمنى. (المترجمة).

أحبه جدًا، وكنت قد جعلته حارًا أكثر من المعتاد ظنًا منى أن مدام سيمونيان ربما تأتى.

كنت أخرج الخضراوات والطرشى من الثلاجة حين قال إميل «تعبت نفسك».

رجعت إلى حيث كان واقفًا بجوار مائدة المطبخ وقلت له «تعب إيه؟».

وبعد أن خرجت من فمى «اتمنى أنك تكون مبسوط فى العزومة دى» صرخ فىَّ جانبى المنتقد قائلاً « افتضح أمرك فقلت على الفور: «أتمنى إن الجميع يكونوا مبسوطين».

أخذ سلطانية الطرشى وسلة الخضراوات من يدى، ووضعها على الصينية بجوار طبق السلاطة وقال: «كلاريس إحنا لازم نتكلم مع بعض، امتى هايكون عندك وقت؟».

كانت السلسلة التى يلبسها فى عنقه فوق القميص فراح قلبى يدق بسرعة.

وصلت نينا وقالت: «أعمل إيه؟» أشيل الحاجات دى وأرصها على الترابيزة أومأت لها برأسى بالإيجاب، فصوتى لم يكن يخرج.

حملت نينا الصينية فى يدها وخرجت من المطبخ، فقال لى «إميل» «عصر يوم الإثنين؟».

بدأت فى غرف الأرز، وبرق على الفور فى ذهنى أن الأولاد سيعودون من المدرسة متأخرين يوم الإثنين؛ حيث سيكون لديهم تمرين على حفل آخر العام، وآرتوش سوف يذهب إلى «خرمشهر»[1] منذ الصباح وسيعود ليلاً، و«آليس» عندها نوبتجية العصر والليل، وأمى مدعوة فى عزومة، فأومأت بالإيجاب.

نادت نينا إميل من حجرة الجلوس، اصطدم إميل عند خروجه بأمى وقال لها: «عفوًا».

لم تجب أمى، وجاءت إلىَّ بجوار المائدة وهمست فى أذنى «ودلوقت أنا وانت ممكن تقولى علينا حمير، كنا قلقانين من غير سبب، شايفة إزاى مهتم بـ«آليس»، ده أكيد هُوَّ اللى مقسوم لها، ومش مشكلة إنه مش آرمنى، إنتى ليه وقعتى نص الرز على الترابيزة؟».

لم يأت الأولاد إلى مائدة الطعام حتى ناداهم إميل وآرمن ثلاث مرات، طلبت التوأمان وصوفى أن يتناولن العشاء على الأرجوحة.

---

(١) خرمشهر: واحدة من المدن الإيرانية، تقع شمال عبدان (المترجمة).

وحين هممت أن أقول «لا» ألقت صوفى بيديها على خصرى وقالت:

ـ «خالتى اسمحى لنا نتعشى عند الأميرة»

قالت نينا «إيه؟ أى أميرة؟» قالت صوفى «شجرة الصفصاف هى بنت الملك اللى...» قاطعت نينا صوفى وقالت لى: «هااغرف أنا الأكل للأولاد واقعدى إنتى من فضلك».

غرف «جارنيك» الأرز مرحبًا معجبًا، وقالت ڤيوليت لـ إميل: «بتحب المحشى؟»

نظرت إلى مائدة العشاء التى لم يكن ينقصها أى شىء وتساءلت:

ـ «هما من امتى رفعوا التكليف مع بعض؟» وذهبت لأرفع درجة برودة التكييف قالت أمى لآليس التى كانت تغرف الطعام ليوب «إنتى حاطة لحمة قليلة، واغرفى له رز كتير»

لم يكن لى طبق، حيث كنت دائمًا أنسى أن أعد نفسى أثناء تجهيز المائدة. مشيت ناحية المطبخ وقلت «ابدأوا انتوا أنا جاية»

لم يكن هناك من ينتظر دعوتى، فكلهم كانوا مشغولين بالأكل باستثناء إميل وڤيوليت اللذين كانا جالسين متجاورين يتحدثان. وقعت عينى على نينا التى أشارت إلى هذين الاثنين وغمزت بعينها.

كنت أخرج من الحجرة حين رأيت إميل وقد نظر إلى ڤيوليت مندهشًا وشفتاه مضمومتين أكان قد رأى غمزة نينا؟

وقفت وسط المطبخ لماذا ينبض قلبى بسرعة؟ لماذا لم أكن جوعانة؟لماذا لم أكن راغبة فى العودة إلى المائدة، لماذا لا ينتهى الليل؟

بدأت فى غسل أطباق الحلوى وأكواب المشروبات.

فيم يريدنى إميل؟ وفيما يتحدث الآن مع ڤيوليت؟ لماذا كنت عصبية؟

لماذا لا تبرد أجهزة التكييف الجو؟ سمعت صوت صرخة فخرجت أجرى من المطبخ. كانت ڤيوليت واقفة تنظر إلى ثوبها الأبيض، وعلى تنورتها بقعة خضراء كبيرة. وكانت إميلى قد غطت فمها بكلتى يديها وتكرر «أنا آسفة» كانت هناك سلطانية طرشى مقلوبة على الأرض.

قالت أمى «حطى على البقعة ملح بسرعة» وأعطت الملاحة إلى آرتوش لكى يعطيها إلى نينا التى كانت تمسح ثوب ڤيوليت بالمنديل الورقى وقال جارنيك «يا ماما مافيش مشكلة، بقعة طرشى بتروح لو غسلتيها بالمية قالت آليس: «القضاء بلاء»

قال يوب «بتقولى إيه» «فشرعت آليس فى التوضيح.

وقال إميل لـ إميلى «إنتى مابتحبيش الطرشى، ليه أخدتى السلطانية؟»

لم يكن يلومها، كان يسألها فقط. أوشكت إميلى أن تبكى، فقالت نينا:ـ «إيدها اتخبطت.... ماكانتش تقصد».

نظرت إلى إميلى. هل اصطدمت يدها؟ ألم تقصد ذلك؟

ذهبت مع ڤيوليت إلى الحمام، وأحضرت منديل تنظيف كى تنظف البقعة، خطفت المنديل بسرعة شديدة وهى تغمغم «بنت غبية» بوظت فستانى الجميل اللى كان جايلى هدية من لندن، كنت باحبه جدًا»

ثم ألقت المنديل على الأرض ورتبت شعرها أمام مرآة الحمام وكأننى لست موجودة. ثم قالت بغيظ «بنت قليلة الأدب، اصبرى، هاوريكى اللى تكرهيه».

عدنا إلى المائدة فقام إميل من مكانه ولم يجلس حتى جلست ڤيوليت، ثم قال لـ «إميلى» التى كانت واقفة بجواره «اعتذرى» فقالت إميلى بصوت عال «آسفة جدّا إنى بقعت فستانك الجميل».

ابتسمت ڤيوليت ووضعت يدها على وجنة إميلى وقالت:

ـ «مفيش مشكلة يا حبيبتى، أنا الحقيقة ماكانتش باحبه قوى»

عادت إميلى إلى الوراء وخرجت من الحجرة نظرت إلىّ ڤيوليت وابتسمت:

«طبيخك رائع» نظرت إلى طبق إميل. كان قد غرف فيه سلاطة وقليل من الـ«أيكرا». انحنيت وأخذت إناء المحشى لأقدم له، وفجأة صرخت صوفى والتوأمان، ودخلن وهن يتصايحن.

صرخت آرمينه: «ضفدعة أد السلحفة نطت فوق المرجيحة»

وقالت آرسينه: «ضفدعة أد السلحفة»

التفتت صوفى إلىَّ، وقالت: «غارت من الخفافيش يا خالتى» واختنقت من كثرة الضحك

قالت نينا «أيه؟» فبدأت صوفى فى حكاية قصة باروانا. أخذت نينا طبق الطعام من يد صوفى وقالت «طيب.. طيب، روحى مافيش دلوقتى وقت للحكايات» فقالت لها صوفى:

«إنتى عمرك ما حكيتى لى حكاية، وخالتى كلاريس حكت لى حكاية جميلة جدّا»

أزحت شعر صوفى عن جبهتها وأرسلتها إلى الخارج مع التوأمين قائلة لها:

ـ «روحى شوفى الضفدعة بتعمل إيه مع الأميرة».

قال جارنيك:

ـ يا ترى سمعت اللى حصل بين بجوف تشمخال؟.

قالت نينا:

مين؟ شمخال؟

قال جارنيك:

ـ «شمخال مش تشمخال، ده رئيس العلاقات العامة فى الشركة»

قالت نينا:

ـ آه، يبقى تشمخال.

ـ وضحكت مقهقهة واستدارت إلىّ وقالت:ـ

ـ الـ «أيكرا رائعة»

قالت أمى:

دى حامية جدّا، ولو كنت شويتى البادنجان بتاعها أكتر من كده كانت بقت أحسن»

قال جارنيك لـ «آرتوش»:

ـ «يا ترى عرفت إن شمخال كان ولى عهد داغستان؟».

أخذ آرتوش المحشى وقال:

ـ «أنا سمعت حاجات».

نظرت إلى طبق إميل، لم يكن قد ذاق المحشى بعد.

مد جارنيك طبقه ناحية نينا وقال لها:

ـ «ممكن تغرفى لى خورش[1]؟ مهما أكلت من فسنجان كلاريس تحس إنك ماكلتش حاجة تصورى؛ ابن ملك داغستان السابق مضيّف عنده دلوقت سفير الاتحاد السوفييتى.

قالت نينا:

ـ فين داغستان دى؟، مدام وسكانيان، أصب لك پيپسى ولا كانادا؟.

سعل يوب وقال:

ـ «تسمحى لى إنى أشرح لك؟» وقدم شرحًا مفصلاً عن داغستان، أو داجستان على حد تعبيره تقع بجوار بحر الخزر وچورچيا. وهى بلد جبلية، ولهذا السبب اسمها داغستان، فـ «داغ» بالتركية معناها جبل، وكانت ملكية حتى ما قبل ثورة روسيا، وبعد سيطرة الشيوعيين على زمام الأمور صارت جزءًا من الجمهوريات السوفييتية، وهرب الملك إلى أوروپا، وقد أصبح ابنه الآن رئيسًا للعلاقات العامة فى شركة النفط فى عبدان.

ظللنا جميعًا نحملق فى يوب بلا حراك عدة لحظات إلى أن بدأت آليس فى التصفيق وقالت «براڤو! معلومات رائعة كاملة» واحمر يوب خجلاً، وقال «أنا مهتم جدًا بالتاريخ والجغرافيا»

استدار جارنيك ناحيتى أنا ونينا وقال هامسًا:

ـ ده أكيد بيتجسس على حاجة، لو ماكنتش أنا غلطان وابتسم فنهرته نينا:

ـ «هاتهزر تانى؟ قال جارنيك بصوت عال:

ـ «المهم من ساعة ما اتحددت زيارة بجوف للمصفاة وشمخال فى انتظاره ومعاه شوية من الرؤساء، كان ولى العهد السابق وسفير الاتحاد السوفييتى بيقدروا بعض جدّا» ثم وقفت وأخذ الملعقة والشوكة فى يده ليقلد النظر شزرًا. «واللى حواليهم خايفين لا تحصل بينهم معركة» وراح يقلد المبارزة بالسيوف بالملعقة والشوكة «وبعدين لما الشيوعيين المتعصبين، والواقعيين يسلموا على بعض بحرارة بالروسى، الكل هايرتاحوا»

(١) خورش: طبيخ (المترجمة).

وقالت نينا :

ـ ...هيييه ، حاسب ! دخلت الملعقة فى عينى يا سيد برت لانكستر. وأدارت طبق الـ « بلوخورش »[1] ناحية جارنيك ، فجلس وحين انتهت ضحكاته قال :

ـ أنا شفت شمخال كذا مرة ، ده مرح جدّا وطيب ، ومتعلم كويس بيتكلم ست لغات ، الفسنجان ده لذيذ جدّا.

وغرف السلطة وقال :

ـ الدنيا دى عجيبة جدّا ، دول جابوا أستيكة ومسحوا بها بلاد من على الخريطة.

قال آرتوش :

ـ « هو لسه ما آنش الآوان علشان نمسح فلانستان وبهمانستان ونكتب المساواة.

مد جارنيك يده إلى سلة الخضروات وقال :

ـ « ونتكلم كلنا روسى ، ونقرأ مكسيم جوركى.

فقلنا أنا ونينا معًا « ماتبدأش » وصمت الجميع للحظات باستثناء آليس وأمى اللتين كانتا تشرحا لـ يوب طريقة طهو الـ الفسنجان.

همس إميل بشىء ما فى أذن ڤيوليت وضحك الاثنان ضحكات متقطعة. وقالت نينا لجارنيك « هو ده بقى شمخال ، ها؟ « فقرص جارنيك نينا من خدها وقال :

« لذيذة »

كان يوب يحكى لـ آليس شيئًا ما ، وإميل وڤيوليت يتهامسان لدرجة إنى تساءلت عم يتحدثان ، قالت آليس « اسمعوا » ثم قالت لـ « يوب » :

« إتكلم إتكلم » فاحمر « يوب » خجلاً وهز رأسه ، فالتفتت آليس إلينا وقالت : « اسمعوا أحد منكم يعرف يعنى إيه بريم وبوارده؟ » .

ثم استدارت إلى « يوب » « وانت عرفتهم منين؟ » فاحمر يوب من جديد وقالت آليس لنا وهى ملتفتة ناحيتنا » ها؟ محدش يعرف ، مش كده؟ »

---

(١) أرز مخلوط به صنف من الخضار المطبوخ (المترجمة).

بريم اسم نوع من البلح، قبل ما يشترى الإنجليز أراضى عبدان، كانت منطقة بريم جنينة نخل من النوع ده»

قال جارنيك المحشى ده لذيذ جدّا، والبلح كمان لذيذ طبعًا»

كانت هذه مرة من المرات المعدودة التى كان آرتوش يستمع فيها بدقة إلى حديث أختى. وضعت آليس الشوكة والملعقة فى الطبق، ومدت قامتها. «بقى اسمعوا بقية الكلام؟ حد ممكن يقول لى منين جه اسم بوارده؟ ماتعرفوش؟ كل الأرض دى كانت بتاعة واحد عربى، وكانت عنده بنت جميلة جدّا اسمها وردة وكل بالعربى هى وردة»

واستدارت إلى يوب وقالتها «أنا نطقتها كويس؟ فهز يوب رأسه وواصلت آليس كلامها «كانوا بينادوا الراجل بالعربى بـ «بووردە» يعنى أبو وردە» وكان الإنجليز بيشتروا الأراضى، ويسموا المنطقة باسم صاحب الأرض، وبالتدريج بقت بووردە بوارده» وأمالت رأسها ناحية اليمين وقالت «بوارده الشمالية» وأمالته إلى اليسار وقالت «بوارده الجنوبية».

قال آرتوش «مثير جدّا» وهمس جارنيك «مش أنا قلت إنه بيتجسس على حاجة».

وصمت بضربة من كوع نينا. نظرت آليس إلى ويوب وقالت «إيه المعلومات الهايله دى، «براڤو» ومرة ثانية احمرّ يوب وضحك. قدمت أمى سلة الخضروات إلى الجميع. قلت فى نفسى لو كانت قصة يوب هذه حقيقية لكان أبو «وردة» ضمن رجال العرب المعدودين الذين اشتهروا باسماء بناتهن بدلاً من اسماء أبنائهن. كان آرتوش ويوب يتحدثان معًا؛ قال يوب:

ـ طبعًا دى ممكن تكون أسطورة. وقال له آرتوش:

ـ «مش مهم حقيقة ولا أسطورة المهم إنها كانت جذابة».

جمعت مائدة العشاء، وجعلت أفكر فى أن أحدّا لم ينتبه إلى أننى لم أتناول العشاء حتى قال إميل:

ـ «كان المحشى غير عادى، رغم إنك إنتى مادوقتيش الأكل».

وبدأ فى المساعدة. وصلت أمى وقالت له:

اتفضل أنت، شيل السفرة مش شغلة الرجالة.

ذهب «إميل» ناحية نينا التى كانت تناديه، وأمى تهمهم قائلة:

«آهو أنا باقرف من الرجالة النمامين إنتى سمعتى يوب قال إيه على آليس على العشا؟ قال... ».

جمعت الأطباق القذرة وحملتها وسرت ناحية المطبخ وقلت فى نفسى «لم أسمع، ولا أريد أن أسمع أيضًا، دعينى وشأنى» وعند الذهاب همست نينا فى أذنى «ظنونى طلعت صح» أما ڤيوليت فقالت «مرسى» فقط. وقالت أمى «إفتكرى إنك تفضى الفسنجان فى طبق صينى»

أما توديع يوب وشكره فقد استمر خمس دقائق. أغلقت الباب خلف الجميع.

كنت أغسل الأطباق حين دخل آرتوش المطبخ واتكأ على الحوض وقال: البنات عايزين حكاية وضحك، كان يضحك باستمرار من أول الليل.

قلت له أنا مليش مزاج أحكى حكايات نظر إلىَّ وقال:

ـ «ليه؟» لم أنظر اليه، وقلت له «تعبانة» فبدأ فى مداعبة لحيته. أدرت رأسى ونظرت إليه عدة لحظات ثم قلت له:

«إنت ليه مش بتربى دقنك؟»

ـ ٣٤ ـ

كنت فى بيت كبير جدّا، وكانت به ممرات وحجرات متداخلة ببعضها بعضًا. وكان هناك أناس كثيرون يأتون ويذهبون، ولم أكن أعرف أحدّا منهم.

أمسكت بيدى التوأمين وحاولت أن أخرج من البيت فلم أجد طريقًا للخروج.

تقدم ناحيتى قس طويل القامة وقال لى إنه لن يُسمح لى بالخروج طالما لم أجد حلاً للغز، ثم أمسك بيد الطفلتين وجرهما وأخذهما معه.

جريت خلف القس والطفلتين فوجدت نفسى فى فناء كبير جدًا محاط بالحجرات وفى وسطه حوض ماء مستدير ولكنه بلا ماء. رحت أبكى وأنادى الطفلتين فإذا بإمرأة شابة تحمل طفلاً تدخل من باب الفناء، كانت تلبس ثوبًا قرمزيًّا طويلاً تجره على الأرض. رحت أنادى الطفلتين وأبكى والمرأة ذات الثوب القرمزى تضحك وترقص حول الحوض وهى تلقى بالطفل إلى أعلى وإلى أسفل. صحوت من نومى مفزوعة وقلبى ينبض بشدة وأنا مبللة بالعرق. كان آرتوش نائمًا. أزحت الملاءة، لبست معطفًا خفيفًا فوق ثياب النوم، ولبست نعلى وذهبت إلى الفناء. كان ذلك وقت السحر، ورائحة زهور الشبت منبعثة، وقد تفتحت براعم الورود الحمراء الصغيرة.

قطعت الممر الضيق المؤدى إلى الباب المعدنىعدة مرات ذهابًا وإيابًا، وأنا أفكر فى الحلم الذى رأيته.

جلست على الأرجوحة المبللة من الرطوبة، كانت أغصان الصفصافة لا تصل إلى ظهر الأرجوحة. لم يكن البيت الذى رأيته فى الحلم مألوفًا بالنسبة لى ولم أكن أعرف القس، وقد نسيت اللغز. حوض الماء المستدير والفناء هما فقط اللذين رأيتهما فى اليقظة، كانت رطوبة الأرجوحة تضايقنى. قمت وسرت ناحية الفناء الخلفى، كانت التوأمان قد حفرا حفرة عميقة بجوار صنبور الماء حيث كانت واحدة من ألعابهما أن تملآ الحفرة بالماء ثم تلقيان فيها بالأحجار والتراب والأعشاب، ثم تقلبانها بقطعة من الخشب وتقولان:

«نحن نعد الـ آش»[1].

«كانت أمى قد قالت» «الطريق من إصفهان لـ «نماجرد» ما ياخدش أكتر من ساعتين» ولكنه بدا لى أطول من عشرة أو أحد عشر عامًا. وكانت آليس طول الطريق تسأل هانوصل امتى؟ وهى متبرمة.

كانت أمى قد قالت: « إحنا رايحين نماجرد عشان نشترى سمن».

فقد كان أبى يعشق الطعام الذى كانت أمى تطهوه بالدهن الحيوانى. كنت أسير فى الحارات الضيقة ويدى فى يد أبى، وأنا أنظر إلى الأطفال النحيلة القذرة وهم ملتصقين بالجدران المبنية بالطوب اللبن، أو ينظرون محملقين إلى القادمين من المدينة من النوافذ ذات الأشكال المعوجة غير المتناسقة. كانت آليس تصرخ بشكل متصل «إتخنقت من التراب والعفار «لكن تركيزى أنا لم يكن منصبًا على الحر والتراب والغبار؛ حيث كنت أنظر إلى النساء القرية اللائى كن يلبسن الملابس المحلية، والفتيات الشابات كن قد غطين أفواههن بأذيال أغطية رؤسهن الملونة. سألت أمى لماذا يفعلن هذا فقالت لى وهى معتلة المزاج من الحرارة والتراب الذى كان يلفح وجوهنا بشكل مستمر بريح حارة:

ـ إن الشابات لا يجب أن يتحدثن أمام آبائهن وأمهاتهن أو أمام أمهات وآباء أزواجهن.

كانت أغطية الرأس صفراء وحمراء وخضراء، كانت هذه هى الألوان التى رأيتها فى القرية، فلم أر غير هذه الألوان سوى لون التراب. دخلت الفناء وآليس تجر أمى من يدها وتقول «يللا نرجع» كان فى وسط الفناء حوض مستدير لا ماء فيه وحول الفناء حجرات ذات أبواب خشبية ونقوش زجاجية ملوثة بالتراب، وفى ركن الفناء عدة شابات يجلسن حول تنور يخبزن الخبز. وعجوز تنتقد عملهن بشكل مستمر وهى ترغى وتزبد.

كان أبى يتحدث مع صاحب البيت الذى كانت عيناه جاحظتين، وكان أسمن من أبى بكثير، اما آليس فكانت تبكى باستمرار، وكنت أنا أنظر حولى هنا وهناك وأشعر أننى يجب أن أبكى الآن.

دخلتْ من باب البيت المفتوح إمرأة شابة طويلة القامة ونحيفة جدًا، كانت حافية القدمين وشعرها الطويل الأشعث ملىء بالعشب الجاف وبرفقتها كلب نحيل أجرد.

(١) آش: نوع من الحساء الإيرانى توضع به أنواع المكرونة والحبوب (المترجمة).

بمجرد أن رأتنا المرأة ضحكت فصمتت آليس ونظرنا نحن الاثنتين محملقتين إلى المرأة التى كانت تغنى وترقص حول الحوض الخالى من الماء. وكان الكلب جالسًا بجوار باب الفناء يزوم. لعدة دقائق لم يكن هناك صوت إلا صوت غناء المرأة وصفير الريح وقرقرة الكلب. ثم انحنى صاحب البيت والتقط قطعة خشب من على الأرض والتفت إلى المرأة وصاح فيها، «استحى» ضحكت الشابات من خلف البراقع، قالت لنا العجوز «ماتخافوش، هى مجنونة بس مش مؤذية» ثم التقطت حجرًا صغيرًا من جانب الفرن وألقته ناحية المجنونة وصاحت فيها «استحى» فغطت المرأة وجهها بين يديها وانخرطت فى البكاء.

ثم عادت للغناء من جديد وخرجت من باب الفناء راقصة ومعها الكلب.

عند عودتنا إلى أصفهان حكت لنا أمى أن أهالى جلفا يحملون المجانين إلى نماجرد، فهناك عائلات تتقاضى أموالاً شهرية لترعى المجانين. ظللت أبكى بكاءً متواصلاً، حتى أصفهان وسألتنى آليس عدة مرات:

ـ «إنتى بتعيطى ليه، خلاص مفيش تراب ولا عفار الجو بقى حلو؟

درت عدة مرات حول شجرة النبق وحوض الخضروات. وانحنيت اقتلع النباتات الشيطانية من بين الخضروات كانت قد وقعت تحت شجرة السدر عدة نبقات جافة كان لونها يميل إلى السواد. التقطت النبقات الجافات السود، ثم جلست على الأرض واستندت على الشجرة وقلبت النبقات بين يدىّ.

رفعت رأسى ونظرت إلى فروع السدر. قالت «يوما» أو قرأت فى مكان ما أن شجرة الكُنار هى شجرة السدر، هل هى نفسها التى يصنعون منها صابون السدر؟ وتساءلت أليس لدينا عدة أشجار اسم فاكهتها يختلف عن اسمها؟؛ فالسدر اسم فاكهته النبق، والنخل اسم فاكهته البلح. والشجرة الأخرى التى يختلف اسم فاكهتها عن اسمها لا اتذكرها. وفكرت كم هو شىء رائع أن تكون هاتان الشجرتان موجودتان عندنا فى عبدان. قمت من مكانى، وألقيت النبق الجاف الأسود بين الخضروات وعدت إلى غرفة النوم، وارتديت ملابسى دون أن أصدر صوتا، ووضعت ورقة على المائدة الموضوع عليها التليفون وخرجت من البيت.

ـ ٣٥ ـ

كانت الكنيسة مظلمة تفوح منها رائحة الشمع.

أعطيت نقودًا للحارسة التى فتحت لى الباب ثم راحت تحكى لى عن مرض ابنها. قلت لها إنه ليس ضرورى أن تشعل المصابيح، وأن الشمع ليس ضروريًا أيضًا، وأغلقت باب الكنيسة خلفها.

أخذت غطاء رأس من على المائدة القريبة من الباب، ووضعته على رأسى، ثم حملت صليبًا ووضعته على بساط عنابى وذهبت إلى المحراب، وجلست على أحد المقاعد التى فى الصف الأول، ولا أدرى كم مضى من الوقت وأنا أحملق فى صورة المسيح وهو طفل فى حضن أمه حتى أشرق نور الصباح من النافذة المجاورة للمحراب ومن خلف الزجاج الملون، وصارت الكنيسة مضيئة إلى حد ما. نظرت إلى شمعدانات المحراب وإلى المزهريات الفضية الكبيرة بورودها البلاستيكية، وإلى كأس الشراب المقدس وإلى الحوامل الذهبية وزى القس الموجود بجوار الكأس، كنت قد رأيت كل هذه الأشياء من قبل، ومع هذا كنت كأنى أراها لأول مرة كانت صورة المسيح تشبه آرمن فى طفولته، تذكرت حديث نينا حين قالت:

ـ كل مرة أشوف فيها اللوحة دى أفتكر تيجران وهو صُغيّر.

ورأيت أن المسيح يشبه طفولة التوأمين أيضًا، ورأيت أنه ربما كان المسيح شبيهًا بطفولة كل الأطفال.

تنفست نفسًا عميقًا، وركعت ، وسحبت الصليب، وأغمضت عينىَّ وقرأت «يا أبانا الذى فى السموات، تقدس اسمك»

متى كانت أول مرة قرأت فيها هذا الدعاء؟ «حين يحل ملكوتك ، سوف تحل إرادتك على الأرض كما هى فى السماء» ومتى كانت آخر مرة؟

«فلتعطنا اليوم خبز الكفاف، وامنحنا قروضنا لنعفو نحن أيضًا عمن اقترضوا منا» كأنها كانت أول مرة أقرأ فيها هذا الدعاء.

«لا تمتحننا، ونجنا من شرارنا» أكملت الدعاء «لأن الملكوت والقوة والجلال منك حتى أبد الآبدين».

فتحت عينى «آمين» وحملت الصليب ونظرت مرة أخرى إلى صورة المسيح ومريم، كانت مريم تضع على كتفيها شالاً أزرق، وكان المسيح ملفوفًا فى ثوب أصفر فى حضن أمه.

كانت القشعريرة قد سرت فى قدمى، قمت من مكانى وذهبت إلى مائدة الشموع وضعت النقود فى الصندوق الخشبى الصغير، وأخذت سبعة شموع كعادتى.

ستة منها للأولاد وآرتوش وآليس وأمى والسابعة لأبى. أشعلت الشمعة السابعة وهمست «ساعدنى»

طفت بالكنيسة، بالقرب من مكان جماعة الإنشاد وبجوار آلة الأورج القديمة كانت هنا لوحات صغيرة أهداها الناس للكنيسة بسبب استعادة الصحة أوتحقق أمنية ما.

كل هذه السنوات، وكل هذه المرات التى جئت فيها إلى الكنيسة لم أقرأ أبدًا بدقة هذه اللوحات. كان أكثرها بالأرمينية، وبعضها بالإنجليزية وهناك حجر مرمرى صغير كتب عليه بالفارسية:

يا مريم العذراء، الأم الملتاعة

استحلفك بجراح ولدك

أن تعيدى إلىَّ ولدى

مسحت على اللوح الصغير بيدى وقلت «امرأة مسكينة» وحين وصلت إلى باب الكنيسة سألت نفسى: «أنّى لنا أن نعرف هل كانت أم الطفل المريض هى التى قدمت الهدية أم أبوه؟»

وعدت إلى المحراب وسحبت الصليب وخرجت.

ذهبت إلى البيت، وكانت حرارة الجو محببة إلى النفس، كم من الوقت مضى وأنا لا أستمتع بالحرارة؟ وقبل أن أصل إلى سينما تاج التفتتّ ناحية اليمين، كانت نهاية الزقاق مغلقة، وكان هناك باب أزرق كبير مغلق كالعادة وإلى جواره الحارس كما هو دائمًا.

كنت قد سمعت أن خلف الباب الأزرق منطقة تشبه سوق الكويتيين وبها مقهى ومحلات ودكاكين وبيوت. وأن النساء خلف الباب الأزرق ربما لا يخرجن من هذه المحلة من العام للعام. كنت دائمًا أريد أن أرى ما الذى خلف الباب الأزرق، وكنت أعرف أن هذا مستحيل.

كان هناك رجل عربى قد أطلق خمس عنزات أو ست إلى الأمام، وراح يمشى هو على الرصيف، ورجل عربى آخر يرافقه راكبًا على دراجة ويتحدثان معًا. كان راكب الدراجة يقود الدراجة بهدوء لتسير مع رفيقه خطوة بخطوة، والعجلة الأمامية تتمايل يمنة ويسرة باستمرار.

وكانت رائحة غاز المصفاه تفوح، ولم يكن فى السماء ولا قطعة سحاب واحدة سرت الشارع بنَخْلِه المتراص والأعشاب الشيطانية التى نمت فى كتل حتى وصلت إلى سينما تاج. عشت كل هذه السنوات فى عبدان وفى كل مرة كنت أتعجب من اختلاف المنطقة التى تقع بها شركة النفط عن بقية المدينة. فكأنما كنا ننتقل فجأة من صحراء جرداء إلى حديقة غناء.

كانت هناك على جانبى الشوارع الواسعة بيوت ذات شكل واحد وصفصاف متراص يشبه الأطفال العائدين للتو من عند الحلاق وهم يقفون فى الصف ينتظرون الناظر لكى يأتى ويقول لهم الله الله، أولاد مرتبون ونظيفون»

طويت شارعنا الذى كانت تنبعث منه فقط أصوات الصرير ونقيق الضفادع. نظرت حولى وفكرت أنى أحب هذه المدينة الدافئة الصامتة الخضراء. فتحت باب الفناء المعدنى ودخلت.

كان آرتوش مع الأولاد فى المطبخ، وكانت التوأمان تنظران إلىَّ قلقتين مضطربتين، وحين رأيتا ابتسامتى قفزتا إلى حضنى. تقدم آرمن فقبلت وجنته ولم يتراجع. وقال آرتوش: أعمل لك قهوة؟».

كان قرار الأولاد ألا نذهب إلى النادى من أجل الغداء؛ قالت آرمينه «لازم نذاكر» وقالت آرسينه «مش فاضل على الامتحان غير شوية صغيرة» فسخنت الطعام المتبقى من الليلة الماضية.

أكل آرتوش المحشى مع الـ «چلوسفيد»[1] وقال لى:

ـ أمك ماسمعتش إن المحشى مع «الچلوسفيد» بيبقى لذيذ؟»

فى المرات التى كان يقول لأمى فيها إن أرامنة جلفا يأكلون المحشى مع الچلوسفيد ضحكت من كلامه. وقال وهو يقوم من على المائدة. «الأكل إمبارح كان كتير جدّا، وخصوصًا المحشى مفيش فيه كلام»

(١) الچلوسفيد: أرز أبيض مع اللحم (المترجمة).

ـ ٣٦ ـ

كانت آشخن تزيل الغبار عن الدواليب فى حجرة النوم وتتحدث بلا انقطاع :

ـ مدام كلاريس، أنا بحبك، ومش عاوزة أضايقك، لكن أنا مش عاوزة أشتغل فى بيت مدام سيمونيان، أولاً لأنها اشترطت علىَّ إنى أروح يوم الجمعة، وعندى ضيوف يومها، وعندى حاجات خاصة بجوزى، وألف مصيبة ثانية، ثم إنها بِتْعيِّب على كل حاجة بااعملها، ليه غسلتى ده كده ؛ كويتى ده كده ليه؟ وكمان بتتخانق مع ابنها وحفيدتها. ابنها رجل محترم مابيتكلمش خالص، لكن حفيدتها يووه ....يووه، لسانها أطول منها ومؤذية، تشتم وتشخط وتحدف حاجات، وتقطع أى حاجة تقع تحت إيدها بالمقص.

وضعت قطعة القماش التى تزيل بها التراب على الأرض وأكملت تقول :

ـ سمعتها بتتكلم فى التليفون مع حد مااعرفوش وبتقول له لو بتحبنى يبقى لازم تضربها فى ودن الأستاذ فازجن، إنتى تعرفيه يا مدام كلاريس؟ مدير....

قلت لآشخن التى كانت قد نسيت إزالة التراب أن تذهب بعد تنظيف الدواليب لتنفض التراب عن الوسائد الموجودة فى حجرة الجلوس.

خرجت من حجرة النوم وقلت لنفسى «مع من كانت البنت تتحدث فى التليفون؟ أهو آرمن؟ أرجو ألا يضرب السيد...»

ذهبت إلى التليفون الذى كان يدق، يجب أن أتحدث مع آرمن، رفعت السماعة كان صوته هادئًا كالعادة وهو يقول :

ـ متهيأ لى كنت عاوز أشكرك على عزومة ليلة الخميس إنتى تعبتى نفسك قوى، بالمناسبة أنا لقيت كتاب متهيأ لى إنه هايعجبك، هااجيبه معايا يوم الاتنين أرجوكى لا تنسى ميعادنا يوم الاتنين.

صرخ جانب منى : «قولى له إن عندك شغل يوم الإتنين، قولى له إن ماعندكيش وقت يوم الاتنين، قولى له إنك مشغولة...»

أجبته بسرعة، لم يكن هناك أى تعب، وأشكرك على الكتاب، ولم أنس موعدنا، ووضعت السماعة ودبت معركة بين جانبى ذهنى. اتكأت على منضدة التليفون وحاولت أن أفكر فى شىء آخر. بأى حجة أتحدث مع آرمن، لماذا تنادى آشخن من جديد؟ لقد أصبحت الساعة الرابعة والربع؟ أين تأخر الأولاد؟.

بمجرد أن رفعت رأسى رأيت ثلاثتهم من وراء الستار الموضوع خلف الباب ــ قادمين على الممر الضيق. كانت البنتان تزغردان وآرمن قادم خلفهما واضعًا يديه فى جيوبه، عادت أشخن تنادى من جديد «مدام كلاريس» فتحت الباب.

قالت آرمينه «هاللو، واحدة، وعشرين، واتنين تسعتاشر»

وقالت آرسينه «هاللو، اتنين تسعتاشر، وواحدة عشرين»

كان الشك قد ساورنى عدة مرات خشية أن تحصل البنتان على درجات متشابهة، خاصة وأنهما تخطئان أخطاءً متشابهة، ولكن كيف؟

لقد اتفقت مع المعلم على أن يجلسهما على مقاعد منفصلة وبعيدة عن بعضهما. أغلق آرمن باب البيت وانتظر حتى ينتهى تقافز البنتين هنا وهناك ماذا كان ينتظر؟ لماذا لم يذهب حسب عادته هذه الأيام إلى حجرته بسرعة ويغلق الباب وراءه؟ حين نظرت إليه قال «ممكن تكلمى ميس جودى علشان تأجل دروس البيانو أسبوع أو اتنين لحد ما تخلص الامتحانات؟»

هزت البنتان رأسيهما تأييدًا لكلام أخيهما، كنت لم أخرج بعد من حالة الدهشة التى اعترتنى لاهتمامه المفاجى بالدروس والامتحان حتى زادت دهشتى حين قال «هاتسألى عن التاريخ، عندى بكره امتحان قوة.

جاءت آشخن إلى الممر وقالت. «مدام كلاريس» نبهت التوأمين لكى تسلما عليها. خفضت آشخن صوتها وقالت بنبرة محبة حنونة «أهلاً بالورد، أهلاً بالسنبل، السكر والعسل، واللبن والسكر، لأ! أكيد مش انتوا اللى عملتم العملة دى» سألت التوأمان: «إيه هىّ اللى مش عملتنا؟» أحكمت آشخن عقدة غطاء رأسها الأبيض من الخلف واشارت إلى حجرة الجلوس وقالت «كرسى أوضة الجلوس»

ذهبنا جميعًا إلى حجرة الجلوس، كانت وسائد المقاعد موضوعة على الأرض، أشارت آشخن إلى واحدة من هذه الوسائد المخصصة لشخص واحد، تقدمنا إلى الأمام، كان هناك شق فى الوسادة فى الوجه الذى توضع عليه ولا يراه أحد. كان

الشق يبدو وكأن أحدّا قطعه بسكين أو شيء له شفرة حادة. نظرت إلى آرمن الذى نظر إلىَّ مفزوعًا وقال «والله...» وخرج من الحجرة جاريًا، ونظرت التوأمان إلىَّ ثم إلى آشخن وبالعكس، وقالتا:

«آرمن ماعملش كده».

«والله آرمن ماعملش كده».

كنت لم أسأل عمن فعلها بعد حين قالتا: «إحنا مانعرفش مين اللى عملها ولكن...» «... لكن مش آرمن هو اللى عمل كده»

هزت آشخن رأسها وهى تضع يديها على بطنها السمينة وقالت «يووه، يووه....»

قلت للتوأمين إن وجبة العصر على المائدة فى المطبخ، وقلت لآشخن أن تغطى الجزء المقطوع من الوسادة.

أعطيت النقود لآشخن فأحكمت عقدة غطاء رأسها تحت ذقنها، فعقدة غطاء رأسها حين تكون من الخلف فهذا معناه أنها تريد أن تبدأ فى العمل، أو أنها تعمل، وأما إذا ربطتها تحت ذقنها فهذا يعنى أن العمل انتهى. أغلقت سوستة الحقيبة ووضعت لفائف الملابس والطعام التى كنت قد أعطيتها لها تحت إبطها وشكرتنى. أغلقت الباب خلفها ونظرت إليها للحظات من خلف ستارة الباب، سارت الممر الضيق حتى الباب المعدنى وفى يدها اللفائف وهى تتأوه. حدثت نفسى: «مسكينة شافت إيه من الدنيا غير الشقا!».

فككت المريلة وألقيتها فى سلة الملابس القذرة فقد عملت طوال اليوم مع آشخن وقد اتسخت المريلة.

ذهبت إلى حجرة آرمن وقد قررت أنى لن أتكلم ولا كلمة واحدة عن الشق فقد كان عندى كلام أهم أريد أن أقوله. حين أعطانى كتاب التاريخ سألته «بالمناسبة إيه أخبارالأستاذ ڤازجن؟ «جلس على السرير وقال: «كويس، ليه؟» فتحت الكتاب «أبدّا» قام وفتح حقيبة المدرسة وبحث عن شيء وقال: «بالصدفة الأستاذ ڤازجن كان موجود لما رحت إدارة المدرسة»

أغلقت كتاب التاريخ وسألته «إنت رحت الإدارة ليه؟»؛ حيث لم يكونوا يطلبون آرمن فى إدارة المدرسة إلا للتوبيخ على أعمال التخريب والشقاوة. شرد تفكيرى خشية أن يكون قد ضرب أذن المدير. أعطانى ورقة مربعة وقال لى: «عشان

ده» سقط قلبى من الخوف، أنهم بالتأكيد يطلبوننى فى المدرسة، وهو بالتأكيد عوقب مرة ثانية، بالتأكيد... قرأت الورقة، كان مكتوبًا فيها «شهادة تقدير لآرمن آيوازيان من أجل اجتهاده وجديته فى مادة الرياضيات» قمت من مكانى واحتضنته وقبلته، فقال لى وهو يضحك: «خنقتينى»

حين انتهى انفعالى قلت له:

«الحقيقة إنى كنت قلقانة عليك جدّا الأيام دى».

ورحت أفكر كيف ابدأ الكلام عن إميلى حين قال: «أنا عارف إنتى قلقانة ليه ماتقلقيش عليا خالص، إبنك مش عبيط، ودلوقتى اسألى عن التاريخ»

وانحنى والتقط كتاب التاريخ من على الأرض وأعطاه لى. لماذا نسيت أن إبنى ماهر فى المباغتة؟

أنهيت قراءة مذكرات ڤازجن حتى يوم الاثنين. طبخت لـ آرتوش «ماش پلو» و«خورش بادمجان»[1] الذى يحبه. وأعددت للأولاد كعكة اللوز، ولم أصرخ فى آرمن لأن حجرته ليست مرتبة، وأخذت التوأمين إلى فيلم توم عقلة الإصبع فقد قال آرمن إنه «للأطفال» ولم يأت معنا. وفى الليلة التالية بمجرد أن قال «سينما نادى النفط بتعرض فيلم طرزان «قلت له:» هااخدكم تشوفوه بشرط انكم ماتبرطموش وأنا باصحيكم بكره الصبح»

تعجبت التوأمان من فكرة أنى مستعدة لأن أصحبهم إلى السينما ليلتين متتاليتين، وعندما تعلل آرتوش قائلاً «أنا مليش مزاج أسوق» قالتا: «هاناخد تاكسى»

كان شكلهم هم الأربعة جديرًا بالرؤية عندما قلت: الطريق لحدسينما النفط مش طويل، والشوارع فاضية فترة العصر، يبقى.... آرمن يسوق العربية»

فى سينما روباز بنادى النفط استمتعت مع الأولاد ببطولات طرزان وضحكت على حركات شيتا اللطيفة. فى جو الليل الذى كان ما يزال حارًا كانت رائحة الشاطىء تهب من ناحية، ومن الناحية الأخرى رائحة الكفتة المشوية فى مطعم نادى النفط. كنت سعيدة من أجل سعادة أولادى.

---

(١) أسماء أطعمة إيرانية (المترجمة).

ـ ٣٧ ـ

فى صباح يوم الإثنين كانت السماء غائمة، وريح شديدة تهب. حين كنت أعد الأولاد للذهاب إلى المدرسة قالت لى آرمينه:

«طب لو جت عاصفة؟» وقالت آرسينه «يبقى أكيد مدام مانيا هاتأجل البروفة» وحمل آرمن حقيبته ومشى ثم قال «كده أحسن»

قلت للتوأمين: «ماتنسوش تدوا كتاب الحكاية وكتاب الترجمة لمدام مانيا أو الأستاذ ڤازجن»

قالت آرمينه: «إنتى وعدتينا تحكيها لنا «فقلت: «الأستاذ ڤازجن كان مستعجل، ولما تنطبع هانبقى نقراها مع بعض « فقالتا: «طيب» وقربتا وجهيهما المستديرين فقبلنا بعضنا بعضًا وسرنا معًا حتى الباب المعدنى.

إذا تأجلت البروفة سوف يعود الأولاد إلى البيت بسرعة، هل كنت أريد أن يعودوا بسرعة، أم أننى لم أكن راغبة فى ذلك؟. أكان يجب أن أدعو أن تهب العاصفة، أم أدعو بعكس ذلك؟ كانت إميلى واقفة عند باب بيتهم وهى تلبس معطفًا كحلى اللون وياقته مغلقة وجوارب قصيرة بيضاء. وصل الأتوبيس، ووقف آرمن بجوار باب الأتوبيس حتى ركبت إميلى، وكان آرتوش جالسًا خلف عجلة قيادة شورلت، حبست أنفاسى وحين دارت السيارة مع ثانى محاولة تنفست الصعداء.

ابتسم آرتوش ومشى، ثم فرمل السيارة وأخرج رأسه من النافذة وقال: «أنا هاارجع متأخر النهاردة، إنتى فاكرة؟»

ابتسمت وأومأت برأسى أنى أذكر. وحين ابتعدت شورلت وأتوبيس المدرسة أغلقت الباب المعدنى وعبرت الفناء كانت الريح تدفع عدة وردات إلى الرقص فى الهواء.

كنت لم أغلق باب البيت حين سمعت أزيز فتح باب معدنى، رأيتها من خلف ستارة الباب، وهى تلبس بلوزة بيضاء وتنورة سوداء، وحذاء بكعب عريض وشال أبيض على كتفيها. كانت هذه هى المرة الأولى التى أسعد فيها برؤيتها.

جلست خلف مائدة المطبخ وطلبت قهوة بدلاً من الشاى واللبن، ولم تقل شيئًا حتى أعددت القهوة سوى «الجو عاصف، لما كنا فى الهند كانت الدنيا بتمطر بعد جو زى ده» كان شعرها مجموعًا خلف رأسها، ولم تكن تتحلى بأى جواهر غير قرط من اللؤلؤ. وضعت القهوة وطبقًا به بسكويت «نايس» على المائدة وجلست فى مواجهتها.

نظرت صامتة إلى فنجانها للحظات. كانت الريح تهب فى الخارج وكأنها كانت تجلب كل ما تجده من تراب فى صحارى خوزستان. كانت ورود البازلاء ترتعد على حافة الشرفة.

سألتها: «حالتك اتحسنت؟» لم أكن أريد أن أتحدث لمجرد الحديث فقط، كنت قلقة بالفعل. رغم أنها لم تكن شاحبة اللون اليوم، وقد وضعت أحمر شفاه وردى اللون. أخذت رشفة من القهوة ورفعت رأسها، كانت عيناها تشبهان حجرين أسودين. سعلت مرة واحدة وقالت:

ـ مش عارفة أيه اللى خلانى اتكلمت ليلتها أنا مش متعودة أقول اللى جوّايا عمرى ما اتكلمت عن نفسى مع أى حد أبدًا، يمكن ماكنتش فاكرة إن فيه حد هايفهمنى» مش عارفة إيه اللى خلانى حسيت إنك هاتفهمينى» صمتت.

صفرت الريح وقلبت الإصيص على حافة الشرفة.

خلعت أحد قرطيها، ومسحت عذارها ووضعت القرط فى أذنها من جديد. كانت تتحدث بصوت منخفض وكأنها لا تريد أن يسمع صوتها.

ـ إميل ورث عن أبوه لون العينين والاهتمام بالكتب فقط، وهو عكس أبوه اللى كان بيفضل الشعر عن الواقع. إميل بيعيش فى القصة والشعر وهو عاشق باستمرار من طفولته، افتكر إنه حب والدة إميلى، كانت بنت بسيطة من أسرة فقيرة. وأبوها كان على طول سكران وكان دايمًا بيضربها وظهر إميل فى دور المنقذ، مش مشكلة... البنت كانت جميلة. فى البداية اعترضت على الجواز ولكن لما حصل الجواز استسلمت، وقبل ما يعدى شهرين كان حس إنه غلط، وكانت إرادة ربنا إن البنت ماتت بعد كام سنة....»

صفرت الريح مرة ثانية سقط إصيص ورود البازلاء فى الفناء وسمعت صوت

تكسره، فحزنت، هل حزنت لأن الإصبص انكسر أو لأن شخصًا يتحدث عن الموت بهذه البساطة؟ قالت:

ـ «كل اختياراته دايمًا غلط، عمره ما بيفكر أبدًا، مرة ورا مره اتنقلت من المدينة دى للمدينة دى ومن البلد دى إلى البلد دى عشان مايضيعش نفسه ومايضيعناش معاه أنا وإميلى، ما بقاش مهم عندى، لكن إميل مايقدرش على كده، أخاف يفلت من ايده الزمام، أمه من الناحية النفسية...»

لم تكمل الجملة، هزت رأسها ورشفت آخر رشفة من القهوة ووضعت الفنجان فى الطبق، ولكى أتحدث فقط قلت لها وأنا أشير إلى الفنجان:

«أقرالك الفنجان؟» كنت أتصنع فى القول، فلا أنا كنت أؤمن بقراءة الفنجان، ولا كنت فى الأصل أجيد ذلك، لقد قلت ذلك فقط لأجد شيئًا أقوله.

كأنها استيقظت من النوم أزاحت الكرسى إلى الوراء مرة واحدة ووقفت، ومسحت بيدها على شعرها ورتبت الشال على كتفها وقالت أخذت من وقتك، فنجان؟»

ونظرت إلى فنجان القهوة ومطت شفتيها وقالت:

«فنجانى قروه لى من سنين» ثم أغمضت عينيها وفتحتهما ونظرت إلى أشعار سايات نوا «كان بيحب أشعاره وبيقول إنه قالها من قلبه. هو كمان كان دايمًا بيتكلم من قلبه. وماحدش فهمه أبدًا» سرت بصحبتها حتى باب البيت. وعند باب البيت عادت ووضعت يدها على ساعدى وابتسمت ابتسامة بلا طعم وقالت:

«إميل بيحب بسرعة» وسحبت الشال حتى تحت ذقنها وقالت:

«ساعديه، القرار مش سليم، انصحيه»

سارت فى امتداد الممر الضيق، كانت الريح تلصق الشال بكتفيها، وكان الممر الضيق مليئًا بالورود الورقية الحمراء. وكانت شجرة الصفصاف كالمرأة التى تئن من الحزن، كانت مضطربة وعصبية. كانت قطرات المطر تتبخر قبل أن تصل إلى الأرض والسماء شديدة الاحمرار.

ـ ٣٨ ـ

طفت بكل الحجرات، وغيرت أماكن الأشياء والتى لم تكن تحتاج إلى تغيير. ووقفت أمام النوافذ واحدة واحدة أشاهد الخارج، كانت أوراق الطماطم تهتز بشكل متصل، والورود تتمايل يمينًا ويسارًا.

وكانت شجرتا آرمينه وآرسينه قد أسلمتا كل ورودهما للرياح، أما شجرة إميلى فكانت لا تزال محتفظة بعدة وردات. كانت الريح تصفر، وكانت شجرة السدر هى الوحيدة التى بدت وكأنها لا تخشى العواصف والرياح. سحبت كل الستائر وفكرت فى أن أذهب لأجمع الإصيص المكسور من تحت شباك المطبخ، ولم اذهب، لقد انكسر إصيصى وكأنه بلا اهمية مطلقًا.

عندما انطلقت صفارة الراحة ذهبت إلى حجرة النوم، وتذكرت السيد مرتضى الذى كان وهو يطلق الصفارة كأنه ينطق باسم رمز مقدس هو «فيدوس» وكان يجمع بساطه ويرحل. استغرقت وقتًا طويلاً حتى تمنَ لى ان اساله:

«يعنى إيه فيدوس؟» فضحك السيد مرتضى وقال «يعنى صفارة الراحة» سخر منى جانبى المنتقد قائلاً: «هل تفكرين فى السيد مرتضى كى لا أسألك لماذا تضعين أحمر الشفاه؟ ولماذا تمشطين شعرك؟ ولماذا تدهنين يديك بالكريم بكل هذا الحرص؟»

ووضعت المشط على التسريحة، ماذا يريد أن يقول؟ وإن قال ماذا أقول أنا؟ ما الذى يجب أن أقول؟ لقد قالت أمه «إنه قرار غير صحيح» سويت تنورتى، وأرشدنى جانبى الحنون قائلاً:

«قولى له، إننا صديقان حميمان» جففت العرق تحت إبطى، وسمعت صوت جرس الباب فمسحت أحمر شفتى الغامق اللون بالمنديل الورقى، وتساءلت وأنا فى الممر لماذا أظلم الجو؟

بمجرد أن أدرت مقبض الباب، انفتح الباب بهجوم الريح ودخل إميل ومعه بعض

التراب والقش والورق والعشب على أرضية الممر، ومع هذه الأشياء شىء ملون يشبه الجراد. أغلقنا معًا الباب بالقوة واستندنا عليه كان إميل يلهث ووجهه وشعره مغبرين بالتراب. سألته حصل إيه؟»

مسح رأسه بيده، ونفض ثوبه وقال «الجراد».

قلت: «أيه؟ ونظرت إلى أرضية الممر، كانت الأشياء التى ظننت أنها تشبه الجراد بالفعل، عشرون جرادة منها الميت وشبه الميت.

كان لونى شاحبًا بالتأكيد، وكنت أرتعد لأنه أمسك بساعدى وسألنى:

«إنتى بتترعشى ليه؟ ماسمعتيش؟ نظرت إليه حائرة وسألت:

«ماسمعتش إيه؟ «نفض بنطلونه وقال: ساعات الجراد أثناء الهجرة... إنتى تعبانة... تعالى اقعدى..» نظرت إليه من جديد فى حيرة وتركته يصحبنى إلى المطبخ الذى كان فى شدة الظلام. أجلسنى على مقعد وأضاء المصباح، وفتح الثلاجة وصب لى كوب ماء وأعطاه لى فى يدى. قلت «الأولاد».

سحب مقعدًا آخر وجلس أمامى وانحنى ناحيتى وهو يقول:

«ماتقلقيش، أنا اتصلت بالمدرسة قبل ما آجى، هايخلوهم لحد ما تهدى العاصفة. يا ترى فيه شبابيك مفتوحة؟ يا ترى أجهزة التكييف مطفية؟» نظرت إليه فقط ولا أدرى كيف نظرت إليه بحيث لم ينتظر منى ردًا فقام وجرى. هل شربت جرعة ماء أم لا؟ قمت واتجهت إلى النافذة، كانت حافة الشرفة مليئة بالجراد الميت وشبه الميت. تمنيت لو أنى كنت جمعت الإصيص من تحت النافذة. كانت السماء مظلمة، وصوت لم أسمع شبيهًا له حتى ذلك الوقت يتردد. قال إميل من خلفى «ده صوت أجنحة الجراد. وقفنا متجاورين ننظر إلى الفناء، كان الجراد يسقط من السماء، وصوت سقوطه على الأرض يشبه صوت كرمشة الأوراق.

كنت بالتأكيد ما أزال أرتعد، أو ربما كان لونى لا يزال شاحبًا لأنه قال لى: «مش أحسن تقعدى؟»

جلسنا على مقعدين متقابلين، سألنى: «إننى ماسمعتيش عنه حاجة أبدًا؟ وحين هززت رأسى بالنفى قال «الجراد يهاجر».

كان وجهه أمام وجهى تمامًا وهو يقول «ده بيطير كيلو مترات أحيانًا»

كان هنا على ذقنه مكان قطع صغير» ولما بيتعب بينقسم لطبقتين، طبقة بتنزل لتحت، وطبقة بتطلع لفوق لحد ما يروح عنها التعب»

انمحى مكان القطع «الطبقة اللى نزلت لتحت بتموت من التعب وتقع تحت» نظر من النافذة إلى الخارج الذى كان ما زال مظلمًا:

«الانقسام لطبقتين بيحصل عادة وقت المرور من فوق بحر أو محيط واأحيانًا بيحصل وقت المرور من فوق المدن»

لم يكن صوت الخارج ينتهى، وقد أصبح الآن شبيهًا بصوت طائرات كثيرة تمر من فوق رءوسنا، يبدوا أنى كنت ما أزال أرتعد لأنه قال: «إهدى هايخلص حالاً. وفجأة تذكرت وقلت له «أمك؟» فنظر من النافذة المظلمة وقال: دى نايمة، واخدة قرص منوم وحالتها سيئة، كل فترة حالتها بتسوء شوية» جلسنا صامتين حتى قل صوت الطائرات وخشخشة الورق وصفا الجوأكثر وأكثر. كأننى كنت أرى حلمًا.

حين دق جرس التليفون انتفضت من مكانى ووضعت يدى على وجنتى وضغطت، ربما لأطمئن أننى لا احلم. دق الجرس للمرة الثالثة قلت لأمى أننى بخير وأنه شىء جميل ان آليس اتصلت من المستشفى، وشىء رائع أن يوب اتصل بآليس، وأن آرتوش لم يتصل من خرمشهر، والأطفال فى المدرسة وأنه شىء مخيف... إلى أن سألت «يعنى إنتى لوحدك؟ قلت لها «هاتصل بيكى بعدين» ووضعت السماعة. لم أكن قد ابتعدت خطوتين حتى دق جرس التليفون مرة ثانية، قلت لـ نينا «أيوه كان شىء مخيف، كويس إن جارنيك كان فى البيت وأن ڤيوليت ضحكت بس. وقلت لها إن آرتوش ذهب إلى خرمشهر، وأننى أنا أيضًا كنت أريد أن اتصل بالمدرسة» وعندما سألتنى «إنتى كنتى لوحدك فى الفوضى دى؟ قلت لها «هااتصل بيكى بعدين» ووضعت السماعة وعدت إلى المطبخ.

كان ما يزال جالسًا على الكرسى، وقدماه منفرجتان قليلاً، وقامته منحنية، ووجهه مائل إلى المقعد المواجه. ينظر من النافذة.

إتكأت على إطار الباب، ومسحت بيدى على رأسى فشعرت أن يدى تلوثت

بالتراب. فعطست عطستين متتاليتين كالأوقات التى كنت أغير فيها تربة الإصيص أو أزرع شيئًا فى الحديقة.

سألنى بقيتى أحسن؟ فأومأت برأسى بالإيجاب وهمست:

«عندى حساسية من التراب» وسحبت مقعدى إلى الخلف قليلاً وجلست كنت مبللة بالعرق، ساد الصمت ورائحة التراب فقط للحظات.

نظر إلىَّ وقال «كلاريس، أنا عارف إنك ماجربتيش ده، لكن...»

قلت فى نفسى: «قول بسرعة».

وقلت لنفسى: «ماتقولهاش»

تنفس نفسًا طويلاً: «المنظر فى المدخل مش لطيف. أنا عارف إن الجراد مش عاجبك، ولكن...»

هذه المرة اضطررت أن أضغط على وجنتى حتى أتأكد من أنى لست أحلم. منظر الحوش!؟ الجراد مش عاجبنى!؟».

قام من مكانه، فقمت أنا أيضًا وسرنا فى الممر: فتح باب البيت فنظرت إلى الفناء. كنت أحلم بالتأكيد، ومن المؤكد أن هذا لم يكن حقيقيّا. الجميلة والأشجار والصفصاف والممر الضيق وكل شيئ كان مغبرًا بالتراب والتراب بلون الجراد. مضت لحظات حتى فهمت أن كل المكان ملىء بالجراد فدارت رأسى. وضع يده على كتفى وقال:

«مش مهم، هاننضفه» لم أعرف متى عدت إلى المطبخ ومتى جلست على المقعد.

كان إميل يعد القهوة وأنا أحملق فى الإصيص الموضوع على المائدة فى حيرة. كنت قد قطفت الوردتين الحمراوين اللتين كانتا فى الإصيص فى صباح هذا اليوم نفسه بعد رحيل أمه وتساءلت:

لماذا لا يوجد عليها جراد؟.

شربنا القهوة وتحدث إميل عن أنواع الجراد، الجراد الصحراوى، الجراد الأحمر، الجراد المغربى. وقال إن هناك نوع من الجراد لذكوره فقط أجنحة ليست من أجل الطيران؛ فهو يحك بجناحيه ببعضهما لجذب انتباه الإناث. وحين يزداد عدد الجراد فى

كل مجموعة يتغير شكله الظاهرى وسلوكهم، فلونه يتغير من البنى إلى الوردى أو الأصفر، ويعود نفسه على الحياة الاجتماعية. وقال إنه ورد فى الكتاب المقدس أن يوئيل وهو واحد من أنبياء اليهود كان ينذرالناس لكى يتوبوا من ذنوبهم لكى يظلوا فى مأمن من بلاء هجوم الجراد.

حين علا صوت الأتوبيس قمت من مكانى منتفضة.

وصلت إلى التوأمين وسط الممر الضيق، كان واضحًا أنهما بكيتا بكاءً شديدًا، وحين رآتانى عادتا إلى البكاء، كان آرمن آتيًا خلفهما، كان لونه الشاحب وجبهته المبللة بالعرق يفضحان ادعاءه البرود والهدوء. احتضنت البنتان وقبلتهما وقلت لهما عدة مرات «خلاص، خلاص، أيوه كان مخيف جدّا» ثم التفتت إلى آرمن، فوضع يده على كتفى، وحين سألنى: ماكنتيش خايفة وإنتى لوحدك؟» انتابتنى غصة، قبلته وهمست «أنا ماكنتش لوحدى»

التصقت بىَّ البنتان ومررنا فوق الجراد ودخلنا البيت، وركل آرمن وإميل الجراد الذى كان قد وقع فى الممر بأقدامهما فأخرجاه إلى الفناء. حملت البنتين إلى الحمام وغسلت أيديهما ووجهيهما. وحين خرجت كان إميل يتحدث مع آرمن عند الباب نظر إلىّ آرمن وقال: «إن احتجت حاجة نادينى» وذهب إلى حجرته. مسحت وجهى بيدى، كنت أشعر بالغثيان والمغص، وكانت رأسى تدور. اتكأت على منضدة التليفون.

نظر إميل إلى باب حجرة آرمن المغلق، ثم نظر إلىّ وقال «كنت عاوز اتكلم معاكى لكن ماجات ليش فرصة «وطأطا رأسه. «يمكن بعدين» واتجه ناحية الباب «إميلى أكيد رجعت، ويمكن تكون خايفة» وأدار رأسه ونظر إلىَّ وابتسم «مابتخافش من أى حاجة أد مابتخاف من جدتها» ووضع يده على مقبض الباب وبقى لثوان بلا حراك، ثم رفع يده عن المقبض ورجع وقال لى:

«لكن أنا لازم أقول لك، إنتى صديقتى الوحيدة، ومتأكد إنك هاتفهمينى، أنا قررت أتجوز ڤيوليت»

ـ ٣٩ ـ

كنت أفرغ منفضة السجائر فى سلة القمامة حين دخل آرتوش إلى المطبخ وقال: «إنتى مانمتيش امبارح؟ نظرت فى كل اتجاه إلا عينيه وقلت له: «ماكانش جايلى نوم، فقريت» وضع يده فوق كتفى وقال لى «أكيد اتضايقتى من اللى حصل امبارح، لونك مخطوف، حاولى تستريحى النهاردة، أنا هااتصل بشركة الخدمات» وذهب إلى الممر.

أحداث الأمس؟ هو بالتأكيد يقصد هجوم الجراد، كان مكان يده على كتفى ساخنًا.

سحبت ستارة المطبخ كى لا يُرى الفناء وبدأت فى ترتيب مائدة الإفطار، كان جانبى ذهنى يتشاجران.

ـ «كم مرة أصابه القلق فى الأعوام السبعة عشر؟ كم مرة عبر عن ذلك أو ذكره؟»

ـ «نادرًا حدًا».

ـ «والآن واليوم بالذات حان الوقت لواحدة من هذه المرات النادرة جدّا؟»

ـ «ولم لا؟».

«لأن...»

دخل آرمن المطبخ وقال شيئًا. نظرت إليه «لأن...»

نظر آرمن إلىَّ وسألنى «بتقولى حاجة؟»

قلت له: «بتقول إيه؟»

ـ قلت انى باربط رباط جزمتى، لونك مخطوف ليه؟

نظرت إلى الحذاء «لأن..»

دخلت التوأمان تجريان وهما تقولان: «صباح الخير» «صباح الخير»

قالت آرمينه «امبارح حلمنا إننا رحناحمام السباحة مع إميلى».

وقالت آرسينه وهى تعد على أصابعها «رحنا حمام السباحة: مع إميلى وصوفى وخالتى ڤيوليت وعمى إميل».

ـ جلست آرمينه خلف المائدة وقالت «كل دول ماكانوش موجودين»

فقالت آرسينه وهى تضع يدها على ظهر الكرسى «كانوا موجودين»

ـ «ماكانوش»

فدقّت آرسينه الأرض بقدمها وقالت «كانوا».

لا أتذكر أن التوأمين اختلفتا قبل اليوم، وهاهما الآن هل يجب أن تتجادلا معًا؟ صرخت فيهما «اسكتوا».

صمتتا للحظات. ثم همست آرمينه لأختها: هو أنا اللى شفت الحلم ولا إنتى؟»

زمت آرسينه شفتيها وقالت: «أنا كمان كنت فى الحلم مش كده؟»

فكرت آرمينه وقالت: «كنتِ» فقالت آرسينه:

ـ يبقى صوفى وخالتى ڤيوليت وعمى إميل كانوا موجودين

ارتفعت شفة آرسينه المتدلية وابتسم وجهها كله. جلست خلف المائدة وقالت:

امبارح لما بدأت أمطار الجراد قال مدير المدرسة إن آخر الزمان قرب. يعنى إيه آخر الزمان؟

فشرح لها آرمن، ولو حدث ذلك فى وقت آخر لتعجبت بالتأكيد من معلوماته الكثيرة والصحيحة، لكن ذلك لم يكن فى وقت آخر.

قالت آرمينه بضجر:

ـ الحوش اتملا بالجراد، هانعمل إيه لحد ما يوصل الأتوبيس...»

وضعت آرسينه كوب اللبن على المائدة وقالت:

ـ «هانعمل إيه لحد ما ييجى الأتوبيس»

قال آرمن «أنا هااشيلكم واحدة واحدة لحد باب الأتوبيس، ماشى؟»

علت ضحكات التوأمين وقالتا: «هييه، هانركب.»

نظرت إلى آرمن الذى كان يضحك مع البنتين. تعجبت «كم تغير» وقلت لنفسى وأنا أصب اللبن لـ «آرسينه»: «لقد كبر». كنت أريد أن أبكى. لماذا لم أكن أعرفه كنت أعرفه ولا أعرفه فى آن واحد.

دخل آرتوش إلى المطبخ ويده على ذقنه وقال «كأن موظف شركة الخدمات بيهزر معايا؛ طلبت منه يبعت حد ينضف الحوش، فضحك وقال:

«هايتنضف قبل الظهر وحط السماعة، أنا هااوصل الشركة وأقابل المدير...»

دق الجرس.

من سيكون فى هذا الصباح المبكر؟

كانت «يوما» فى هذا الصباح المبكر، وقد وقف خلفها أربعة أولاد ذوى وجوه مستديرة لفحتها الشمس، ورءوس حُلقت تمامًا، وكان الخمسة يمسكون فى أيديهم بأجولة وأكياس وعلب من الورق المقوى، وكانوا يبتسمون والابتسامة تمتد من الأذن اليمنى إلى اليسرى، لم أكن قد رأيت أولادًا بهذا الشكل قبل ذلك اليوم، وكانت هذه هى أول مرة أرى فيها ابتسامة «يوما،» كانت أربعة من أسنانها مصنوعة من الذهب، وغطاء رأسها الأحمر الكبير الذى يصل إلى خصرها به ورود خضراء كبيرة.

سألتها فيه إيه يا «يوما» إنتى معزومة على فرح فى الفجر ولا أيه؟ ضحك الأولاد، وضحكت «يوما» بصوت عالٍ وقالت:

ـ «النهاردة مايقلش عن الفرح قلت للعيال يلا نروح الأول عند الست مرات الباش مهندس، دى ست حقانية ومش هاترضى تاخد مننا ـ إحنا الغلابة ـ فلوس كتير، مش كده يا أولاد.

واستدارت ناحية الأولاد الذين هزوا رءوسهم وعادوا يضحكون، كانت أسنانهم ناصعة البياض فى وجوههم السمراء.

حملقت فىَّ «يوما» وأنا مندهشة إلى أن قال آرتوش من خلفى: «فيه إيه؟»

التصقت آرسينه وآرمينه بطرفى ثوبى، وقال آرمن: «فيه إيه؟»

حملقت مجموعتنا الخماسية فى مجموعتهم الرباعية لعدة ثوان.

فهمت «يوما» الموضوع أسرع من الجميع فعادت وقالت للأولاد أشياء بالعربية وغرق الخمسة فى الضحك. بعد ذلك شرحت «يوما» أنها جاءت لتشترى الجراد لأن العرب يقلون الجراد ويأكلونه. قالت:

ـ زى اللب يا ست، ها؟ مثل اللب. هكذا. وقربت سبابتها وإبهامها من فمها وراحت تمثل تقشير اللب.

قالت آرمينه وآرسينه «ييه!» فسمعهتهما «يوما» وعادت تشرح «وبنسلقه كمان فى الحلة» ضحك آرمن، وضحكت «يوما» أيضًا، ونظر الأولاد إلى بعضهم بعضًا وضحكوا كما كان الجميع يضحكون.

قلت لـ «يوما» أن تجمع فى البداية الجراد من الممر، ثم من باقى الأماكن، وحين قلت لها إننى لا أريد نقودًا رفعت يديها العظميتين وبهما ـ عشرة أو عشرين سوارًا فى كل يد ـ إلى السماء وقالت «ربنا ما يحرمناش منك وينولك كل اللى فى بالك، يارب...» وكانت ما تزال تدعو حين أغلقت الباب.

نادى آرمن التوأمين من حجرته وقال: «عندى تلت صور جديدة لطرزان وشيتا»

كان آرتوش قد وضع غطاء على منضدة التليفون وراح يقلب الرسائل والأوراق ويقول «وصل الفقر لدرجة إن الناس بقوا ياكلوا الجراد».

كانت السجادة الموضوعة على أرضية الممر معوجة، انحنيت لأعدلها وقلت:

«بياكلوا الجراد فى أماكن كثيرة، ومن زمان قوى»

نظر إلىّ آرتوش ولم يقل شيئًا، جاءت التوأمان إلى الممر وأزاحتا الستارة الخلفية للباب، ومدتا رأسيهما إلى الفناء وصاحتا معًا:

«المكان بقى نضيف لحد البوابة» ثم قطبتا جبينيهما ونظرتا إلىَّ وإلى آرمن الذى كان يمشط شعره أمام المرآة.

قالت آرسينه: «مش هانركب الركوبة؟» وقالت آرمينه: «مش هانركب ؟»

وخرجتا من الباب مزمجرتين.

وقال آرتوش عند الخروج:

ـ يبقى موظف شركة الخدمات ماكانش بيهزر، هااوصلهم.

كانت يوما والأولاد مشغولين، ولم تمض عشر دقائق حتى كانت هناك ثلاثة أجولة مملوءه بالجراد بجوار الباب المعدنى.

لم أكن قد رأيت الشارع مزدحمًا إلى هذه الدرجة حتى ذلك اليوم.

كان الرجال والنساء والأطفال الذين يتصببب منهم العرق يهزون الشجر والصفصاف بسرعة ويهيلون الجراد الملتصق بالفروع فى الأجولة والأكياس وكل ما أحضروه معهم، ويتصايحون حول أى شجرة من نصيب فلان وإلى أى صفصافة يمتد نصيب فلان. تساءلت هل المدينة كلها تشهد هذه الحالة؟

لم يكن أتوبيس المدرسة قد وصل وكنت أنا أنظر إلى آرمن الذى كان آتيًا من الناحية الأخرى للطريق، وكانت إميلى واقفة بجوار باب G4 جذبت آرسينه كم ثوب وقالت: الصفصاف وصاحت آرمينه: «الأشجار» وقال لى آرتوش: «بصى»

هز عربيان الصفصاف الواقع على جانبى البيت يمنة ويسرة وأسقطا الجراد، لم يكن قد بقى شىء سوى الفروع العارية، نظرنا إلى بقية الصفصاف مبهوتين ونظرنا إلى الأشجار فلم نجد على أحدها ورقة خضراء واحدة. لم أكن قد رأيت عبدان أبدا بغير لون أخضر، قالت آرمينه:

«كأنها راحت عند الحلاق....» وقالت آرسينه «وحلق لها كل رأسها» بقيت وقتًا أطول من أى صبح، ولوّحت بيدى لأتوبيس الأولاد «وشورلت» آرتوش.

حين عدت إلى الفناء كانت «يوما» تهز شجرة الصفصاف، وكان ما تبقى من الأميرة مدام «هوانس تومانيان» فروع عالية عارية فقط تشبه أصابع الهيكل العظمى.

حولت بصرى إلى الخميلة، كانت هناك قطعة منها ما زالت مليئة بالجراد، وفى المكان الذى كان أولاد يوما قد جمعوا منه الجراد كان التراب فقط هو الباقى. وكأن المكان لم يكن حتى الأمس خميلة خضراء كاملة مليئة بالورد والعشب. كان المكان كله بلون التراب، وهذ المرة كان تراب حقيقى.

ـ ٤٠ ـ

لم تكن هناك مقاعد كافية للجميع حول مائدةالمطبخ.

قلت عدة مرات «مش هانبقى مرتاحين أكتر فى أوضة الجلوس؟» ، لكن أحدًا لم يسمع صوتى بين كل هؤلاء الذين كانوا يتحدثون فى نفس الوقت. أرسلت آرمن فأحضر المقاعد الموجودة فى حجرته وحجرة التوأمين حتى جلس الجميع فى النهاية. كان آرتوش يحكى حادثة اتصاله بشركة الخدمات، وجارنيك يقهقه من الضحك، وكان آرمن مستندًا إلى المائدة الأمامية للمطبخ خلف آرتوش. والتوأمان تتحدثان مع صوفى حول بروفة نهاية العام وأمى تعدّ لهم شطِيرة الجبن المخلوط بالزبد، وآليس تضع أحمر الشفاه وهى تنظر فى مرآة علبة مسحوق التجميل. ونينا تقول «لما الجراد الملعون كان طاير فوقنا وعمال يعمل صوت زى صوت الطيارات النفاثة، قعد جارنيك يجرى فى الأوضة ويزعق على طول ويقول لى «ماتخافيش، ماتتحركيش، ماتتكلميش، وفى الآخر صبيت له ميّة فى الكوباية وزعقت فيه «ياراجل إهدى ده أنت خايف أكثر مننا كلنا وحطيت له الميه فى زوره بالعافية»

واستغرقت فى الضحك ولفت يدها حول رقبة جارنيك الذى هرش فى رأسه وقال:

ـ آه، والمسيح، أنا كنت جبان، كنت هاموت من الخوف، ومراتى ولا كان هامها.

وأشار إلى ڤيوليت وقال: «كان فيه حد غيرى لا كان بيضحك ولا بيتكلم، وكان قاعد يلف فنجان القهوة فى الطبق»

قطعت أمى تفاحة إلى أربعة أقسام، وناولت التوأمين، وصوفى، ثم مدت القسم الرابع ناحية آرمن، فقال آرمن: «مش عاوز» فقضمتها هى، وقالت:

«أنا ماخفتش خالص، بس كنت قلقانة على آليس وكلاريس والولاد، بس كلاريس كانت صعبانة عليا أكتر من أى حد عشان كانت لوحدها» قمت من على المائدة وبدأت فى جمع الأطباق بسرعة فقالت صوفى:

«دول مش وسخين، بتشيليهم ليه يا خالتى؟»

وقالت آرمينه «جدتى تفاحة تانية»، وقالت آرسينه «جدتى، تفاحة» فقالت أمى «اصبروا، وماتقاطعوش»

وأخذت تفاحة أخرى من طبق الفاكهة.

كانت «آليس» تقول:

ـ قلت لـ«يوب» كذا مرة إنى مش خايفة لكنه حلف «إلا ولازم يوصلنى لحد المستشفى بنفسه، وأقنعته بصعوبة إنه مايجيش. كان هايعمل إيه لو جه، أنا مش طفلة».

مد جارنيك يده فى طبق نينا، والتقط بضع حبات من العنب، وألقاها فى فمه واحدة واحدة، وقال لـ «آليس»:

ـ لامؤاخذة يا آنسة آليس لو سمحتى تقولى لنا هو إزاى قال «إلا ولازم» بالإنجليزى.

وضحك، وغرقت التوأمان وصوفى فى الضحك وزمجرت أمى وقالت لهم ماتضحكوش وبقكم مليان، لاحسن زوركم ينسد»

وضعت آليس علبة مسحوق التجميل فى الحقيبة ونظرت لـ «جارنيك» شذرًا. ضربت نينا جارنيك على يده «بتمد إيدك فى طبقى تانى» ثم التفتت إلى آليس وقالت لها «سيبك منه، ما إنتى عارفاه، بيدور على حجة للرغى، انتوا مش هاتتقابلوا تانى الليلة»

نظرت آليس إلى أظافرها وأدارت الخاتم حول إصبعها وضمت شفتيها وقالت:

ـ«يوب مشغول الليلة، لازم يكتب جواب لمامته وخالته».

ضحك جارنيك أولاً، وبعد أن انتهى قال «وهو فيه مشاغل أكتر من كده؟»

وغمز بعينيه للتوأمين ولصوفى اللواتى كن يضحكن لضحكه.

قالت آليس:

«لازم آخد أجازة الأيام دى».

ونظرت نينا إلى جارنيك نظرة تهديد وقالت للأولاد الذين كانوا ما زالوا يضحكون:

ـ «إنتوا واقفين هنا بتعملوا إيه، روحوا العبوا»

كانت أمى تتميز غيظًا، وآرتوش يدير سكين الفاكهة على المائدة.

أعطيت لآرمن الذى كان منحنيًّا فوق رأسى ناحية طبق الحلوى قطعتين من البسكويت، ونظرت إلى ڤيوليت التى لم تنطق كلمة واحدة منذ أن جاءت، وتساءلت:

«ماذا بها؟»

قالت صوفى «إحنا رايحين نلعب مع العرايس لعبة الضيوف».

وقالت آرمينه «إحنا رايحين للعرايس...».

وقالت آرسينه: «نلعب لعبة الضيوف».

وقال آرمن «أنا رايح أركب العجلة».

فقالت آليس «أنا مضطرة آخد أجازة».

قامت ڤيوليت من مكانها واتجهت إلى النافذة وقالت:

«أكل الجراد الورود» فنظرت إليها، كانت قد صففت شعرها كذيل الحصان، وتلبس حذاء أبيض عريض الكعب لونه أبيض. مسحت إصبعها فى زجاج النافذة فتبقى أثر إصبعها عليه. ثم قالت «مساكين».

هل خيل لى أم أنها حقيقة كانت تبتسم ابتسامة غامضة؟.

هذه المرة قالت آليس بصوت عال: «أنا لازم أروح طهران...»

فسألتها نينا: «طهران ليه؟»

قالت ڤيوليت وظهرها لنا «عند الهجرة بتطير لمسافة كيلو مترات، وكل جرادة تأكل ما يعادل وزنها تمامًا من الأكل يوميًّا، وهما فى كامپوديا بيعملوا من الجراد أكل لذيذ»

ـ لماذا لم أتساءل من أين عرفت هذه الأشياء؟

قالت آليس «علشان تجديد جواز السفر، يوب قال إننا رايحين هولندا مع بعض فى سپتمبر علشان نشوف أمه وخالته، ونتجوز هناك، وطبعًا يمكن قبلها نعمل حفلة صغيرة هنا.

التفتنا أنا وأمى وآرتوش ونينا وجارنيك إلى آليس.

واستدارت ڤيوليت ناحيتنا وقالت «مساكين».

نظرنا جميعًا إلى ڤيوليت التى كانت تنظر إلينا فقالت: «كنت أقصد الجراد».

ثم التفتت إلى آليس وضحكت وقالت «هايل، مبروك».

ابتسمت آليس ابتسامة تهكم وقالت:

ـ «ميرسى يا ڤيوليت، أخيرًا فى حد حس إنه لازم يبارك لى» وأزاحت المقعد إلى الخلف، ووقفت وأدارت رأسها الكبيرة المستديرة ناحية أمى التى كانت تنظر إليها فاغرة فاها، وقالت:

ـ أنا ماشية، جاية معايا ولا هاتستنى؟.

هبت أمى من مكانها وجذبت يد الحقيبة من على كتف المقعد جذبة محكمة فتمزقت يد الحقيبة. وضعت أمى الحقيبة بيدها الممزقة تحت إبطها وخرجت من المطبخ فى إثر آليس، اهتز المقعد عدة مرات وانقلب على الأرض، نظرنا جميعًا إلى المقعد محملقين. لا أدرى كم طال الوقت حتى مثلت ڤيوليت طريقة لعب الأطفال وقالت:

«واحد، اتنين، واحد اتنين، فرامل، ثابت» ثم تقدمت، وحملت الكرسى، ووضعته بجوار المائدة وجلست عليه.

رحنا جميعًا ننظرإلى ڤيوليت التى أخذت من طبق الفاكهة حبتين توأمين من الكريز ونظرت إليهما وقالت «أد إيه حلوين» وألقتهما وراء عذارى أذنيها، وأجالت بصرها بيننا واحدًا واحدًا، ثم رفعت حاجبيها الكثيفين وقالت لنا:

ـ حلو، مالكم مندهشين كده؟ الجواز مش خبر وحش، مش كده، طيب، أنا كمان هاتجوز»

فى هذا الوقت وصلت صوفى و التوأمان وهن يلهثن، ورفعت إصبعها لأعلى وفعلت البنات كما يفعلن فى المدرسة، وقلن:

«ممكن نركب العجل؟».

أدارت ڤيوليت نصف وجهها ناحية البنات وهزت رأسها وقالت لهن: مش الحلق بتاعى حلو؟» وهزت حبتى الكريز فضحكت البنات، وضحكت ڤيوليت كذلك وقالت «يا بنات، تحبوا فى فرحى، تبقوا وصيفات العروسة؟»

قفزت آرمينه وآرسينه وصوفى فرحًا وصفقن وقلن :

« رائع ، رائع ، فساتيننا هايكون لونها إيه ؟ »

قالت آرمينه :

ـ أنا البس اللون الوردى.

وقالت صوفى : وأنا الأزرق.

وقالت آرسينه : « وأنا الوردى » .

نظر آرتوش إلىَّ ، ونظر جارنيك إلى نينا ونظرت نينا إلى ڤيوليت.أما البنات فرحن يدرن فى حلقة وهن يصحن « فرح ، فرح »

أخذت ڤيوليت حبتى الكريز من خلف أذنها وانتزعتهما من سيقانهما وأكلتهما.

قال جارنيك لـ « نينا » : « قالت إيه ؟ » وقالت نينا لـ ڤيوليت : « قلتى إيه ؟ » .

قامت ڤيوليت من مكانها ، وألقت النواتين فى الطبق وقالت : « ياللا يا بنات علشان نتفق كل واحدة هاتلبس لون إيه ، أنا هاالبس أبيض أكيد عشان أنا العروسة ، وانتوا كمان... » وخرجت مع البنات من المطبخ.

وقفت نينا وقالت : « دى اتخبطت فى دماغها » وقالت لـ « جارنيك » :

« قوم ، قوم نشوف بنت خالتى المجنونة دى إيه اللى جرى لها »

بقيت فى المطبخ أنا وآرتوش الذى كان يحرك السكرية على المائدة للأمام والخلف فتصدر أصواتًا خِش ، خِش ، خِش ، وصبرت ، وصبرت ، وصبرت ، وفى النهاية صرخت فيه « بس »

ـ ٤١ ـ

لم يكن الفوتيه الجلدى الأخضر مريحًا، ضممت قدمىَّ، ومددتهما، جلست معتدلة، وانثنيت وضعت يدىَّ فوق يدى الفوتيه، ورفعتهما، أسندت رأسى على ظهره، أغمضت عينىَّ وفتحتهما. أخرجت كتاب ساردو من المكتبة وقرأت من المكان الذى كنت قد وضعت تحته خطين، وأغلقت الكتاب لم يكن مهمًا ما الذى اختاره بطل القصة فى النهاية ما بين عشقه والتزامه.

كنت أكره بطل القصة الذى كان غبيًا إلى هذه الدرجة، وكنت أكره بطلة القصة أيضًا لأنها لم تكن تفهم أن هذا الرجل أحمق إلى تلك الدرجة، قمت وذهبت إلى المطبخ وأنا أقول لنفسى: «أنت أكثر حمقًا من الجميع» نظرت إلى ساعة الحائط لم يكن قد بقى شيئ على وصول الأولاد، فتحت باب الثلاجة، لم يكن عندنا لبن، وكان عندنا القليل من الجبن، وبحثت عن الزبد طويلاً فلم أجده. كنت واثقة فى الصباح أن عندنا زبد، طفت ببصرى فى المطبخ، كانت علبة الزبد متبقية منذ الصباح على الرف وقد ذاب الزبد الموجود بداخلها تقريبًا، وأطباق الإفطار التى لم تغسل فى الحوض كالتل. كم مرة فى السنوات السبع عشرة الماضية بقيت أطباق الإفطار حتى العصر بدون غسيل؟ ربما مرة أو مرتين فقط فى الشهور الأخيرة التى كنت فيها حاملاً فى التوأمين.

وقع بصرى على لوحة «سايات نوا» المرسومة بالقلم الرصاص، وكان مسماران قد انتزعا منها، فصار نصف وجه الشاعر يتأرجح على الجدار. اقتربت منه، كم كانت قبيحة! ما الذى جعلنى أعتقد إلى اليوم أنها جميلة؟ ربما لأن ابنة خالة آرتوش كانت قد أرسلتها من أرمينيا. ليس مهمًا من أين جاءت. كانت قبيحة، وكنت أنا حمقاء لأننى ظللت حتى الآن أعتقد أنها جميلة.

انتزعت اللوحة من على الحائط وقبضت عليها. ورحت أضغط عليها حتى صارت كرة فى يدى، أخذت أحركها لأعلى ولأسفل عدة مرات ثم أطحت بها وألقيتها فى

سلة القمامة، اصطدمت كرة «سايات نوا» بحافة السلة وسقطت على الأرض ثم حملت حقيبتى وخرجت من البيت.

كان الباب المعدنى لـ G4 نصف مفتوح. سرت حتى وصلت إلى جدول المياه ومررت بجوار المقاعد الحجرية والأشجار الخالية من الأوراق والبراعم الخالية من الورود.

رحت أسير وأنا أحاول ألا أنظر حولى، لم أكن قد رأيت عبدان بهذا اللون الترابى أبدًا. كانت المدينة تبدو وكأنها متعبة ومعتلة المزاج، كانت تشبهنى فقد كنت أنا أيضًا متعبة جدّا ومعتلة المزاج جدّا. وصلت إلى متجر أديب، كانت هناك خلف الباب ورقة مربعة من الورق المقوى وكان مكتوبًا عليها «راحة» لماذا لم أر هذه اللوحة من قبل أبدًا؟

ربما لأننى لم آت لشراء شىء فى هذا الوقت من النهار من قبل، فقد كنت أعرف أن المتجر فى فترة الراحة من الواحدة إلى الثالثة.

نظرت فى ساعتى كانت الساعة الثالثة إلا خمس دقائق، والأولاد قادمون من المدرسة بعد ساعة وليس عندى زبد، والجبن عندى قليل، وسيبقى الأولاد دون أن يتناولوا وجبة العصر. لماذا نسيت أنه ليس عندى جبن ولا زبد؟ لماذا نسيت أن المتاجر فى وقت الراحة فى الظهيرة؟ منذ الصباح وأنا أجلس على الفوتيه بدلاً من اهتم ببيتى وشئون أسرتى، منذ الصباح وأنا أفكر فى بطلة القصة وغبائها، وبطل القصة وحماقته، و... تنفست نفسًا عميقًا وطرقت على واجهة المحل بخاتم زواجى، تمامًا بين حرفى اللام والياء...تعطيل»[1] حين فتح السيد أديب الباب تنفست الصعداء.قال لى «هو حضرتك يا حرم الباش مهندس؟ حضرتك عمرك ما شرفتينا فى الميعاد ده قبل كده؟» كان المتجر دافئًا ومظلمًا وكان السيد «أديب» يزن الجبن والزبد وهو يتحدث:

«عمر حضرتك شفتى حر زى ده قبل كده؟ بيقولوا إنه بسبب الجراد، بعد هجومه الحر بيشتد، وبعدين الأولاد لازم يروحوا الشط، ربنا وحده اللى يعلم من دلوقت لحد الدنيا ما تليل كام واحد هاياخد ضربة شمس، هايعملوا إيه المساكين، ده الحر يقطع النفس، أنا عمرى ما شفت حر زى ده قبل كده»

كنت أنظر إلى ميزان السيد «أديب» الذى كان الصدأ يعلوه فى بعض الأماكن،

(١) تعطيل: تعنى راحة (المترجمة).

وكفتاه مائلتان معوجتان. ولم تكن عندى رغبة لأقول له: «لقد رأيت أسوأ من هذا الطقس الحار، وأنا أيضًا رأيت ذلك. الليلة، وغدًا، وبعد غد مساءً الأطفال فى أحياء العرب وأحمد آباد والمناطق التى لا أعرف أسماءها ولم أذهب إليها أبدًا الذين يعلم الله كم مرة ذهبوا إلى الشاطىء، ولو أنهم لم يموتوا من ضربة الشمس، فإنهم يفقدون يدًا أو قدمًا، ونحن نسمع من آليس أنهم «أحضروا إلى المستشفى بالأمس سبعة مصابين بضربة شمس، واليوم ثمانية، وليلة أمس، عشرة» وأنا وآرتوش وأمى نتأسف، وبعد صمت قصير ونحن نفكر فى الموت أو فقد عضو من الجسم نعطى انتباهنا لأولادنا الذين يقولون «ماذا سنأكل فى العصر؟ وماذا عندنا للعشاء؟ لقد متنا من الحر. لماذا لا ترفعون درجة التكييف؟»

قال السيد أديب «عندى حلاوة، أجيب لحضرتك؟»

لم يكن هناك فى البيت من يحب الحلاوة غيرى فقلت له: «إدينى ١٥٠ جرامًا من فضلك»

عدت إلى البيت وفى يدى الكيس، كان الشارع خاليًا والجو حارًا، حتى الضفادع كانت صامتة أيضًا. وكان باب G4 مغلقًا.

حين دخلت إلى الفناء كان هو واقفًا عند باب البيت، مررت بجوار الحدائق التى صارت ترابًا والأشجار العارية.

قال: «أهلاً كلاريس» كان لون عينيه هو الشىء الوحيد الأخضر فى كل ما يحيط بنا، أجبته «أهلاً» وفتحت باب البيت وقلت: «أنا جايبة زبدة هااحطها فى الثلاجة أحسن تدوب»

دخل إلى المطبخ ورائى. وضعت الزبد والجبن والحلاوة فى الثلاجة وبدأت فى غسل الأطباق، ولم أسمع صوت قدم تسير، ولا صوت مقعد يجر على البلاط إنه إذن لم يجلس، ما زال واقفًا عند باب المطبخ.

قال لى جانبى الذى يراعى أصول اللياقة «دى قلة ذوق، ضايفية».

التفتّ إليه وهو ينظر إلى مكان لوحة «سايات نوا الخالى» وقلت:ـ

«مش هاتقعد؟»

جلس وبدأ فى الحديث فقال إنه من أول يوم رأى فيه ڤيوليت فى بيتنا أحس كأن أحدًا يقول له إن هذه هى المرأة التى تبحث عنها منذ سنوات، وأنه غداة ذلك اليوم رأى ڤيوليت مرة ثانية أثناء خروجه من الشركة؛ حيث كانت تمر من هناك بالصدفة، فذهبا معًا وشربا القهوة فى «ميلك بار» وتحدثا، وأنهما تواعدا بعد ذلك عدة مرات عند الشاطىء.

كانت الأطباق المغسولة فى مكانها وكنت أنا جالسة أمامه أصغى وأتذكر كلام آرتوش: «ڤيوليت سألتنى وسألت إميل كتير عن القسم اللى بنشتغل فيه فى الشركة، وبنشتغل أيه، ماكنتش أفتكر أبدًا إن الحاجات دى بتلفت انتباهها»

وتذكرت كلام نينا «المسكينة ڤيوليت، لسة حزينة علشان اتطلقت، والمغرب بتروح تمشى لوحدها على الشط «تذكرت كلام ڤيوليت نفسها حين قالت للأولاد «هآخدكم تاكلوا آيس كريم فى «ميلك بار»

ابتسمت فقط ردًا على جارنيك حين قال لها

ـ إيه اللى عرفك بـ «ميلك بار» يا مصيبة إنتى؟.

كان إميل عصبيًّا، يمرر يديه على شعره ويضعهما فى جيبه، ويزيح المقعد إلى الخلف ويسحبه إلى الأمام ويتحدث:

ـ «أمى مابتوافقش على أى حاجة أعملها وعلى طول فاكره إنى غلطان ومتهيألها إن عقلى مابيستوعبش كويس، طول عمرها بتفكر فى كل حاجة بعقلها، ومبتآمنش بالحب، لكن الحياة هى الحب، مش كده؟ إنتى أكيد متفقة معايا فى الرأى، مش كده؟.

وهدأ للحظات، وراح ينظر إلىَّ منتظرًا الرد.

ـ أطفأت السيجارة فى منفضة السجائر وبقيت صامتة وشردت فى أنى لا اريد أن أعرف ما هو القرار الذى اتخذه بطل قصة ساردو، وإن قصص ساردو لا تعجبنى، وأشعلت سيجارة أخرى.

قال إميل: «ماكنتش أعرف انك بتدخنى؟ وبدأ فى الحديث عن ڤيوليت مرة ثانية، فقال إنها بنت بسيطة، وكم هى حنونة، وكم هى إنسانة ليس لها تطلعات، وكم هى محبة للشعر والموسيقى، كان يتحدث تمامًا مثل كتابات ساردو.

حين علا صوت الأولاد قادمًا من الفناء قام إميل من مكانه وقال لى :

ـ يا ترى هاتتكلمى مع أمى؟ أنا مش عاوزها تتألم ، لكن لو ماوافقتش أنا هااضطر.....» ثم ودعنى ونظر إلى متردداً ، وأمسك بساعدى وقال لى «أرجوكى» وذهب.

قدمت للأولاد وجبة العصر وأنا أحاول أن أصغى لكلامهم.

ـ «إمتحان الرياضة كان سهل جدّا» .

ـ «فاضل أسبوعين على حفلة آخر السنة» .

ـ «النهاردة عملنا بروفة على أغنية «الفصول الأربعة» .

ـ «إميلى هى سندريلا فى المسرحية ، الأمير فى المسرحية هو زميل.....» .

أخذ آرمن الساندويتش وكوب اللبن وسحب المقعد للخلف وقال :

ـ «عندى امتحان جغرافية بكرة» تبعت نظرة التوأمين آرمن حتى دخل إلى حجرته وأغلق الباب ، ثم خفضتا صوتيهما وقالت آرمينه :ـ

ـ «بعد البروفة على المسرحية ضرب آرمن زميله فى الفصل ـ الأمير ـ على ودنه» . وقالت آرسينه :

ـ «بس قبل ما يتخانقوا جه مدير المدرسة» .

فسألتها : وإميلى عملت إيه؟ فقالت الاثنتان معًا : «ضحكت» .

ـ ٤٢ ـ

كان الوقت قبيل الغروب، والشمس لم تكن قاسية، فى هذا الوقت كانت شورلت القديمة مركونة فى الشارع، وكان باب المرآب مفتوحًا لاستقبال الكاديلاك الخضراء المكشوفة. كانت البنتان قد انحنيتا على مائدة المطبخ تتصفحان مجلة «لوسابر» الشهرية، أخذت المجلة وقلت لهما:

ـ «عندكو امتحان بكره»

لوت آرمينه شفتها وقالت «امتحنناه النهاردة» ولوت آرسينه شفتها وقالت «طب على الأقل نتفرج عليها لحد الآخر «رميت المجلة على الرف وقلت دلوقت وقبل ما تناموا لازم تراجعوا التاريخ وهاآجى أسألكم»

نظرتا إلى بعضهما بعضًا وخرجتا من المطبخ دون كلام. منذ اسبوع أو اثنين وهما لا تتجادلان بجدية حول أى شىء، تساءلت لماذا؟ أيعنى هذا أن الأولاد شعروا أننى معتلة المزاج؟.

قال آرتوش: «مابيحبوش القهوة قوى، هايشربوا شاى»

ملأت البراد بالماء ووضعته على الموقد، وبعد نصف ساعة حملت صينية الشاى إلى حجرة الجلوس، شكرنى الضيوف بصوت خفيض، وابتسم آرتوش وأغلق الباب الخلفى. ذهبت إلى حجرة النوم، وتمددت على السرير وتحدثت مع نفسى وانا أحملق فى مروحة السقف. لماذا ترين فقط حماقة الآخرين، لماذا لا تصغين جيدًا إلى الكلام الذى يقوله الناس لماذا تنتقدين آليس؟ أنت أسوأ منها. قمت واتجهت إلى النافذة، كان الوقت فى الغروب ولون فروع شجرة السدر العارية يميل إلى الرمادى. كان يجب أن أعمل شيئًا، كان يجب أن أشغل نفسى بشىء حتى لا أفكر. هل أرتب الأدراج؟ لقد رتبتها الأسبوع الماضى. هل أقرأ كتابًا؟ كانت الكتب فى حجرة الجلوس، ولم أكن راغبة فى ازعاج آرتوش وضيوفه. ثم إن هذا كان مجرد حجة، فلم تكن عندى الرغبة

فى قراءة الكتب. والعشاء أيضًا جاهز، فلأذهب إلى المرآب، فمنذ فترة طويلة وأنا أريد أن أرمى الأشياء غير النافعة التى كنا قد خزنناها فى المرآب.

حين خرجت من باب البيت سمعت صوتًا وتراءى لى من بين أشجار الصفصاف أن شخصًا دخل إلى المرآب، من هذا؟ كان ضيوف آرتوش ما زالوا موجودين فى حجرة الجلوس، والأولاد يذاكرون دروسهم، وباب المرآب وباب السيد رحيمى كانا مغلقين، تساءلت هل تضاعفت أعمال آرمن الشيطانية إلى هذا الحد ؟ أتراه قد الحق بالكاديلاك ضررًا؟ ووصل الأمر بى أن تساءلت هل كبر ابنى هكذا!.

فتحت باب مرآبنا، ولا أدرى هل خفت أنا أكثر من الشاب الذى كان منحنيًّا على حقيبة السيارة الكاديلاك. صرخت. وعاد الرجل ومعه رزمة أوراق تحت إبطه، وحين هممت بأن أصرخ الصرخة الثانية اصطدمت قدمه برفرف السيارة ووقع على الأرض «آخ!» وتبعثرت الأوراق التى كانت فى يده على أرض المرآب.

كان آرتوش جالسًا خلف المائدة «هاتسألينى كم مرة؟ قلت لك ماكنتش أعرف، ماكنتش أعرف، عملوا كده من غير ما ياخدوا إذن منى» قال ذلك وهو يحرك السكرية على المائدة إلى الخلف وإلى الأمام.

كنت أرتعد وأصرخ ولم يكن مهمًا أن أصرخ «ماكنتش تعرف، ماكنتش عارف إن صاحبك راكن عربيته الكاديلاك فى الجراج بتاعنا.....»

«ده مش صاحبى».

«يكون زى ما يكون، عدوك، ما هو طبعًا مش صاحبك علشان الصاحب مايعملش كده فى صاحبه، هو يقعد هنا يشرب شاى وقهوة ويخرف بشوية كلام فارغ عن بطولاته، وبعدين يروح ياخد المنشورات من جراجنا، كان هايحصل إيه لو جم وراه؟ كان هايحصل إيه لو هجموا على بيتنا؟ للدرجة دى بتأذى نفسك بالسياسة، إنت اتجوزت من غير داعى وخلّفت من غير داعى، كان هايحصل لى إيه أنا والأولاد لو كانوا هجموا على البيت، إنت مابتفكرش إلا فى نفسك»

قلت ، وقلت، وقلت. وسمع آرتوش، وسمع، وسمع، ثم التقط السكرية من على المائدة وكنت أنا ما أزال أصرخ وأقول له «ماعندكش عقل أنانى» وآرتوش يلعب بغطاء السكرية.

«حيلى بيتهد من الصبح للمسا علشانك إنت وأولادك، وبعدين؟ إنت بتعمل كل اللى انت عاوزه، تلعب شطرنج، ومتهيأ لك إنك بتعمل حاجة مهمة، وعايش دور البطولة، وأولادك مطلعين روحى، ومش سايبين لى أى وقت لنفسى، ومفيش مرة حد قال لى «إنتى تعبتى و....».

وضعت المنديل الورقى على عينىَّ وانخرطت فى البكاء، وآرتوش يفتح غطاء السكرية ثم يغلقه.

كانت هذه هىالمرة الأولى التى لم أدعه فيها يقاطع حديثى، وأخرجت كل ما كان فى قلبى.

«جاريتك فى كل حاجة انت عاوزها، نروح نسكن فى حى بريم العيشة فيه أرستقراطية حاضر، عاوزين نشترى عربية جديدة، حاضر، عندى ضيوف، حاضر، بااحب الشطرنج، حاضر، أنا رايح عند شاهنده حاضر، ودلوقت وصلت الحكاية لدرجة إنهم بيوزعوا المنشورات من بيتى، والبيه صاحب البيت بيقول ماكنتش أعرف، عملوا كده من نفسهم، لو إنت غبى لدرجة إنك مش عارف إيه اللى بيحصل فى بيتك يبقى...»

لم أكمل الجملة، وحملقت فاغرة فمى وأنا أنظر إلى آرتوش الذى فتح السكرية وراح ينثر السكر على المائدة والمقاعد وأرضية المطبخ كأنه يروى الحديقة. ثم أغلق السكرية ووضعها على المائدة وخرج من المطبخ.

ـ ٤٣ ـ

كنت خلف مائدة المطبخ أخيط جيوب مريلتى التوأمين الذين كانت فتحاتهما ما تزال ممزقة.

بعد شجارى مع آرتوش، كنا أنا وآشخن قد كنسنا المطبخ عدة مرات، غير أنه كان واضحًا أن هناك أماكن ما تزال محتفظة بالسكر من صف النمل الطويل الذى كنت أراه كل صباح فى الزوايا والأركان.

منذ ذلك اليوم لم أتكلم مع آرتوش كلمة واحدة، وبدلاً من ذلك كنت أتشاجر مع نفسى بشكل دائم، هل الحق معى، أم لا .

كانت التوأمان تتأرجحان فى الفناء وتغينان شعرًا بصوت عال جدّا :

كان عندنا كلب جميل،

وكنا بنحبه قوى.

علا صوت الباب المعدنى، ثم تبعته ابتسامات التوأمين وصياحهما.

ـ «مرسى صوفى».

ـ «مرسى عمو جارنيك»

ـ «الاثنين لونهم أخضر، حلوين قوى».

ـ «زى اللى عند صوفى بالضبط»

ـ «مرسى، مرسى»

أطفأت النار تحت اللوبيا، وقمت وفتحت الباب، وكانت التوأمان تتقافزان طربًا وفى يد كل واحدة منهما واحدة من الهولاهوب الخضراء. قلت وأنا واقفة عند عتبة الباب «برضه عملت اللى فى دماغك؟»

نظر جارنيك إلىَّ وحرك يديه وجاء ناحيتى وقال :

ـ وعد الحر «قلت هااشتريهم، واشتريتهم»

فى المطبخ أخذت الملابس وعلبة الإبر والخيط من على المائدة ووضعتهم على مقعد من المقاعد وقلت:

ـ دول كل شهر بيطلعوا لعب جديدة، لو كنا هانشتريها كلها يبقى هانفلس، وبعدين الاولاد هايبقوا مدلعين، ده لو ماكانوش كده فعلاً، تشرب قهوة ولا حاجة ساقعة؟

جلس جارنيك وأخرج من جيب بنطلونه منديلاً كبيرًا ومسح به رأسه وعنقه، وقال:

ـ «الأول عاوز ميه ساقعة، وبعدين قهوة، وبعدين حاجة ساقعة الأطفال أطفال كام سنة بس بيحبوا فيهم اللعب، وبعدين بمجرد ماتغمضى عنيكى وتفتحيها تلاقيهم كبروا، ويركبهم الهم زينا، وبعدين مفيش حد فلس علشان شراء اللعب، فين آرتوش؟»

أخرجت زجاجة الماء من الثلاجة، والكوب من الدولاب، وصببت الماء فى الكوب ووضعته على المائدة، وأخذت كنكة القهوة، ووضعت المكيال وسألته:

ـ قهوة سكر زيادة ولا على الريحة؟ فين نينا؟.

شرب جارنيك الماء فى رشفة واحدة، ووضع الكوب الفارغ على المائدة وقال:

ـ راحت مع ڤيوليت السوق عشان تشترى طقم ملايات أمريكانى، وقولى بقى إن الأولاد بيفلسوا الواحد، سكر زيادة، هو آرتوش مارجعش؟».

قلت وعينى على القهوة حتى لا تفور:

ـ «وأنا كمان لازم اشترى ملايات» صببت القهوة فى الفناجين وجلست خلف المائدة وسألته «أجيب لك ساليزون؟ ».

سحب فنجان القهوة وسألنى: «هو انتوا اتخانقتوا؟»

كان صوت الأولاد يترامى إلينا من الفناء «٤٥، ٤٦، ٧٤ .....»

ارتشف جارنيك رشفة من القهوة وقال «عرفت إزاى، ها؟»

ونظر إلىَّ و وضحك: «أولاً، لأنك عملتى لى القهوة كتير وعارفة إنى بااحب القهوة سكر زيادة، وثانيًا، لأنى سألتك مرتين فين آرتوش فقلتى كلام مش مترابط، حصل أيه؟».

تساءلت هل أحكى ما حدث؟ أم لا؟ وقلت:

ـ «أنا عصبية بسبب مواقف آرتوش السياسية»

ترامى صوت صوفى من الفناء «اللى بيلف مائة مرة يبقى هو الكسبان» نظر إلىَّ جارنيك للحظات، ثم راح يحرك فنجان القهوة على المائدة عدة مرات، ثم نظر إلى الخارج وقال:

ـ «طيب، كل واحد له رأى كان آرتوش قد قال لى مرات:

«الأغبياء مابيشوفوش أبعد من أنوفهم».

وفى كل مرة كان جارنيك يقول «ومش أنوفنا أهم من الحاجات البعيدة عننا؟ « قمت من مكانى، وقلبت اللوبيا وقلت. «والمسألة مش مسألة رأى، مسألة أنانية. إحنا الستات بيتهد حيلنا من الصبح لحد بالليل علشان نجهز لكم انتم يا رجالة كل حاجة، وانتم فاكرين انكم بتبنوا عالم أفضل، ولا بتفكروا فينا ولا فى الاولاد».

تحدثت لمدة خمس دقائق عنا «نحن النساء» «وأنتم الرجال» وجارنيك يصغى صامتًا. وكانت المشكلة تكمن فى أن حديثى كان يبدو ظالمًا حتى بالنسبة لى أنا كنت قد طرحت شيئًا أنا على ثقة من أن الحق معى فى جانب من جوانبه، ولم أكن أعرف مع هذا كيف أقول له بحيث لا يبدو مجرد ثرثرة امرأة غاضبة تشاجرت مع زوجها. قام جارنيك من مكانه وذهب ناحية الموقد ورفع غطاء إناء اللوبيا وقال «الله الله، لوبيا رائعة، متهيألى إنه إذا كنا إحنا الرجالة ـ الأنانيين ـ زى ما بتقولى مابنحاولش نبنى عالم أفضل ـ زى ما بتقولى برضه ـ فانتوا يا ستات بتطبخوا إيه فى الحلة دى، ده لو فضلت حلة؟».

نظر إلىَّ وفى يده غطاء الإناء، ثم أمال رأسه وابتسم. كانت البنات يصحن فى الفناء «٩٨، ٩٩، ١٠٠، هييه» كنت واثقة أن هناك رد على كلام جارنيك، كنت واثقة ، لكن شيئًا لم يكن يخطر على بالى. فقلت له: «تاكل لوبيا؟».

ـ ٤٤ ـ

قال يوب «أ رجو ان حضراتكم تكونوا سعدا وراضيين عن القرار ده زيى أنا وآليس، أنا بعت جواب إلى أمى وخالتى فى هولندا، وهما كمان سعدا وراضيين فلو حضراتكم كنتم سعدا وراضيين، فأنا وآليس هانكون إحنا كمان سعدا وراضين»

فك آرتوش عقدة رباط عنقه، واعتدل فى جلسته على الفوتيه.

كانت آليس قد قالت فى اليوم السابق لذلك: «قولى لآرتوش يلبس كراڤته وإنتى كمان إلبسى هدوم شيك، وحطى أحمر شفايف، وابعتى الأولاد عند نينا، أو... مش عارفة، المهم إنهم مايعملوش دوشة».

ولم يخطر ببالى أن أسأل لماذا لا تقيم مراسم خطبتها فى بيتها؟ من أجل أن أكون قد فعلت شيئًا قمت وقدمت لهم الحلوى، أخذ يوب من الخبز بالقشدة الذى كانت قد اشترته آليس، ولم يلمس الحلوى التى كنت قد أعددتها. وقال «أنا باحب العيش بالقشطة جدّا، شات شات مرسى» ونظر إلى آليس وابتسم فضحكت آليس والتفت إلىَّ وقالت:

«أنا باعلمه الآرمينه» ثم أعادت طبق الحلوى المنزلية وقالت:

«هو بيحب العيش بالقشطة بس» قالت أمى:

«شات شات لاو» ونظرت إلى المساحة الضيقة جدًا بين آليس ويوب بابتسانتها التى كانت وكانها اتصقت بوجهها وهزت رأسها. كان ىرمن فى حجرته، والبنتان ذهبتا لتركبا الدراجة ومعهما النقود التى أعطيتها لهما لتشتريا الخبز ديرى و«كل اللى انتى عاوزينه» من استور حين قلت لهما ذلك لمعت عيونهما.

كان يوب يشرح لـ «آرتوش» بدقة تفاصيل الماء الساخن فى بيتهم فى هولندا، وآرتوش يضغى بدقة، لم افهم أكان يريد أن يستهلك الوقت أم أن الموضوع كان بالفعل مثيرًا بالنسبة له.

نظرت آليس إلى السقف وقالت: «سمعت أن إميل وڤيوليت هايجوزوا».

منذ أن اصبح زواجها من يوب مؤكدًا صارت لا تنظر إلى وجهى أثناء الحديث. فرغن أن قامتها أقصر منى ـ عندما تتحدث إلى تبدوا وكأنها تنظر إلى من أعلى.

«ڤيوليت المسكينة، بحماتها الجديدة دى، طبعًا هى متهيألها إنها أول ما تتجوز حماتها الأزعة دى هاتديها مجوهرتها». ساعدتنى أمى فى إعداد مائدة العشاء وهى تتحدث بشكل متصل أثناء ترددها بين حجرة الطعام والمطبخ.

«كان نفسى آليس تتجوز فى كنيسة عبدان، روحى فدا صليب محرابها. أنا ندرت لحد دلوقت ندور كتيرة، ندر ليكى علشان تولدى بالسلامة، وندر علشان إيد آرمن المكسورة تخف بسرعة، وندر علشان عملية اللوز بتاعة البنتين، وده كان ندرى الأخير، إنتى عملتى تلت أطباق سلاطة؟ محدش عندنا بياكل سلاطة كتير، مع انك عاملاها حلو، آليس أكلها كله الأيام دى بقى سلاطة».

كانت البنتان وآرمن يلعبون لعبة السلم والثعبان على مائدة المطبخ.

ـ «وصلت أربعة».

ـ «لا، ثلاثة»

ـ «أربعة، مش كده يا آرسينه؟»

ـ «أربعة، ماتنكرش يا آرمن»

ـ «واحد، اثنين، ثلاثة، أربعة إززز...طلعت فوق، دورك يا آرسينه»

صبت أمى التتبيلة فوق السلاطة:

ـ «ماحبش أبدًا يوب يفتكرنى من الحموات اللى بيتحشروا فى كل حاجة، فلو حبوا يروحوا هولندا ويتجوزوا هناك زى بعضه، مافيش فرق بين كنيسة وكنيسة»

قالت آرمينه:

ـ «لما تيته قالت الكنيسة افتكرت، النهاردة ولد فى سنه ساته قالت لنا نكتة حلوة، نحكيها يا آرسينه؟»

قالت آرسينه «نحكيها»

ثم حذرت آرمن قائلة «مكان زهرك فى المربع ده فوق التعبان التخين ده، ماتنكرش تانى، قولى يا آرمينه، «ماما تيته، اسمعوا» وبدأتا معًا فى الحكاية.

ـ «كان فيه ولد شقى أتعود كل يوم يخبط على باب الكنيسة»

ـ «وأول ما القسيس يفتح الباب يجرى»

ـ «وفى مرة استخبى القسيس ورا الباب»

ـ «لم الولد خبط على الباب القسيس فتح»

ـ «اتخض الولد الشقى، وقال....»

ـ «آسف جدّا هو عيسى موجود؟»

غرقت البنتان فى الضحك، وقال آرمن «قديمة» وحاولت أمى ألا تضحك وقالت:

ـ مايصحش الواحد يتّريق على عيسى والكنيسة، حرام

ـ قلت للأولاد أن يجمعوا لعبتهم، ووضعت إناء الأرز على المائدة، بدأت أمى فى تفتيش سلة الخضروات وهى تقول:

ـ ليوب إنهم لازم يعملوا حفلة هنا

كنت آمل ـ حتى تصل السلة إلى مائدة العشاء ـ ألاّ تلقى أمى بنصف الخضروات فى سلة القمامة بحجة ذبولها

ـ أنا مش لاقية البنت فى الشارع عشان أجوزها من غير فرح، ناولينى الحلة أحطها على الترابيزة، خسارة إن الرز اللى فى قعر الحلة لسه طرى»

غرفت «خورش قورمه سبزى»[1] فى سلطانيتين، وهمست «بس تتجوز آليس، فى الكنيسة ولا برة الكنيسة، بفرح ولا من غير فرح، المهم انها تتجوز» عادت أمى ضاحكة وقالت «عرفتى يوب قال إيه؟ قال...» قاطعتها:

ـ خذى الخورش عشان أغرف الـ«بارينج».

(١) خورش قورمه سبزى: طعام يصنع بكثير من خضروات الشبت والكسبرة والبقدونس والثوم مع قطع من اللحم واللوبيا، وهو محبب عند الإيرانيين (المترجمة).

نزعت أمى طبقة الدهن المجتمعة فوق البارينج وقالت :

ـ مش هايعملوا فرح ، مش مهم بندفع فلوس كتير، عشان الناس تاكل ، ليه؟ «م.م.م.... البارينج هايل ، إدينى المغرفة أغرف أنا ، إنتى تعبتى »

أعطيتها المغرفة. واتكأت على الرف وشربت شراب الـ«فيمتو» الذى كنت قد جهزته لنفسى. كان تعبى مجرد حجة فالبارينج الذى كانت أمى تعتقد أن أرامنة جلفا فقط هم الذين يجيدون طهوه ، وكانت توصى كل عام لكى يرسلوه لها من اصفهان ـ كانت أمى قد طبخته بنفسها ، وكانت تريد أن تغرفه خشية أن أفسده أنا.

كان ثلج الشراب قد ذاب ، فصار الشراب فاترًا ، ولم تكن لدى الرغبة لأخرج الثلج ، ثم تذكرت أن الثلج ضرورى على مائدة العشاء فاستدرت إلى الثلاجة. رصت أمى قطع اللحم بدقة فوق البارينج وقالت :

ـ «هما عارفين عاوزين إيه ، إذا كانوا هايعملوا فرح ماشى ولو مش عاوزين يبقى إحنا دخلنا إيه؟

وضعت الثلج فى كأس من البللور ، التفتت أمى يمنة ويسرة ونظرت إلى إناء البارينج :

ـ «أما نشوف البارينج هايعجب نسيبنا العزيز ولا لأ؟»

وحملت الإناء واتجهت ناحية الباب وهى تقول :

«بس يا ريتهم يعملوا فرح»

دخلت التوأمان تجريان :

ـ «ماما».

ـ «ماما».

ـ «شوفى جاب لنا إيه».

ـ «شوفى جاب لنا إيه».

كان يوب قد أحضر دميتين للتوأمين ، دمية ولد ، والأخرى بنت ، حملت كأس الثلج وذهبت مع التوأمين والدميتين إلى حجرة الجلوس ، وقلت بصوت عال : «اتفضلوا على الترابيزة» وشكرت يوب من أجل الدميتين.

وأشرت إلى البنتين لكى تشكراه.

اتجهت آرمينه إلى يوب، وقدمت وجنتها إلى الأمام وقالت « مرسى ».

فقالت آليس « قولى مرسى عمو يوب ».

وقدمت آرسينه وجنتها إلى الأمام وقالت « مرسى عمو يوب ».

قبّلها يوب، وسأل آرتوش « سميتوا العروستين إيه ؟ »

نظرت التوأمان لبعضهما، ثم قالتا معًا « لازم نفكر ».

حين دخل آرمن بجهاز تسجيل جديد ولامع إلى الحجرة قلنا جميعًا فى نفس واحد تقريبًا «أد إيه جميل ! » . احمرَّ يوب، تقدم آرمن إلى الأمام وشكر يوب فقال عدة مرات « العفو، العفو ».

على العشاء امتدح يوب الـ «بارينج » ، وقالت أمى عدة مرات « آنوش، آنوش » وترجمتها له آليس قائلة : « يعنى بالهنا والشفا، بالهنا والشفا « ثم شرحت أمى بمساعدة آليس فقالت إن الـ بارينج شئ يشبه برغل القمح أو الشعير الذى يحمرونه فى البداية ثم يسلق ويترك ليتشرب مع اللحم والبصل المحمر الكثير والقرفة مثل الأرز، وأثناء إنضاجه يجب أن يقلب باستمرار حتى لا يحترق قاعه. قالت آليس التى كانت قد تعبت من ترجمة كلام أمى :

ـ «خلاص، كفاية، هو مش ها يدخل مسابقة فى الطبخ بكرة ».

عند التوديع قبل يوب البنتين، وقالت آرمينه : « اخترنا اسمين للعروستين » سألتنى آرسينه فى أذنى « عيلة عمو يوب اسمها إيه ؟ قولى بالراحة ».

قلت لها فجرت ناحية آرمينه وهمست فى أذنها.

قدمت آرمينه الدمية الولد أمامنا وقالت « السيد يوب هانسن ».

وقربت آرسينه الدمية البنت وقالت « والسيدة آليس هانسن ».

كانت ضحكات آليس أعلى من ضحكاتنا جميعًا.

حين مد يوب يده ليصافحنى، تقدمت واحتضنته بدلاً من المصافحة، وقبلت وجنتيه وهنأته. تعجبت أمى وآرتوش بالتأكيد ولكن ماذا عن آليس ؟ يعلم الله ماذا

ظنت، وفى الأصل لم يكن مهمًا بالنسبة لى ماذا ظنت فقد كنت أنا فقط أعرف كم أنا مدينة لـ «يوب هانسن».

فى تلك الليلة حكيت للبنتين قصة بنت رأت فى المنام أنها صارت ضفدعة ـ لأنها كانت قد فعلت شيئًا سيئًا. وكانت خائفة جدّا، وحين استيقظت فى الصباح ورأت أنها ليست ضفدعة فرحت وقررت ألا تفعل شيئًا سيئًا مرة ثانية.

تثاءبت آرمينه وقالت: «قصة عجيبة».

وقالت آرسينه «بس هى متدلعه شوية، مش كده يا آرمينه ؟».

كانت آرمينه قد غرقت فى النوم.

قرأت مع آرسينه قصة «ثلاث تفاحات وقعوا من السماء» وأطفأت المصباح، وخرجت، وفى الممر قلت لنفسى: «كان الحق مع آرسينه، إنها حكاية مدللة» وذهبت إلى حجرة الجلوس.

بعد رحيل الضيوف كان آرتوش يتحسس بطنه وضحك وقال:

«أنا هافرقع من كتر ماكلت بارينج، أنا رايح أنام». وذهب إلى حجرة النوم.

جلست أمام التليفزيون صامتة ومددت رجلى فوق المائدة الموضوعة أمام الفوتيه واتجهت يدى ناحية رأسى وبدأت فى لف شعرى حول أصبعى. كانت حالتى طيبة ولا يداعب النوم عينىَّ لماذا ؟

هل لأننى كنت قد غسلت الأطباق كلها ونظفت حجرة الجلوس، وجعلت البيت كباقة من الورد ـ على حد قول أمى ـ ؟ أم لأن آليس أخيرًا، سوف تتزوج، ويوب ـ على عكس الانطباع الأول الذى أخذناه عنه أنا وأمى ـ يبدو رجلاً طيبًا وحنونًا ؟

وربما كان هذا لأن آرتوش عاد إلى البيت مبكرًا عن عادته ومعه إصيصين لزهرات البازلاء باللونين الوردى والأبيض، فنظرت إليها للحظات وأنا مندهشة ثم تقدمت واحتضنته وأنا أبكى.

أطفأت مصباح حجرة الجلوس وقلت لنفسى ربما استيقظت صباح اليوم وأنا أرى أنى لست ضفدعة.

ـ ٤٥ ـ

كانت الساعة العاشرة صباحًا.

كانت نينا على التليفون: « شفتى إزاى مدام زبل بتجهز كل حاجة بنفسها ؟ ».

خلتنى أحس أنها تعبانة ولازم أساعدها، دلوقت فاضل بس إن إحنا نشوف حماتها رسمى. بعد بكرة حفلة آخر السنة بتاعة الأولاد، باافكر أعمل عزومة عندى الخميس اللى بعد الحفلة، وإنتى وآرتوش تكونوا موجودين، مامتك وآليس اكيد هايكونوا رجعوا من طهران قبل يوم الخميس، مش كده ؟ ».

أجبتها بأنهما ستفعلان.

ـ طب ادينى رقم تليفون عيلة سيمونيان علشان اعزمهم .

ـ هو إنتى نسيتى رقم تليفونك القديم ؟ .

ـ إيه ؟ .

ـ رقم تليفون G4، نسيتيه؟ .

ضحكت بصوت عال جدّا أجبرنى على أن أبعد السماعة عن أذنى:

ـ « زى مامتك مابتقول، قولى لى يا حمارة، كنت منتبهة جدًا ولكن دلوقت ... » وفى النهاية ودعتنى.

وضعت السماعة وذهبت إلى حجرة الجلوس، كانت ماكينة الخياطة على مائدة الغداء، كنت أحيك للتوأمين ملابس حفل آخر العام، كان الربيع من الحرير الوردى، والصيف من الكتان القرمزى. كنت قد اشتريت للخريف قماشًا برتقاليًّا. وحول أكمام وذيل تنورة الشتاء حِكْت شريطًا أبيض من فراء الأرنب؛ قطع الجلد كان أحد أقارب آرتوش قد أحضرها من تبريز منذ أعوام. تذكرت أننى أنا وآليس ضحكنا كثيرًا حول «هو فيه حد عاقل يشيل جلد من تبريز لحد عبدان « وقالت أمى : « شيليه يمكن ينفع ».

أعددت للخريف تاجًا مصنوعًا من سنابل القمح، وسنابل القمح كانت قد أحضرتها «يوما» بعد أن شرحت لها بالتفصيل ماذا أريد.

كان البيت معتدلاً وهادئًا، ورائحة كعكة اللوز التى وضعتها فى الفرن تملأ المكان كله. ألصقت السنابل ببعضها البعض بالصمغ وتساءلت لماذا لم أقل لنينا أنى لا أعرف شيئًا عن عائلتة سيمونيان هذه الأيام كنت أعرف أن إميلى لم تذهب إلى المدرسة منذ أيام.

وأن البنتين قالتا «يمكن تكون عيانة، ممكن نعدى عليها ؟».

فقلت : « لا ». وقال آرتوش كذلك « إميل ماجاش الشركة من كام يوم، مش هاتعدى عليهم ؟ فقلت :ـ «لا».

قطبت البنتان جبينيهما، ورفع آرتوش حاجبيه دهشة، ولم يصر.

حكت الورود الصناعية ذات اللونين الأزرق والوردى على الشريط العريض الذى كان من المفروض أن تربطه آرمينه على رأسها مع ملابس الربيع.

لماذا لم أكن أريد أن أذهب إلى آل سيمونيان ؟ ربما لأنى لم أكن أريد أن أنشغل بهم من جديد. فلو ذهبت، ولو انشغلت بهم فإلى أى جانب كان يجب أن أنحاز ؟ الأم أم الأبن ؟ ألصقت طرفى الشريطين الطويلين العريضين اللذين كنت قد أعددتهما من القطن مع رباط الرأس الشتوى، ونظرت من النافذة إلى الفناء».

منذ عدة أيام وهذه العائلة المكونة من ثلاثة أشخاص تبدو لى وكأنها غير حقيقية وكأننى ابتعدت عنهم، أو كأنهم ابتعدوا عنى.

كنت أشعر أن كل هذا كان حدثًا فى فيلم رأيته منذ وقت بعيد جدّا وليست عندى رغبة لكى أراه مره ثانية. كانت ريح هادئة تهب بالخارج، ونافذة حجرة الجلوس فى G4 تلوح من بين أغصان أشجار الفيكس.

لم أكن قد فكرت بعد فيما سأفعل لرابطة الرأس للصيف. فلو أنى ألصق بها الورد لصارت شبيهة بالربيع.ما الذى يدل على الصيف غير الورد؟ لم يخطر ببالى شىء، فقلت لنفسى « سأجد له حلاً فيما بعد».

لا، لم أكن أريد أن أذهب إلى آل سيمونيان، فالأفضل ألا أتدخل. نظرت إلى الملابس وفكرت أن أعد للصيف تاجًا من الصفصاف.

ـ ٤٦ ـ

كانوا قد زينوا فناء المدرسة، وكانت المصابيح الملونة الصغيرة معلقة على الأشجار، والجدران مليئة بلوحات الأطفال، وخشبة المسرح فى أخر الفناء فى مكان زينوه بستار من القطيفة الخضراء. وصفوف المقاعد تبدأ من أمام المسرح وتصل حتى الباب تقريبًا.

كان آرمن ضمن المجموعة التنظيمية التى ترشد الآباء والأمهات والضيوف، وتتولى المقصف.

جلست على المقعد، ورحت أتبادل التحية والسؤال عن الأحوال مع المعارف حين ربت آرتوش على كتفى وقال لى : «مانيا»، وأشار إلى الدرج المجاور لخشبة المسرح، كانت مانيا تشير بيدها من أعلى الدرج أن «تعالى».

قلت لآرتوش أن يحافظ لى على مكانى وذهبت إلى كواليس المسرح، كانت البنات فى مجموعة الكورس يلبس تنورات كحلية اللون، وبلوزات بيضاء، وكان الأولاد يلبسون سراويل كحلية وقمصان بيضاء، وكانوا يتحدثون فى وقت واحد ويحدثون ضجة شديدة بحيث لم تكن تجدى صيحات السيد جورا معلم الموسيقى الذى كان يصرخ بشكل متصل « سكووت».

كانت مانيا قلقة ومنفعلة كعادتها، ربطت رباط رأس البنت ذات الشعر الأحمر وقالت لها « اجرى واقفى فى مكانك، وماتتحركيش كتير فينفك رباط شعرك فى أقل من ساعة».

ثم التفتت وسألتنى : «ماتعرفيش حاجة عن إميلى سيمونيان ؟ «منذ عدة أيام وآرمينه وآرسينه تقولان باستمرار « إميلى ماجتش المدرسة النهاردة كمان».

«مدام مانيا قالت إن إميلى لو ماجتش بكره يبقى لازم نلاقى سندريلا تانية» «واحدة من الفصل السابع بقت سندريلا ... » « متهيأ لنا إن إميلى هاتبقى أحلى فى دور سندريلا».

قلت لها « ماأعرفش، أنا سمعت إنك حطيتى مكانها واحدة من الفصل السابع».

سحبت مانيا يد الفتاة التى كانت قد أزاحت الستار القطيفة وراحت تلوح للجمهور وقالت لها « آه يا ملعونة، مين اللى قال لك تيجى هنا، اجرى روحى حجرة الملابس لحد ما تيجى دور العرض بتاعك» وقرصت خد البنت، فخرجت البنت بملابسها المحلية المزخرفة والملونة. ونظرت مانيا حواليها وقالت آه، لقيت سندريلا تانية «وأشارت إلى بنت ترتدى ثوبًا أخضر طويل جدّا وتقف عند باب غرفة الملابس تربط غطاء الرأس على رأسها بشكل معوج، وسألتنى: «جميلة، مش كده ؟».

نظرت إلى البنت، ونظرت إلىَّ فى اللحظة نفسها وابتسمت.

قالت مانيا: «من كتر ما كنت مشغولة الأسبوع ده ماكانش عندى وقت عشان اتصل بعيلة سيمونيان».

ثم صاحت فى وجه سندريلا الجديدة وقالت:

ـ« چاسمين، مافيش عندنا إيشارب معووج، سندريلا ما كانتش بتتدلع قبل ما تروح قصر الأمير».

ثم التفتت إلىَّ وقالت « المشكلة دلوقت مش سندريلا، مصيبتى الليلة هى الأمير، اتصلت دلوقت أم الأمير وقالت إن ابنها عنده حمى، وأنا دلوقت مش عارفة إعمل إيه فى نفسى».

قلت لها:

«أكيد إنتى مش عاوزه تدينى أنا دور الأمير».

لم يكن هناك شئ بعيد قط على مانيا.

غرقت فى الضحك: «تنفعى، جسمك مش بطال ثم قالت:ـ

بجد « اسمعى». كان آرمن بيحضر كل البروفات وخاصة الجزء الخاص بسندريلا والأمير، وفى بعض الأوقات كان بيصحح أخطاء الأولاد، ومش فى بالى حد أفضل من آرمن. بعتت وجبت ملابس الولد المصاب بالحصبة، وهى مناسبة لـ آرمن، هما مقاس واحد، على ما يخلص برنامج مجموعة الكورس والشعر والرقص، ثم نظرت إلى ساعة يدها وأكملت.

«بعدها ها يقدموا جوائز الأوائل و ... وبالحسبة دى يبقى عندنا ساعة وشوية يمكن نقدر نعمل بروفة، فكرة مش بطالة، ها ؟»

سحبت نفسى للخلف كى لا أصطدم بمكبر الصوت الذى كانوا يحملونه إلى وسط المسرح وقلت « فكرة مش بطالة أبدًا. لو قبل آرمن».

ضحكت مانيا ووضعت يدها على ظهرى وقالت « روحى دورى عليه وابعتيه لى هنا، وسيبى إقناعه علىَّ».

مررت من بين صفوف المقاعد التى كانت قد امتلأت تقريبًا وأنا أفكر أنها ليس مستبعدًا أن تستطيع إقناعه.

على الرغم من أن آرمن كان ظاهرة فى الإصرار وعدم القيام بالعمل الذى لا يريد أن يقوم به، ومانيا كذلك كانت أعجوبة فى إنجاز العمل الذى تريد أن تعمله.

تذكرت ما حدث منذ سنوات سابقة حين أقنعت قسًا صعب المراس فى الكنيسة بأن يؤدى دور الأسقف فى مسرحية العام الجديد.

بحثت عن آرمن فوجدته بجوار المقصف يرص زجاجات البيبسى والكندا دراى فى المبرد. فقلت له أن يذهب إلى مانيا فى الكواليس. وعندما عدت إلى مكانى كانت نينا جالسة بجوار آرتوش. رفعت حقيبتها عن المقعد الخالى وقالت لى: »

ـ تعالى، حجزت لك المكان، قولى لى أيه اللى حصل ؟ سألتها : «فين جارنيك؟» فقالت بسرعة :

ـ راح الأهواز فى مهمة تاخد كام يوم هو تليفون عيلة سيمونيان ما بيردش ليه ؟ .

نظرت حولى فلم أجد ڤيوليت. شدت نينا كم ثوبى وسألتنى : «سرحانة فى أيه ؟ قلت لك إن تليفونهم ما بيردش. دى ڤيوليت عاملة زى الكلب المضروب برصاصة، حاولت كتير أخليها تيجى معايا مارضيتش أبدًا، وفضلت فى البيت تستنى تليفون إميل»

أضاءوا كشافات النور المواجهة للمسرح، واضطرت نينا أن تسكت كما فعل الجميع. أزيحت الستار، وجاءت مانيا ورحبت بالحاضرين عبر مكبر الصوت.

نظرت إلى مانيا وشردت أفكر فى أنه ربما حدث شئ ما داموا لا يردون على التليفون.

أيعنى ذلك أنهم مرضى حقًا ؟ ليتنى مررت عليهم ، لماذا لم يتصلوا هم ؟

انتهى الترحيب وصفقنا جميعًا ، ثم جاء قازجن هايرابتيان وخطب عبر مكبر الصوت وقدم تقرير المدرسة السنوى. لماذا كان يجب أن يتصلوا ؟ غنت جماعة الإنشاد ، غنت الأناشيد التى كانت تغنيها كل عام ؛ جبال وطنى العالية ، فى أمان الله يا مدرستى العزيزة ، وجزءًا قصيرًا من أوبرا آنوش.

هل كنت مستاءة من حماقتى ، أم من إميل وأمه ؟ آرمينه وآرسينه صارتا الربيع ، وغنيتا الخريف والصيف والشتاء والأغنية دون أن تخطئا.

تذكرت أننى لم أقل لمصور الحفل أن يلتقط لهما صورة. لماذا يتحتم على أن أنشغل بإميل ؟ أو بأمه ؟ أوشك ولد صغير أن يقع على الأرض لأنه أثناء ذهابه باتجاه مكبر الصوت تعثرت قدمه بالسلك ، انزعجنا جميعًا فى بادئ الأمر ، وعندما التفت الولد لأمه وأبيه من فوق خشبة المسرح وقال :

ـ «مش غلطتى ضحكنا ، وحين انتهى شعره صفقنا له أكثر من الباقين» .

أعلنوا الاستراحة لمدة ربع ساعة ، فبدأت نينا من جديد «ڤيوليت على حق ، عملت لحماتها دى كل اللى قدرت عليه ، بس كانت بتغير منها ، من جمال ڤيوليت وشبابها ، وعشان إميل حبها. يا ترى هانعمل إيه دلوقت ؟ لازم تساعدينا ، لازم تتكلمى مع أمه ، لازم ...» .

كنت أريد أن أصرخ فيها «دعينى وشأنى» حين أمسك آرتوش بساعدى وقال لى :

تعالى ، عاوزك فى حاجة .

اتجهنا ناحية المقصف ، أشترى آرتوش من البنت التى كانت تضع شارة التنظيم الحمراء شرابا وأعطاه لى. جعل الشراب الحلو حالى أفضل.

قالت البنية : « أهلاً مدام ايوازيان ، شفتى آرمن بملابس الأمير ؟» .

نظرت إليها وتذكرت أنها كانت قد جاءت مع آرمينه وآرسينه إلى بيتنا عدة مرات ، وأن آرمن كان قد أطلق عليها اسم «وروبينا السمينة» ابتسمت وقلت لها « أزيك يا روبينا ؟» .

أغمضت عينيها وقالت «ده بقى كأنه أمير حقيقى» ثم فتحت عينيها وطرفتهما

عدة مرات وذهبت ناحية الرجل الذى كان قد قال لها ثلاث مرات : « من فضلك ساندويتشين كالباس » .[1]

التفتتّ ناحية آرتوش وسألته : « كنت عاوزنى فى إيه ؟ » .

صافح واحدًا من المعلمين وسأله عن أحواله ، ثم قال لى :

ـ ولا حاجة ، أنا كنت عاوز أنقذك من إيد نينا.

أعطى ڤازجن هايرابتيان جائزة للتلاميذ الممتازين. أخذت كل من آرمينه وآرسينه جائزة وجريتا ناحيتنا. جلست آرسينه بجوارى ، وجلست آرمينه بجوار آرتوش وأريتانا الجائزتين وكانتا كتابين ؛ كان كتاب آرمينه هو ترجمة أرمينية لرحلات جاليوربود ، وكتاب آرسينه ترجمة لكتاب لورد فونتلروى الصغير.

كانت نينا تتململ فى مقعدها وتريد أن تتحدث فلا تسنح لها الفرصة.

أطفئت مصابيح الفناء ، وأزيح الستار ، وبدأت مسرحية سندريلا.

لعب آرمن والبنت التى كنت قد رأيتها وقالت لى مانيا اسمها ولم يعلق بذاكرتى دورى الأمير وسندريلا ببراعة فائقة إلى درجة أن صفق لهم الجميع ثلاث مرات وأطلقوا صفير الإعجاب.

كان آرمن بسرواله الأسود الواسع والصديرى اللامع يروح ويجىء على خشبة المسرح طولاً وعرضًا وكأنه فى قصر حقيقى ، وعندما كان يرحب بسندريلا ويرقصان معًا تساءلت « أين تعلم هذه الأشياء ؟ » وتساءلت : « هل هذا هو الطفل الصغير ؟ » و « متى مرت كل هذه السنوات ؟ » .

دارت شورلت مع أول محاولة ، وقالت البنتان « فلتحيا شوى العزيزة « ، وقال آرتوش « ها نتعشى دلوقت فى النادى ونحتفل بفوز البنتين بجايزة التلميذ الأول ، وبفن ابننا » قال الأولاد « يا سلام ، يا سلام » ضحكت معهم وتذكرت أننى كنت قد وعدت نينا بأن أذهب إلى آل سيمونيان بمجرد أن أصل إلى البيت.

ظلت التوأمان تتحدثان بشكل متصل من المدرسة حتى نادى « جلستان » عن

(١) الكالباس : نوع من السجق (المترجمة).

الحفل، وعن الأحداث التى جرت فىحجرة الملابس وفى الكواليس، وعن تمثيل أخيهما، فقام آرمن «ما كانتش حاجة صعبة قوى».

وصلنا إلى النادى، وعند دخولنا من الباب التفتت آرمينه إلىَّ وسألتنى:

ـ قلتى للمصوراتى ياخد لنا صورة ؟.

وقالت آرسينه:

ـ قلتى له ياخد لنا صور كتير؟.

كنت أبحث عن الجواب وأنا فى حيرة من أمرى حين قال آرتوش «أنا قلت له» وأمسك بيدى البنتين اللتين راحتا تتقافزان على جانبيه لأعلى ولأسفل.

ذهب إلى قاعة الطعام، وقفت عدة لحظات ونظرت من خلفه.

لم تكن قاعة الطعام مزدحمة. جلسنا خلف مائدة ورحنا نقرأ قائمة الطعام فسمعت صوتًا عميقًا يقول «مساء الخير»، كان بابيون السيدة نوراللهى أزرق فاتحًا وبه ورود بنية صغيرة.

قام آرتوش وقدم لها مقعدًا على سبيل المجاملة فقالت السيدة نوراللهى:

ـ «أنا مش هاأضايقكم، شفتكم جايين فقلت اسلم عليكم، كنت بااجهز لخطبة الجمعة الجاية مع السيد سعادت»

ومسحت بيدها على رأسى البنتين وابتسمت لآرمن، سألها آرتوش عن موضوع الخطبة من باب المجاملة.

قالت السيدة نوراللهى: «نبذة عن حقوق المرأة» ونظرت إلىَّ:

ـ إنتى أكيد ماعندكيش وقت، لكن لو جيتى وشرفتينا بالحضور هااكون سعيدة جدّا.

ثم مسحت على رأس البنتين مرة ثانية وودعتنا وذهبت.

طلبنا الطعام، ثم قالت آرمينه «ماما، يعنى أيه حقوق المرأة ؟».

وكررت آرسينه السؤال نفسه «يعنى إيه حقوق المرأة ؟» أعطيت قائمة الطعام للنادل وقلت: «لما تكبرى ها تفهمى».

نظرت إلى السيدة نوراللهى التى كانت تتحدث مع السيد سعادت بجانب باب قاعة

الاجتماعات. تذكرت أن عندى تايير من قماش فستان السيدة نوراللهى. قال آرتوش شيئًا وضحك الأولاد وقال لى آرمن « سمعتى يا ماما ؟ » قلت له «أنا جاية حالاً» وقمت من مكانى.

كأن السيدة نوراللهى كانت تنتظرنى فلم تتعجب قط لرؤيتى مرة ثانية عندما سألتها ما الذى أستطيع أن أفعله من أجل جمعيتكم نظرت إلىَّ وابتسمت وقالت : »

ـ حاجات كتير، ها نتكلم مع بعض يوم الجمعة. فقلت لها :

ـ يبقى نتكلم يوم الجمعة «وعدت إلى المائدة».

حين نزلنا من السيارة عند باب البيت استدارت نظرتى ونظرة البنتين إلى الناحية الأخرى من الشارع. وضع آرتوش شورلت فى المرآب وأخرج آرمن ملابس الشتاء والصيف والخريف والربيع من الحقيبة الخلفية للسيارة.

كان الباب المعدنى لفناء G4 مفتوحًا على مصراعيه.

قالت آرمينه بهدوء «ماما، هانعدى على إميلى بكره ؟».

وقالت آرسينه بتوسل «والله يا ماما تخلينا نروح عندها».

داعبت شعرهما المجعد وقلت «هانفوت عليها بكره أكيد».

ـ ٤٧ ـ

حين استيقظت من النوم كانت الشمس منعكسة على مرآه التسريحة، تذكرت أن آرتوش عند ذهابه همس لى فى أذنى قائلاً :

ـ نامى، الأولاد ماعندهمش مدرسة وضعت يدىَّ خلف رأسى وقد تشابكت أصابعى ورحت أشاهد لعبة النور والظل فى المرآة.

أكان صوت زقزقة العصافير الذى يترامى من الفناء أم تراقص النور علىٍ المرآة أم اعتدال جو حجرة النوم هو الذى جعلنى فى حالة طيبة ؟. كان كل شئ جميلاً.

كان مزاجى صافيّا، أزحت الملاءة وقمت.

فتحت الدولاب ونظرت إلى الملابس التى كنت ألبسها فى البيت عادة، ثم إلى الملابس التى كنت قلما ألبسها. أخرجت لباس الفروسية المنقوش الذى لم ألبسه أكثر من عدة مرات لأن أمى وآليس قالتا لى إن « صدره مفتوح جدّا ».

مشطت شعرى أمام المرآة، ومسحت يدى ببعضهما فلم أجد أثرًا لجفاف الجلد.

سرت ناحية المطبخ وأنا أكرر بصوت عال سطرًا من مسرحية سندريلا كان آرمن قد مثله أمس معبرًا بحركات يديه ورأسه وهو يقول :

ـ من هذه الحسناء الرقيقة ؟ آه إنها فتاة أحلامى ».

ضحكت بصوت عال، ودخلت إلى حجرة البنتين، كان السريران خاليين، ثم دخلت إلى حجرة آرمن وكان السرير خاليّا، وكانت هناك ثلاثة أكواب لبن نصف فارغة على مائدة المطبخ.

كنت أجمع الأكواب واتساءل أين هم حين وصل ثلاثتهم.

قالت آرمينه : «مفيش حد فى G4».

وقالت آرسينه : « لا إميلى، ولاأبوها، ولا جدتها ».

وقال آرمن : «أفتكر انهم لموا حاجاتهم وعزلوا».

وقع كوب من الأكواب من يدى على البلاط، فصاحت البنتان «ياه» وقفزتا إلى الخلف.

وتقدم آرمن «حصل لك حاجة؟»

فأجبته : «لأ ما حصلش، حاسبوا أنتوا»، وأخذت جاروف جمع التراب من ركن المطبخ. أين ذهبوا ؟ ولماذا ؟ ومتى ؟ كانت البنتان تتناقشان.

«إميلى أكيد كانت عيانة قوى، فأخذوها للمستشفى فى طهران».

«طب والعفش راح فين ؟».

«يمكن جدتها كانت عيانه».

«طيب العفش فين ؟».

«هما أكيد عزلوا وإحنا فى الحفلة امبارح».

رفع آرمن قطعتين من الزجاج عن الأرض، وألقاهما فى سلة القمامة وقال للبنتين «أنتوا بتتكلموا كتير قوى، أخرجوا من هنا عشان ما تنجرحوش».

حين عاد آرتوش عصرًا كان يعرف أن إميل استقال فقط، أما لماذا استقال أو أين ذهب، لم يكن أحد يعرف.

كنا نتناول العشاء حين دق جرس التليفون، قام آرمن بسرعة وقال :

«أنا هاارد» نظرت التوأمان لبعضهما وضحكتا دون أن تصدرا صوتًا، وحين سألتهما «حصل إيه ؟» اتخذتا هيئة جادة وقالتا معًا «مفيش» عاد آرمن إلى المطبخ وقال لى «دى خالتى نينا».

كان صوت نينا على غير عادته، فلم يكن فرحًا ولا رنانًا، قالت : «شفتى المصيبة اللى وقعت على راسى ؟ الحقير مشى فجأة، وقيوليت من الصبح بتلف فى البيت زى المجانين وتعيط، وعمالة تسب وتلعن فى الدنيا وكل حاجة الحمد لله أن جارنيك مش راجع لحد بعد بكره، لكن ما حدش عارف إيه اللى ها يحصل لما ييجى، هاقول له إيه لو البنت دى عملت فى نفسها حاجة، مااعرفش إيه الذنب اللى هى عملته».

حاولت أن أهدئها، وسألتها : «هى الحكاية جد للدرجة دى ؟».

وندمت على سؤالى هذا على الفور. فلو لم تكن المسأله جادة لما تركت مدام سيمونيان بيتها وحياتها ورحلت.

كانت نينا تحكى لى تفاصيل الأحاديث التى تبادلها إميل وڤيوليت معًا وأنا أتساءل كم مرة انتقلت الأم من مدينة إلى مدينة من أجل ابنها حتى الآن ؟ وهل كان ذلك مفاجئًا إلى هذه الدرجة كل مرة ؟ أم أنه لم يكن ؟ هل فعلت الصواب؟ أم أنه لم يكن كذلك ؟ ربما كان ذلك أمرًا سيئًا. لم يكن يجب أن تتدخل. وربما كانت تعرف ابنها جيدًا وكان ينبغى أن تتدخل.

أنقذتنى نينا من كل هذه التساؤلات حين قالت :

ـ يا ترى ممكن صوفى تقعد عندكم كام يوم، أنا مضطرة أروح طهران مع ڤيوليت.

أجبتها أن صوفى ستبقى عندنا بالطبع، وعليها أن تخبرنى إذا كان هناك ما أستطيع أن أفعل.

شكرتنى نينا وهى مشوشة الانتباه، وودعتنى، ووضعت السماعة.

حين وضعت السماعة خرج آرتوش وآرمن من المطبخ، وقال آرمن :

ـ شوى العزيزة، تعبت تانى، هانوديها للدكتور.

وذهب مع آرتوش إلى المرآب.

اتكأت على منضدة التليفون وقلت فى نفسى جاءوا فجأة وذهبوا فجأة كأمطار عبدان ما أن تبدأ فى الاعتقاد أنها تمطر حتى تكف عن المطر.

وشردت أتمنى ألا تصل أخبار إميل وڤيوليت إلى أمى وآليس، فلم تكن لدى الرغبة فى سماع وجهات نظر آليس، وجمل أمى حين تقول «أنا كنت عارفة من الأول». كان صوت حديث التوأمين يترامى آتيا من المطبخ :

«فاكرة لما قالت لنا نحدف الأستاذ جورا بالطماطم».

«أيوة، كويس إن إحنا ماسمعناش كلامها».

«بس هى حدفتها كلها، وبعدين تهمتها فى الفصل الثامن».

«أيوة، وفى المطعم شدت الكرسى من تحت روبينا بالذات وبعدين قالت إنها ما كانتش تقصد، بس هى كانت قاصدة، مش كده ؟».

«ايوة طبعًا كانت قاصدة، وكمان قطع الشلتة كانت عملتها مش كده ؟»

«أيوة، هى أصلاً كانت مصاحبانا عشان خاطر آرمن، وكمان ماكانتش بتحب رابونزل خالص».

ـ «خسارة أنها قطعت فستان رابونزل الأحمر. ليه سبناها تعمل كده ؟».

ـ «عشان هى قالت إنه مش فستان حلو».

ـ «وكمان قطعت فستانها الأبيض أبو أكمام منفوشة».

ـ «وكمان خلتنا فى المدرسة نزعق ونقول مارجريتا هى شيتا».

ـ «عملنا حاجة وحشة».

ـ « عملنا حاجة وحشة».

ـ ٤٨ ـ

كانت البنتان قد ذهبتا إلى حمام السباحة مع صوفى، وكان آرمن فى منزل صديقه، وكنت أنا انتظر آليس وأمى حيث كانتا قد عادتا من طهران أمس فى وقت متأخر.

ودق جرس التليفون، ورفعت السماعة ونظرت إلى نفسى فى مرآة الدهليز وتساءلت هل أنا سمنت قليلاً ؟

قلت آلو، ونعم عدة مرات دون أن يجيب أحد فوضعت السماعة وفتحت الباب لأمى وآليس. قبّلت أمى وجهى، واحتضنتنى آليس بقوة وقالت «إنتى احلويتى قوى، بس يظهر سمنتى شوية، مش كده ؟ أما أنا فخسيت، شوفى». ودارت فى الدهليز دورة كاملة.

كانت على حق، كانت قد صارت نحيفة، لا أعرف هل تعجبت لنحافتها أكثر أم للقائها وقبلاتها الحارة.

ذهبنا إلى المطبخ ووضعت أمى وآليس علب الحلوى والساليزون التى كانتا قد اشتريتاها من طهران. على المائدة. لم تكن آليس قلقة، أخذت كنكة القهوة من يدى وقالت لى « هاأعملها أنا» وأعدت القهوة وحكت قائلة:

ـ قررنا نعمل الفرح هنا، ووصيت مطبعة صاحبنا السيد داوتيان على كروت الدعوة، على فكرة ده بيسلم عليكى، ده راجل لطيف جدّا، لو ماكانش وصى على كروت الدعوة ماكانتش هاتجهز فى ميعادها، ووصيت نجرو على التورتة، ودلوقت بقى حذرى جبت إيه من طهران؟.

رفعت الكنكة من على الموقد، ووضعتها على الرف واستدارت ناحيتى، وفتحت يديها عن بعضهما وأمالت رأسها وقالت:ـ «فستان العروسة»

ابتسمت أمى، وضحكت أنا من أعماق قلبى.

هذه المرة اتجهت أنا ناحية أختى واحتضنتها وقبلتها وقلت لها:

«مبروك، ألف مبروك».

انقضى الصباح فى التخطيط لحفل الزفاف وكتابة أسماء الضيوف.

حين عادت التوأمان وصوفى من أجل الغداء احتضنت آليس ثلاثتهن وقالت لهن إنهن يجب أن يكن وصيفات العروس ويلبسن ثيابًا زرقاء ووردية.

قالت آرمينه : «خالتى ، إنتى اللى هاتتجوزى الأول ولا خالتى ڤيوليت؟».

ووقفت مع آرسينه وصوفى وهن ينتظرن الجواب ، ونظرت إلىَّ أمى وآليس.

تلعثمت وقلت : «زفاف خالة ڤيوليت إتأجل ، يعنى ... ».

وجعلت صوفى الوضع أسوأ وقالت : «وعلشان كده فضلت تعيط طول النهار إمبارح وأول إمبارح ؟».

قالت آرسينه وآرمينه معًا : «تعيط ؟».

نظرت صوفى إلىَّ وترددت بين أن تقول أو لا تقول ، وفى النهاية قالت :

«كانت بتعيط وبتقول إن كل ده بسبب القرشانة».

قالت آرمينه : «يعنى إيه قَرَشَانة ؟».

وقالت آرسينه : «يعنى الأُزعة».

قامت آليس من مكانها ، ووضعت الحلوى للبنات فى الطبق وقالت لهن :

«القَرَشانة معناها مش الأُزعة. ومش كويس إننا نقول أى واحدة من الاتنين ، خدوا الحلويات وروحوا العبوا مع العرايس لعبة الضيوف».

عند خروجهن من المطبخ وضعت آرسينه يدها على كتف صوفى وقالت :

«مش مهم ، المهم إن عندنا فرح ، وها نلبس فساتين الوصيفات ، وها تفضلى عندنا ، مش كده يا آرمينه ؟».

قالت آرمينه : «أيوة ، ياريت خالتى نينا ما ترجعش بسرعة» وخرجت الثلاثة ضاحكات.

نظرت أمى إلىَّ وقالت : «إيه اللى حصل ؟» كانت آليس متكئة على المائدة.

حكيت القصة ، وحين سكت قالت أمى : « مش قلت لكم من أول يوم إن الست

دى مجنونة ، ومش قلت لكم إن ابنها مجنون زيها ؟ أنا بااكدب ، لو بااكدب قول لى إنتى كدابة ؟ » .

كانت آليس تلعب بالخيط الملفوف حول علبة الساليزون ، وقالت : « ما تتهميش الناس بالباطل ، مادام احنا مانعرفش إيه اللى حصل ، على كل حال دى حاجة ماتخصناش ، مسكينة ڤيوليت » .

نظرت إلى آليس وكأننى كنت أراها لأول مرة ، منذ أن عرفت أختى وهى تلقى الناس بالتهم ببساطة كشرب الماء ، وتدلى برأيها فى أدق تفاصيل حياة الجميع وتصدر الأحكام والآن « ما تتهميش الناس ؟ » « دى حاجة ماتخصناش » « مسكينة ڤيوليت؟ » شعرت أنى أحب يوب جدّا .

دق جرس التليفون وقفز آرمن ـ الذى لم أعرف متى عاد ـ من حجرته قائلاً : أنا هاارد » ثم جاء إلى المطبخ وقال : « الأستاذ الهولندى عاوز خالتى آليس » .

وضعت آليس يدها على كتف آرمن وقبلت وجنته وقالت :ـ

ـ أولاً أنت ما سلمتش علينا ، ثانيًا : الأستاذ الهولندى دى يعنى أيه ، بعد كده تقول عمى يوب. وذهبت إلى الدهليز ضاحكة.

قال آرمن عدة مرات « عمى يوب » وضحك وقبل جدته ، داعبت أمى وجنة حفيدها وقالت : « يا ريتنى أشوف فرحك أنت كمان » .

ـ ٤٩ ـ

ساعدتنى نينا فى الأعداد لعرس آليس خطوة بخطوة، وكان خوفى من أن تتحدث عن ڤيوليت بشكل مستمر بلا مبرر، فبعد عودتها من طهران لم تقل عن ڤيوليت كلمة واحدة.

فى الليلة السابقة على العرس كان آرتوش وجارنيك قد صحبا الأولاد لكى يأكلوا السمك فى آنكس، وكنت أنا ونينا جالستين خلف مائدة المطبخ نعد علب النُقل التذكارية التى سنقدمها للمدعوين فى حفل الزفاف، كنا نضع النقل الملون فى علب مربعة صغيرة كانت أمى قد زينتها بالورود، ثم نربط العلب بأشرطة من قماش الستان، وكان مكتوبًا على ناحية من الشريط « آليس ويوب »، وعلى الناحية الأخرى طبع تاريخ الزفاف.

وكانت آليس قد قالت : «أنا ها أنام الليلة بدرى عشان أبقى مرتاحة بكرة، ده لو نمت».

وكان المفروض أن تحيك أمى ـ التى كانت كل تفاصيل حفل الزفاف جذابة بالنسبة لها ـ الأخضر والأحمر؛ حيث كان من عادة أرامنة جلفا أن يلقوا بشريطين عريضين من الستان الأخضر والأحمر على أكتاف العروس والعريس والقس الذى يقرأ دعاء البركة، وأن يبدل إشبين العريس مواضع الشريطين عدة مرات. فالشريط الأخضر تعبير عن السعادة والرضا، والشريط الأحمر تعبير عن الحب. وكان آرتوش قد قبل أن يكون إشبينًا فى عرس آليس ويوب دون أى اعتراض.

كانت نينا تشرب شراب الكريز وتترنم بأغنية بصوت منخفض.

فى نهاية الأمر لم أصبر فسألتها :ـ «أيه أخبار ڤيوليت؟»

نفخت ورفعت كتفيها لأعلى وأحكمت رباط علبة النقل ووضعت العلبة فى السلة التى كنا قد ألصقنا حولها ورودًا صناعية، وشربت الشراب حتى الثمالة وأدارت

الثلج فى الكأس وقالت : «الواحد طول ماهو عايش بيتعلم، أنا عملت كل اللى قدرت عليه زى العادة، ولكنى كنت قلقانة من غير داعى».

وضعت الكوب على المائدة وأخذت علبة من العلب المربعة وقالت :

ـ لما رحنا طهران قعدت يومين تلاتة تعيط، وكسرت أطباق أمها الغلبانة لحد ما شافت أخو الجارة اللى ساكنة فى الدور اللى فوق، وبمجرد ما الولد ظهر هديت ورجعت ڤيوليت اللى الكل بيقول عنها مسكينة وبريئة.

على فكرة أنا دخَّلت تيجران المدينة الجامعية، الخطر اللى فى بيت خالتى أكبر بكتير من خطر المدينة الجامعية، ناولينى شريط من الشرايط دى.

أعطيتها شريطًا فقالت :

ـ فاكرة لما قلت لك إن ڤيوليت تشبه لك شوية، قولى لى يا حمارة ـ بقول مامتك وضحكت.

وضعت علبة النقل فى السلة وقلت فى نفسى «لا، بل قولى لى أنت يا حمارة».

عقدت نينا الشرايط حول العلبة وحملقت فى النافذة، لم تكن تضحك.

لم تكن ورود البازلاء ظاهرة من المكان الذى كنا جالستين فيه، قالت :ـ

ـ كلام مامتك اتحقق، فكرتى هاتعملى إيه بعد سفر آليس ....

نظرت إلى النافذة فقد حاولت طوال هذه الأسابيع ألا أفكر ماذا بعد رحيل آليس ... قلبت شريط العلبة فى يدى وقلت : «مش عارفة».

وضعت نينا علبة النقل فى السلة وقالت : «ماتكلمتيش مع مامتك ؟».

وضعت علبة النقل فى السلة وقلت : «لأ، لسه».

نظرت مرة ثانية إلى ورود البازلاء وقالت : «طيب، يمكن بعد الفرح، ها ؟».

نظرت إلى العلب وأومأت برأسى وقلت «بعد الفرح».

ـ ٥٠ ـ

مرت عدة أيام على زواج آليس ويوب وسفرهما إلى هولندا.

حين وداعهما فى المطار قبل يوب وجنتى وقال :

ـ كلاريس أشكرك على تعبك معانا ، واطمنى أنا هااسعد آليس ، أمى وخالتى طلبوا منى أنى أسعد آليس.

كانت أكبر باقة ورود يوم الزفاف من أم يوب وخالته ، كانت ورود الشقائق الهولندية بلونيها الأحمر والأبيض.

قال آرتوش : إزاى قدروا يبعتوها من القرية البعيدة دى فى هولندا لحد عبدان؟

كنا أنا ونينا جالستين على الأرجوحة وآرمن يدور بدراجته قرب باب الفناء ، وكانت البنتان وصوفى يلعبن الاستغماية. قالت صوفى :

«مين هايبتدى ؟ نعمل قرعة «ووقفن وضربت صوفى على صدر كل واحدة منهن بالترتيب وغنت «آن ـ مان ـ ناوارا ـ دو ـ دو ـ اسكاجى ...» .

قالت نينا : «أنا مااعرفش معنى الكلام اللى بيقولوه ده لماييجوا يعملوا قرعة ؟ ثم أشارت إلى المطبخ وسألتنى : «اتكلمتى مع ماما ؟» .

كان شعر أمى الأبيض واضحًا من النافذة ، أجبتها : «أيوه» .

جرت البنات ناحية الفناء الخلفى ، وضربت نينا الأرجوحة بقدمها فتحركت ، ثم سألتنى : «آرتوش ما اعترضش ؟» .

نظرت إلى شجرة الأرجوان «أو لسان البقرة» الثالثة ، فقد مضى وقت وهى بلا اسم. بعد هجوم الجراد وتبرعمها مرة ثانية نمت بشكل واضح وأزهرت أكثر من أشجار آرمينه وآرسينه.

ضربت بقدمى وتحركت الأرجوحة وقلت : «ما اعترضش عشان هو اللى اقترح» فانحنت نينا ناحيتى وقالت «حقيقى ؟» .

فى الليلة التى سبقت الزفاف بمجرد أن حاولت أن أفاتحه فى موضوع أمى ووحدتها بعد سفر آليس قال آرتوش وهو يعلق بنطلونه فى الدولاب :

« امتى هاتيجى عشان تعيش معانا ؟ » .

قهقهت نينا من الضحك وقالت : « أنا مش فاهمة أحوال جوزك ، مرة يبقى مؤذى وكشر ، ومرة ... » .

ترامى صوت بوق سيارة جارنيك قادمًا من الشارع ، فقالت نينا :

« ربنا يعينك على وسوسة مامتك وبرطمتها » ثم صاحت :

« صوفى ، إجرى ، أبوك جه » . ووقفت وعرجت ناحية الممر الضيق وهى تقول : « رجلى نَمِلت » والتفتت ناحية نافذة المطبخ وقالت :

« مع السلامة يا مدام وسكانيان » ثم عادت ناحيتى وقالت بهدوء « إن شا الله ما تكونش متضايقة ولا موسوسة من معلقة شاى ولا حاجة » .

قمت من على الأرجوحة وسرت وأنا أقول فى نفسى « معلقة شاى واحدة ولا ميت معلقة ؟ »

أطلت أمى برأسها من النافذة وقالت :

ـ فين نينا ؟ « خليكى معانا ، أنا طابخة رز أحمر » .

قفزت البنتان ـ اللتان كانتا قد عادتا من الفناء الخلفى مع صوفى وهما تتصببان عرقًا ـ فرحًا وقالت : « صوفى هاتفضل معانا »

« والله يا خالتى تسيبى صوفى تفضل معانا »

وتوسلت صوفى قائلة : « أنا باحب الرز الأحمر جدّا » .

نظرت نينا إلى البنات ثم قالت لى :

ـ « روحى اشترى الحاجات اللى إنتى عاوزاها » .

ثم نظرت إلى البنات مرة ثانية :

ـ آه منكم يا عفاريت ، انتوا مع بعض من أول امبارح ، مش كفاية ، ثم قالت لأمى :

ـ لازم اشترى هدايا كتيرة، وإلا ماكانش ممكن أقول نص كلمة عن الرز الأحمر بتاعك.

بالفعل لم يكن هناك أى اعتراض على «الأرز الأستانبولى» أو «الأرز الأحمر» الذى تعده أمى.

سرت مع نينا إلى الباب المعدنى، ولوحت بيدى لجارنيك، وقلت لـ «آرمن» الذى كان ما زال يدور بدراجته ما اتصلحتش ؟ فهز رأسه وقال :

ـ عجلة من العصر الحجرى تتصلح إزاى بالسرعة دى؟ فقلت له : « السنة قبل اللى فاتت بقت العصر الحجرى ؟ فقال : «العصر الحجرى يبقى السنة اللى فاتت». وضحك، وشعره منسدل على جبهته.

حين عدت إلى الفناء خرجت البنتان وصوفى من البيت، وفى يد آرمينه كتاب، وقالت لى : «ماما، هاتقرى لنا نهايتها ؟» وقالت ؟ آرسينه : «إنتى وعدتينا تقريها»، وقالت صوفى : «خالتى، وعدتينا امبارح، ووعد الحر ... ».

وضحكن هن الثلاثة، وجلسنا نحن الأربعة على الأرجوحة.

كانت الصفحة الأخيرة من لورد فونتلروى الصغير، قرأتها وأغلقت الكتاب، فقالت صوفى : «مسكين الولد الصغير ده».

وقالت آرسينه : «مسكين : ليه ؟».

قالت آرمينه : «انتهت نهاية حلوة».

وقالت صوفى : «أيوه، لكن فى بدايتها اتعذب قوى».

جاء صوت جرس التليفون عبر الدهليز، فنظرت البنتان وصوفى إلى آرمن، وعندما رأين أنه لا يسمع هبت آرمينه من مكانها وجرت ناحية البيت، وقالت صوفى «اصبرى » وجرت خلف آرمينه. ونظرت آرسينه إلى غلاف الكتاب وقالت : «يا ريت كل القصص تنتهى نهاية حلوة»

صاحت آرمينه من عند باب البيت « آرمن، تليفون، چاسمين».

وكررت صوفى : «آرمن، تليفون، چاسمين».

ألقى آرمن الدراجة وجرى الممر الضيق ودخل.

التفتت إلى آرسينه وقلت: «جاسمين ؟».

ضربت آرسينه الأرجوحة بقدمها فتحركت، ونظرت إلىَّ وضحكت، وقالت:

ـ إنتى مش فاكراها ؟ سندريلا

ثم أخذت الكتاب وقفزت من على الأرجوحة وجرت ناحية آرمينه وصوفى اللتين كانتا تشيران إليها من عند باب البيت أن تذهب إليهما.

ترامى صوت أمى عبر الممر وهى تقول: «دخلتوا البيت تانى بالجزم اللى مليانة طين ؟».

نظرت من ناحية فى الباب السلكى إلى جسدها النحيل وشعرها الأبيض وملابسها السوداء وهى تكنس الممر. كان بقاء أمى عندنا مساعدة كبيرة بالتأكيد.

مساعدة كبيرة وفى هذه الحالة ... كانت أمى قد أخرجت السجادة الموضوعة على أرضية الممر وراحت تنفضها.

هبت ريح لطيفة كانت غريبة على عبدان فى ذلك الوقت من العام. ضربت بقدمى فأهتزت الأرجوحة ورحت أفكر أى ملابس آخذ معى لرحلة طهران، وأى هدايا أشترى، فإذا بفراشة مرت من أمام وجهى. كانت بيضاء وبها نقط بنية فقلت: «أى فراشة جميلة»، فرأيت واحدة أخرى، ثم غيرها، كن سبعة أوثمانية طرن ووقفن على برعم زهرة حمراء.

كان إميل قد قال «إن الفراشات أيضًا يهاجرن»

نظرت إلى السماء، كانت زرقاء دون أى قطعة من السحاب.